السادات

في الرواية المصرية

الوهم والكابوس

مصطفى بيومي

السادات في الرواية المصرية

الوهم والكابوس

السادات في الرواية المصرية الوهم والكابوس

مصطفى بيومي

طبعة ٢٠٢٠

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لشركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات والتدريب والطباعة والنشر ،وعلامتها التجارية (شخابيط)

٢٤ شارع غزة _ المهندسين _ الجيزة

تليفون : 01145004994 2+ _ 0233031633 2+

info@sha5abet.com

إن شركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات والتدريب والطباعة والنشر ،وعلامتها التجارية (شخابيط) غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه

الغلاف: أحمد شاكر

اخراج فنى : عمرو محمد

المدير العام : د.سامح شاكر

رقم الايداع: ٢٠١٩/٢٣١٢٦

I.S.B.N ٩٧٨-٩٧٧-٦٧٦٠-٥٤-٧

السادات في الرواية المصرية

الوهم والكابوس

مصطفى بيومي

مقدمة

للرئيس أنور السادات «١٩١٨ - ١٩٨١»، حيا وميتا، حضوره القوى المؤثر في مجمل الحياة المصرية منذ بداية السبعينيات في القرن العشرين، حيث صعوده لمقعد رئاسة الجمهورية بعد رحيل جمال عبدالناصر، والفضل للموقع الذي يشغله نائبا للرئيس. لا ينتهى تأثير السادات بالاغتيال في حادث المنصة، أكتوبر ١٩٨١، ذلك أنه يمتد بلا توقف، توافقا مع استمرار مجمل السياسات التي يتبعها، اجتماعيا واقتصاديا، فضلا عن محور العلاقات الخارجية، طوال عهد خلفه محمد حسنى مبارك، بل إن التراجع ليس مطروحا بعد يناير ٢٠١١.

تنعكس أهمية السادات وخطورة دوره على الأدب الروائي المصري منذ مطلع الثمانينيات، الذي يبدو عظيم الاحتفال بتوجهه الموضوعى وسماته الشخصية على حد سواء، ويتمثل ذلك في إبداعات كتاب ينتمون إلى أجيال مختلفة ومدارس فنية متباينة ورؤى سياسية شتى. الروائيون موضوع فصول الدراسة هم:

١) نجيب محفوظ «١٩١١ - ٢٠٠٦».
٢) إحسان عبدالقدوس «١٩١٩-١٩٩٠».
٣) فتحي غانم «١٩٢٤-١٩٩٩».
٤) بهاء طاهر «١٩٣٥».
٥) صنع الله إبراهيم «١٩٣٧».
٦) جميل عطية إبراهيم «١٩٣٧».
٧) رءوف مسعد «١٩٣٧».
٨) خيرى شلبي «١٩٣٨ - ٢٠١١».
٩) علاء الديب «١٩٣٩ - ٢٠١٦».
١٠) يوسف القعيد «١٩٤٤».
١١) جمال الغيطاني «١٩٤٥-٢٠١٥».
١٢) إبراهيم عبدالمجيد «١٩٤٦».
١٣) مصطفى نصر «١٩٤٧».

١٤) محمود الورداني «١٩٥٠».

١٥) عمرو عبدالسميع «١٩٥٤».

١٦) ناصر عراق «١٩٦١».

١٧) مصطفى عبيد «١٩٧٦».

١٨) روبير الفارس «١٩٧٨».

في دراسة سابقة للباحث، تحمل عنوان «الحلم والكابوس.. عبدالناصر في الرواية المصرية»، دار روافد – ٢٠١٨، يبدو جليا انقسام الروائيين موضوع الدراسة بين مؤيد ومعارض وأقرب إلى الحياد والموضوعية في تقييم الرئيس جمال عبدالناصر ومرحلته التاريخية. لكن الأمر يختلف جذريا في التفاعل مع السادات وعصره. باستثناء نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس، الأقرب إلى الاعتدال والموضوعية في الشهادة المقدمة عن السادات، يجمع الآخرون جميعا، بدرجات متفاوتة من الحدة، على الإدانة والتشهير، ولا متسع للتأييد أو التعاطف. لا شك أن السياسات التي يتبعها السادات والأفكار المقترنة به، فضلا عن سماته وملامحه الذاتية، هي المسئولة عن الموقف السلبي متعدد الوجوه، لكن الأمر الذي لا يحتمل الجدال هو الإقرار الضمني بالأثر الخطير الذي يتركه الرئيس، داخليا واقليميا ودوليا، خلال سنوات حكمه التي تمتد من أكتوبر ١٩٧٠، وصولا إلى محطة النهاية المأسوية الدامية في حادث المنصة الشهير، حيث الاغتيال في الاستعراض العسكري، احتفالا بذكرى الانتصار في حرب العبور، السادس من أكتوبر ١٩٨١.

أحد عشر عاما في الحكم، تبدأ بالإعلان عن التمسك بميراث عبدالناصر وتوجهاته وشعاراته، وتنتهي باغتيال غير مسبوق على أيدى صنائع النظام وأدواته من الإسلاميين المتطرفين المشمولين برعاية ودعم النظام. بين البداية والنهاية، محطات ذات شأن، يتمثل أهمها في المحاور التالية:

أولا: الصراع على السلطة مع الجناح المناوئ في مايو ١٩٧١، الذي يحسمه السادات لصالحه في معركة يسميها «حركة تصحيحية»، قبل أن يروج الرئيس وأجهزة إعلامه لمقولة إنها «ثورة التصحيح»!.

ثانيا: العداء المتطرف والكراهية الأصيلة العميقة لعبدالناصر وجوهر سياسته، ما يبرر تصاعد الحملات الهجائية العنيفة ضد الرئيس السابق واتهامه بكل نقيصة ورذيلة، وصولا إلى الانقلاب الجذري الشامل على مجمل التوجهات الناصرية، التي لا تخلو من الأخطاء والخطايا بطبيعة الحال، لكنها تتسم بالانحياز إلى الفقراء والدفاع عن مصالحهم.

ثالثا: حرب أكتوبر ١٩٧٣، الإنجاز الأهم والأعظم للرئيس السادات، تتعرض لإجهاض المأمول منها. إذا كان الانتصار العسكري جديرا بالفخر والمباهاة، لأنه بمثابة الثأر ورد الاعتبار، فإن النتائج مخيبة للآمال، جراء الإدارة السياسية القاصرة غير المحسوبة، ما يقود إلى إهدار الفرحة سريعا، ويفضى إلى حالة التبعية غير المشروطة للولايات المتحدة الأمريكية، والسعى إلى السلام مع إسرائيل في تهور واندفاع، كما يتمثل في المبادرة والمعاهدة.

رابعا: انتهاج سياسة الانفتاح الاقتصادي العشوائي، بكل ما يترتب عليه من تحولات اجتماعية خطيرة مدمرة، ذلك أن الطبقة الطفيلية غير المنتجة، المسلحة بكل ما هو سلبى من القيم، هي من تفيد وتثري وتصعد، أما الكتلة الشعبية الفقيرة فتزداد تدهورا وفاقة، ولعل الأثر الأخطر من المعاناة المادية هو تغيير منظومة القيم القائمة، والتراجع المريع في التعليم والثقافة، مقابل الازدهار السرطانى الخطير للتعصب الديني والانتهازية والفهلوة، وترسيخ مبدأ الربح السريع دون نظر إلى وسائله وآلياته.

خامسا: التحالف المشين مع القوى الدينية الرجعية، الإخوان المسلمين والجماعات الدينية الخارجة من معطفها، يعبر عن عداء السادات الأصيل للأفكار والقوى اليسارية، الماركسية والناصرية، التي يتزايد نفوذها في الشارع المصري، ويتوهم السادات أنه سيجد في حلفائه هؤلاء ظهيرا شعبيا بفعل الرايات الدينية والشعارات العاطفية الفضفاضة التي تترك أثرا لا يمكن إنكاره في قلوب قطاع عريض من المصريين، وسرعان ما يتجه هؤلاء الحلفاء إلى العمل المستقل بعيدا عن مظلة السادات لتحقيق أهدافهم الخاصة، وبأيديهم يُقتل الرئيس الذي يصف نفسه بالمؤمن، ويثبت عمليا خطل سياسته غير الرشيدة، المسكونة بالمقامرة والاندفاع.

سادسا: التوتر الطائفى ملمح مهم في حقبة السادات، يبدأ مبكرا مع أحداث الخانكة، ١٩٧٢، ويصل إلى الذروة بمأساة الدرب الأحمر، ١٩٨١، مرورا باحتقانات وصدامات شتى تترجم الأثر الوخيم لمتاجرة السادات بالدين ومحاولة استثماره قصير النظر لتحقيق أهداف سياسية. يتكئ الرئيس على مفاهيم مثل «دولة العلم والإيمان»، ويلح على أنه «رئيس مسلم لدولة مسلمة»، ويتغافل عن حقيقة إن مقولاته هذه تأكيد على تدمير مدنية الدولة وضرب في الصميم لفكرة المواطنة.

سابعا: تمثل انتفاضة ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧، التي تشتعل بعد الارتفاع المباغت لأسعار عدد هائل من السلع الشعبية الضرورية، علامة فارقة في عصر السادات، وتكشف الشعارات المعادية التي يرددها المتظاهرون الساخطون عن وصول شعبية الرئيس إلى الحضيض. الانتفاضة تتويج لسياسات غير رشيدة يدفع الفقراء وحدهم ثمنها، بعد طوفان من الإسراف في وعود كاذبة بالرخاء، والانتفاضة أيضا تمهيد لقرارات عصبية تنم عن شعور السادات بالأزمة الخانقة التي تحاصره، ما يدفعه بعد شهور قلائل إلى طرح المبادرة وزيارة إسرائيل وتوقيع معاهدة السلام، وكلها محاولات يائسة لاستعادة الكثير الذي يتبخر منه.

ثامنا: قرارات سبتمبر ١٩٨١، التي تسبق الاغتيال بشهر واحد، دليل ساطع على انفلات السادات ووصول محنة النظام إلى هاوية يستحيل الخروج منها. لا مجال للشك في ضرورة إدانة أشكال العنف والإرهاب كافة، ومن هنا لا تقدم الرواية المصرية من يسعدون بالنهاية المأسوية، لكن الأمر لا يخلو من شماتة تختلط بالخوف على مستقبل الوطن دون الرئيس.

تاسعا: تتسع الرواية المصرية لاستعراض تاريخ السادات السابق لثورة يوليو ١٩٥٢، حيث العمل السرى والانخراط في تنظيمات ذات منحى إرهابي، وتتسع أيضا لإشارات دالة عن الوجود الهامشى الهش للسادات خلال سنوات حكم عبدالناصر، أما عن السمات الشخصية فتحظى باهتمام لافت لا ينفصل عن الرؤى الموضوعية.

من استعراض الرؤى الروائية المقدمة عن شخصية السادات في فصول الدراسة، لا يصعب إدراك التركيز على بعض الملامح الذاتية التي يتسم بها الرئيس، وتتجلى بأشكال مختلفة في المعالجة. لا تنفصل ملامحه الشخصية هذه عن توجهه الموضوعي بطبيعة الحال، والأبرز منها يتمثل في:

أولا: الإسراف في النرجسية والشعور المتضخم بالذات، ومثل هذه السمة تترك بالضرورة آثارها السلبية على السياسات والقرارات المصيرية التي تصدر عادة بشكل فردي غير مدروس، وتنم عن الثقة المفرطة بامتلاك رؤى استراتيجية خارقة، لا يُتاح لغير السادات إدراكها واستيعابها.

ثانيا: ولع السادات بحياة الترف والبذخ والأناقة، منفصلا بهذا النمط من الحياة المرفهة عن الإحساس بمعاناة الأغلبية الساحقة من الفقراء. لا يرى السادات من معطيات الواقع إلا ما يريد أن يراه، ويحلق بأوهامه وأحلام يقظته بعيدا عن الهموم الحقيقية التي يكتوى المصريون بنيرانها الحارقة. إذا كان عبدالناصر يجتهد في زراعة الأحلام الوردية، التي يفضى أغلبها إلى نتائج كابوسية، فإن السادات بدوره يسرف في بعثرة الأوهام والأكاذيب، وصولا إلى محطات كابوسية، ومن هنا تستمد الدراسة عنوانها: «السادات في الرواية المصرية.. الوهم والكابوس».

ثالثا: ملمح ذاتى آخر يتجسد في النزعة الاستعراضية للسادات، وانشغاله المتطرف بالإعلام وأضوائه. ليس أدل على ذلك من خطبه وتصريحاته التي لا تتوقف، والإصرار المرضى المزمن على اتباع سياسة الصدمات التي لا تتكئ على دراسة متأنية بقدر ما أنها تعبر عن رغبة في المباغتة وإثارة الضجيج.

لا أحد يتعاطف مع السادات في الإبداع الروائي المصري، ولا يمكن القول بوجود تيار «ساداتي» يتشبث بأفكار الرئيس بعد اغتياله، كما هو الحال مع عبدالناصر الذي يعتنق الكثيرون رؤاه ويتمسكون بتوجهاته ويشكلون تيارا ناصريا متعدد الاجتهادات. الإجماع كامل، تقريبا، على إدانة السادات وحقبته الحافلة بالتحولات والازمات، والاختلاف في أساليب الهجوم والتنديد. من مجمل الشهادات المقدمة، تتبلور صورة متعددة الملامح، قوامها الأساس قراءة نقدية سلبية، تتنوع فيها مرتكزات الرفض والاستياء.

كفة العداء راجحة، ورافضو السادات في الواقع المعيش والنص الروائي هم الأغلبية الساحقة. لكن اللافت للنظر أن الكثير مما يؤخذ عليه في حياته، يتحول بعد موته إلى مسلمات مستقرة مألوفة لا تستدعى الاحتجاج والغضب، والعديد من الانتقادات الساخنة، وليدة الإسراف الانفعالي، تحتاج إلى منهج جديد للتواصل والتقييم في ظل المتغيرات الدولية والاقليمية، ومثل هذا المنهج الذي لم يتبلور بعد، يقود بالضرورة إلى تخفيف الحدة والقسوة.

هل كان السادات صاحب رؤية استراتيجية عميقة، يعز إدراكها عن معارضيه الذين يتشبثون بمفاهيم وأفكار تقليدية لا تناسب إيقاع العصر؟. هل كان بعيد النظر وقارئا جيدا للمستقبل ومتغيراته الحتمية، في الوقت الذي ينغمس فيه خصومه السياسيون، من منطلقات أيدلوجية جامدة، في قراءة الحاضر والمستقبل بمنظور الماضى؟!.

الأقرب إلى الاعتدال، نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس، لا يصل إنصافهم إلى درجة الحب، ولا يقودهم الحرص على الإنصاف إلى ما يتجاوز الحياد وتجنب الهجائيات المقذعة. في المقابل، لا يجد الكارهون المتشددون لعهده ونرجسيته ما يستحق الإشادة أو يعفى من الهجوم والإدانة.

سياسة السادات الداخلية تزلزل المجتمع المصرى وقيمه الموروثة، وسياسته الخارجية تطيح بالمفاهيم الراسخة والقواعد المستقرة، والمحصلة النهائية هي غلبة الأحكام العنيفة التي تتفاعل مع جملة المعطيات في واقع يمر بمرحلة التغيير العاصفة.

لا يجد الباحث حرجا في الاعتراف بأنه لم يكن يوما من المتعاطفين مع السادات، لكنه في تحليله للموقع الذي يحتله في الرواية المصرية، من خلال النماذج التي تتوقف عندها فصول الدراسة، يتسلح بأكبر قدر ممكن من الموضوعية والحياد، ولا يفرض رؤاه وأفكاره على قراءة النصوص. السادات جزء من التاريخ المصري، ولا متسع هنا للحب والكراهية، ذلك أن الوعي الصحيح بالتاريخ، والتفاعل الجاد مع الواقع، والتطلع المحسوب إلى المستقبل، يتطلب الإحاطة والدراسة البعيدة عن التشنج وإصدار الأحكام العاطفية الانفعالية.

يهدف البحث إلى التعرف على صورة السادات كما تتجسد في مجموعة من النصوص الروائية لعدد من المبدعين المتميزين، الذين يقدمون شهادات فنية وفكرية جديرة بالتأمل والاهتمام، دون نظر إلى الاتفاق أو الاختلاف معها. إنها تعكس رؤى تحفل بالصدق النسبي والإخلاص والجدية، وإن لم تخل بطبيعة الحال مما يستدعى المناقشة والتحفظ.

الإشارة ضرورية إلى ملاحظتين مهمتين، تفيدان في التواصل مع الدراسة والتعرف على منهجها:

أولا: الروائيون موضوع البحث ليسوا «كل» من يتعرضون للسادات، ذلك أن الإحاطة الشاملة تفوق طاقة الباحث الفرد.

ثانيا: الفصول التي تتناول نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس وفتحى غانم وبهاء طاهر وصنع الله إبراهيم وعلاء الديب، تتوقف أمام جل أعمالهم الروائية، والفصل الخاص بجميل عطية إبراهيم يقتصر على ثلاثيته ورواية «أوراق سكندرية»، أما الفصول الأخرى فترصد وتحلل موقع السادات من خلال رواية واحدة.

غاية المأمول أن تقدم الصفحات التالية إضافة مفيدة عن السادات ودوره في الحياة المصرية، وليس مثل الرواية في القدرة على النبش المؤنسن في أعماق لا يُتاح الوصول إليها عبر الدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتخصصة.

مصطفى بيومي

القاهرة :

١٢-٤-٢٠١٨

الفصل الأول
نجيب محفوظ

في عالم نجيب محفوظ، لا يختلف الوجود الروائي لشخصية الرئيس أنور السادات عن تلك التي يحتلها سلفه جمال عبدالناصر. كلاهما لا يظهر بوضوح ينبع من حرية التناول والمعالجة، إلا بعد رحيله وزوال حكمه، وكلاهما أيضا تنقسم حوله الآراء تبعا لطبيعة الشخصية الروائية التي تتعرض للتقييم واتخاذ الموقف المؤيد أو المعارض، وكلاهما يصعب تحديد رؤية حاسمة تعبر عن موقف نجيب محفوظ نفسه!

في «أمام العرش»، حوارية محفوظ التي تتخذ شكل المحاكمة مع زعماء مصر عبر مختلف العصور، يقدم السادات تعريفا موجزا بمسيرة حياته من الميلاد إلى الموت: «ولدت في قرية ميت أبوالكوم، ونشأت في اسرة فقيرة، ووجدت عناء لا يُستهان به كي أستمر في الدراسة، وقد تشبعت بروح الوطنية منذ صغرى، وشاركت في المظاهرات الوفدية، ثم أمكننى الالتحاق بالكلية الحربية التي فتحت أبوابها لأمثالي من أبناء الشعب بعد معاهدة ١٩٣٦، ومنذ تخرجي هالني وضع الجيش تحت سلطة البعثة العسكرية الإنجليزية، وخامرتني أفكار الدعوة لثورة مسلحة ضد الإنجليز، فأنشأت أول تنظيم سرى في الجيش عام ١٩٣٩، وقد اتصلت بالإخوان المسلمين وأعجبت بنشاطهم، كما حاولت أثناء الحرب الاتصال بالألمان، وعقدت العزم على اغتيال المتعاونين مع الإنجليز من المصريين، وقد قُبض عليَّ نتيجة ذلك، وحوكمت، ولكننى نلت البراءة، بل ورجعت إلى خدمة الجيش، وفي ذلك الوقت اتصل بي جمال عبدالناصر وضمنى إلى تنظيمه، وقامت الثورة في يوليو ١٩٥٢، وتتابعت الأحداث حتى وافى الأجل جمال عبدالناصر فخلفته في منصبه في ظرف بالغ الدقة، وكنت على علم بالسلبيات التي نخرت في نظام عهد عبدالناصر فتوثبت لإحداث ثورة جديدة تنقذ البلاد من الموت الذي تتردى فيه، قضيت على مراكز القوى، واتجهت على مهل نحو الأمان وسيادة القانون والديمقراطية، وفي ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فاجأت العدو المحتل، بل فاجأت العالم بهجوم

لم يتوقعه أحد، وحققت انتصارا أنقذ الروح العربية من القنوط كما انتشل الشرق من الهوان، ثم تسنمت بمغامرة أخرى باقتحامى بلد الأعداء داعيا إلى تصفية الموقف بالكلمة لا بالسلاح، وانتهى سعيى الطويل إلى معاهدة كامب ديفيد، وناديت بالانفتاح لإنقاذ الاقتصاد الوطني، وتقدمت في الديمقراطية خطوات جديدة، ولكن اعترضتني عقبات غيرت من حساباتي، فقد انحرفت المعارضة، وهب التيار الديني يهدد البلاد بالعنف، فوقفت من الجميع موقفا حازما لا مفر منه، ولكن الأمور انتهت باغتيالي في ذكرى اليوم الذي حققت فيه لوطني عزة النصر».

السيرة الذاتية مقدمة من منظور السادات، وفيها ما يكشف عن النشأة الفقيرة التي لا يمكن إنكارها، وفيها أيضا إلحاح على الوطنية المبكرة والريادة في تشكيل التنظيمات السرية داخل الجيش، أما الإرهاب والتعاون مع النازية الألمانية فيُشار إليهما في سياق إيجابي، كأنه يتحدث عن مآثر مجيدة جديرة بالإعجاب والتقدير. يدافع السادات عن محطات حياته المختلفة، قبل وبعد ثورة يوليو، ويرصد عيوب وسلبيات النظام الناصري كما يراها، ومن هنا فخره بالقضاء على ما يسميه مراكز القوى وسعيه إلى تأسيس دولة سيادة القانون والديمقراطية، أما ذروة المباهاة فتتجسد عند حديثه عن حرب أكتوبر ودلالتها. يتطرق إلى مبادرة السلام والمعاهدة مع إسرائيل واتباع سياسة الانفتاح من منظور تبريري لا ينشغل بالتوقف أمام طوفان المآخذ، وفي السياق نفسه يبرر حملات الاعتقال في سبتمبر ١٩٨١ مؤكدا أنها «موقف حازم» تمليه الضرورة!.

لا يتدخل نجيب محفوظ بطبيعة الحال، ذلك أن السادات يدلى بشهادته التي تسبق التعقيب والرد والمناقشة، أما عن المعالجة الفنية في عالم نجيب محفوظ، بعيدا عن المحاكمة ذات الطبيعة الحوارية المباشرة الاستثنائية، فإن السادات لا مكان له في روايات محفوظ حتى وفاة الرئيس عبدالناصر، والظهور الأقدم تاريخيا تقدمه رواية «الباقي من الزمن ساعة»، فهو من يعلن كنائب لرئيس الجمهورية خبر رحيل جمال عبدالناصر: «وإذا بأنور السادات ينعى إلى الأمة العربية أعظم الرجال جمال عبدالناصر. قذف نائب الرئيس المستحيل في وجوه الناس باعتباره ممكنا».

عبدالناصر زعيم ذو مكانة أسطورية خارقة، ويحظى بشعبية طاغية تمثل تحديا قاسيا لمن يخلفه. موته أقرب إلى الفعل المستحيل الذي يصعب استيعابه،

ومن هنا يبدأ الرئيس الجديد حكمه في ظروف عصيبة تحيطها التحديات والعقبات.
في مطلع خلافته لعبدالناصر، يتراوح استقبال الشعب للسادات بين الترحيب والاستهانة.
التاجر صادق صفوان، في «قشتمر»، لا يخفى فرحته لموت عبدالناصر، الرئيس الذي يهدد مصالحه الاقتصادية ومكانته الاجتماعية، ويقول لأصدقائه: «أنا متفائل بالرئيس الجديد».
الموقف التفاؤلي نفسه تتخذه سنيه المهدى، في «الباقي من الزمن ساعة». على الرغم من حبها لعبدالناصر وبكائها الحار الصادق بعد موته، تقول لابنتها: «سيجئ الفرج على يد الرئيس الجديد».
في الرواية نفسها، تتجلى الاستهانة في رؤية الماركسى الشاب عزيز صفوت، الذي يؤكد بثقة لا يخالطها الشك: «عهد السادات قصير أما المستقبل فلرجالنا»!.
العاديون من الناس باختلاف مواقعهم الطبقية، صادق صفوان وسنية المهدى، لا يملكون إلا التفاؤل وانتظار الفرج، أما اليسار الممثل في عزيز صفوت، فيبدو مستهترا مستهينا، لا يرى للرئيس الجديد مستقبلا يوحى بالاستمرار والاستقرار.
الصراع على السلطة في مايو ١٩٧١، وهو ما يسميه السادات بالثورة على مراكز القوى، يحظى بتعليق يسعى نجيب من خلاله إلى الموضوعية في التقييم والتشبث بالحياد، لكن نبرة التعاطف لا تغيب: «وتتأزم الأمور وتتعقد ولكنها تنتهي بنهاية غير متوقعة فينتصر الرئيس الجديد على أعدائه انتصارا مبينا. وبالانتصار تلوح بشائر زعامة جديدة، ومولد شعبية جديدة متعطشة للانتصار ومتطلعة للأمان. وتبدأ دورة جديدة للبحث عن مخرج من الأزمات المتراكمة».
باستقرار الأمور لصالح السادات وانفراده بالسلطة، ينقسم شخوص نجيب محفوظ إلى مؤيدين ومعارضين. سنية المهدى وحدها، في «الباقي من الزمن ساعة»، كبيرة القلب كأنها مصر، هي التي تحب الزعيمين، السلف والخلف، وتقول: «لكل منهما مزاياه وأياديه، أما الأخطاء فسبحان من له الكمال وحده».
باستثناء سنية، فإن تأييد السادات يعنى ضمنا معاداة عبدالناصر وعصره، والعكس صحيح، بل إن الروائي الكبير يضع على لسان عبدالناصر، في محاكمات

«أمام العرش»، عبارة توحى بأن السادات هو المسئول عن الحملة الموجهة ضده. يسأله:

«- كيف هان عليك أن تقف من ذكراى ذلك الموقف الغادر؟

- اتخذت ذلك الموقف مضطرا إذ قامت سياستى في جوهرها على تصحيح الأخطاء التي ورثتها عن عهدك.

- ولكنى عهدتك راضيا ومشجعا وصديقا؟

- من الظلم أن يُحاسب إنسان على موقف اتخذه في زمن رعب أسود خاف فيه الأب ابنه والأخ أخاه!».

السادات لا ينفى التهمة بقدر ما يبررها ويقدم لها الحيثيات والدوافع، وفي رده على الاتهام بالصمت في مواجهة المثالب والسلبيات إبان الحكم الناصري، ما يكشف عن اعترافه الضمنى بالوقوف وراء حملة الهجوم على عبدالناصر وعهده، الذي يتناقض مع رؤية السادات وطموحه إلى تصحيح الأخطاء الموروثة من «زمن الرعب الأسود»!.

طاهر عبيد، الشاعر الصحفى المولع بعبدالناصر وعصره وإنجازاته وأحلامه في «قشتمر»، يتخذ موقفا سلبيا عدائيا لا مهادنة فيه تجاه السادات، فهو يجد نفسه تحت حكم الزعيم الثاني: «في عالم غريب كريه لا يُحتمل، وأساء به الظن منذ أول ساعة وعده عميلا لجميع القوى الرجعية في الداخل والخارج. وما لبث أن عُزل من رئاسة تحرير «الفكر» دون أن يُفصل من المجلة، وامتنع عن الكتابة فلم يهتم به أحد، ولم يظهر له أي أثر في أي جهاز من أجهزة الإعلام، ولما حدث النصر العظيم تلقاه بفتور غريب، وراح يرجع جذوره إلى البطل الراحل».

يصطدم الشاعر الناصري بالتحولات الجذرية التي يقودها السادات في شراسة لا تعرف الرحمة، ولأن النظام الجديد أقوى من الأفراد محدودي الحيلة بطبيعة الحال، فلن يضيره امتناع طاهر وأمثاله عن الكتابة والتأييد، وليس أيسر من إقصاء غير المتوافقين ممن يدينون بالولاء للعهد السابق.

من فرط كراهية طاهر للسادات، فإنه عندما يسأل الأصدقاء من أفراد شلته مرة: «-ما أعذب أمل في حياتي؟

يجيب حمادة الحلواني ساخرا:

-أن يموت الزعم أو يُقتل!»

سؤال طاهر «شخصى» وليس «سياسيا»، لكن وعي الأصدقاء المقربين بطبيعة شخصيته، يدفع أحدهم إلى التطوع بالإجابة السريعة الساخرة الدالة.

وإذا كان عزيز صفوت، في «الباقي من الزمن ساعة»، يستهين بالسادات في بداية حكمه، ويتنبأ بسقوطه السريع، فإنه يقول بعد استقرار النظام وتنامى قوته: «إنه مقلب لم يجر لنا في خاطر، وهو دائب على مغازلة الرجعية العربية والغربية!».

المشترك بين طاهر الناصري وعزيز الماركسى، يتمثل في اتهام السادات المبكر بالعمالة للرجعية الإقليمية والدولية والتحالف معها، والمقياس هنا هو المقارنة بين توجهاته والسائد في سنوات حكم عبدالناصر. يأبى طاهر إلا أن ينسب انتصار أكتوبر ١٩٧٣ إلى الزعيم الراحل، أما قدرى عامر في «حديث الصباح والمساء»، وهو من المحسوبين على اليسار أيضا، فإنه يستقبل نصر أكتوبر بسخط لا يخفيه: «وبذل أقصى ما عنده من منطق ومعلومات ليفرغه من مضمونه أو في تصويره في صورة التمثيلية المفتعلة، وقال لنفسه: انتصار البورجوازية يعنى انتصار الرجعية!. ومن أجل ذلك ناصب السادات العداء منذ تجلى للعين خطه السياسي وأضمر له الكره حيا وقتيلا، رغم إقبال الثراء عليه بغير حساب في عصر انفتاحه».

الأمر ليس شخصيا، والإفادة المادية من مرحلة السادات لا تعنى تأييده والدفاع عن سياسته التي يراها اليساريون بمختلف أطيافهم معادية للفقراء وصانعة لمزيد من المعاناة، فضلا عن رفضهم الأصيل للتقارب مع الولايات المتحدة والأنظمة العربية المحافظة.

الانتماء إلى اليسار، فكريا أو تنظيميا، يجمع بين طاهر عبيد وعزيز صفوت وقدرى عامر، ويبرر عداءهم للسادات، لكن بعض العاديين من الناس يتخذون موقفا سلبيا لا يقل قسوة.

في «الباقي من الزمن ساعة»، تنتبه منيرة حامد برهان، وهي في سبات الحداد على رحيل عبدالناصر، على همسات تتردد أحيانا بالنقد لعصر الزعيم الراحل، وعندما تقول لابنها أمين:

«- يا لها من وقاحة!

يرد الابن بامتعاض:

-لا عجب فنحن نسير في طريق جديد!».

مع ازدياد المعاناة واشتعال المظاهرات الاحتجاجية، التي يُقتل في إحداها الماركسى عزيز صفوت، تشتد منيرة في المعارضة، وتؤكد أن السادات لن يقنع بتصفية السلبيات الماضية: «ولكنه سيلحق بها الإيجابيات أيضا».

تمثل سياسة الانفتاح الاقتصادى، بتأثيرها السلبى المباشر على حيوات الغالبية العظمى من المصريين، الفقراء ومتوسطى الحال، نقطة ضعف خطيرة في فترة حكم السادات. في حوار منيرة، ذات الهوى الناصري، مع شقيقها محمد، الإخواني الذي يدافع عن الرئيس بحماس، تقول:

«- اعرفوا أيضا الانفتاح..

فتتساءل الأم:

-ماله الانفتاح؟.. حتى روسيا أخذت به..

-ولكنه سيعنى عندنا الغلاء والخراب..

وعند تلك النقطة غير محمد شراعه قائلا:

-نحن نوافق عليه ضمن خطة الإنتاج.

فتساءلت منيرة:

-هل توافق على ذلك الصقور المتحفزة؟!».

في سرده، لا يستطيع نجيب محفوظ أن يتجاهل خطورة الانفتاح وما يترتب عليه من نتائج وتداعيات: «ورسخ الغلاء منذرا بالقلق، وانتشر العرب في الأحياء كالماء والهواء، وجاء الغلاء بالوحشية، أما العرب فجاءوا بالكرم تياهين بموقفهم القومى في البترول ولكنهم نفخوا في الغلاء من حيث لا يقصدون».

السادات نفسه، في محاكمته «أمام العرش»، لا يقدم منطقا متماسكا وجيها للدفاع عن سياسة الأنفتاح وما يترتب عليها من تداعيات كارثية، فإذ يقول له عبدالناصر:

- واندلقت في الانفتاح حتى أغرقت البلاد في موجة غلاء وفساد، وبقدر ما كان عهدى أمانا للفقراء كان عهدك أمانا للأغنياء واللصوص.

يأتي الرد هزيلا:

-لقد عملت لخير مصر فوثب الانتهازيون من وراء ظهرى!.

ما يقوله السادات اعتراف وليس دفاعا، والنظام الذي يسمح للانتهازيين بمثل هذا الصعود المدمر لا يمكن أن يكون قويا رشيدا واعيا بما يعتمل في الواقع

من أزمات طاحنة. الفساد حقيقة لا يتطرق إليها الشك، والغلاء غير المسبوق يزلزل حيوات الفقراء فيزدادون فقرا، ويقسو على المستورين من أبناء الطبقة الوسطى، حافظة التوازن الاجتماعي ومشكِّله القيم، فيقفون على حافة الفقر.

إذا كانت بعض قصص نجيب محفوظ القصيرة تعبر بدقة وعمق عن تأثير سياسة الانفتاح الاقتصادى على الواقع المصري، ومن ذلك ما نجده في قصتى «أهل القمة» و«الحب فوق هضبة الهرم»، مجموعة «الحب فوق هضبة الهرم»، فإن رواية «يوم قتل الزعيم»، تجسد مأساة الانفتاح الساداتي من خلال شخصية علوان فواز محتشمى، الشاب العاشق المفلس العاجز عن الزواج من حبيبته، بعد سنوات طوال من الارتباط، لأسباب اقتصادية.

علوان، المعبر عن الشريحة الأعظم من الجيل الناصري المأزوم جراء هزيمة يونيه ١٩٦٧ وانهيار الأحلام الوردية، لا يطيق السادات وعهده، ويبدو دائم الحنين لعبدالناصر ومرحلته المندثرة: «فقدنا زعيمنا الأول ومطربنا الأول. ويخرجنا من الهزيمة زعيم مضاد فيفسد علينا لذة النصر».

وفي لقاء يجمعه مع الحبيبة والخطيبة رندة في استراحة الهرم، يبدو كأنهما يتنافسان في التعبير عن الكراهية المتطرفة للسادات!، فإذ يقول علوان:

«- فلنتسل بحصر أعدائنا.

تدخل رندة اللعبة قائلة:

-غول الانفتاح واللصوص الأماثل..

-هل ينفعنا قتل مليون؟

فقالت ضاحكة:

-قد ينفعنا قتل واحد فقط!».

تنهال شتائم علوان وأبناء جيله على السادات وسياسته: «مقهى ريش منقذ من ضجر الوحدة. أجلس وأطلب القهوة وأرهف السمع. هنا معبد تُقدم به القرابين إلى البطل الراحل الذي أصبح رمزا للآمال الضائعة. آمال الفقراء والمعزولين. هنا أيضا تنقض شلالات السخط على بطل النصر والسلام. النصر ينكشف عن لعبة والسلام عن تسليم».

الهجوم العنيف الحاد لا ينبع من فراغ، ذلك أن علوان يتطرق إلى طبيعة الفساد المنتشر في قوله: «الرشوة عيني عينك وبأعلى صوت. الاستيلاء على

الأراضى. شيخ العصابة له أوراد. والفتنة الطائفية من يوقظها؟. مجلس الشعب كان مكانا للرقص فأصبح مكانا للغناء. الاستيراد بدون تحويل عملة. أنواع الجبن. البنوك الجديدة. بكم البيضة اليوم؟. ما هو إلا ممثل فاشل.. وضرب المفاعل العراقي؟ صديقي بيجين.. صديقي كيسنجر.. الزي زي هتلر والفعل شارلى شابلن».

لا يحقق انتصار أكتوبر المأمول من استقرار وازدهار، وتوجه السلام الذي ينتهجه السادات تسليم لا يروق لمعاصري المرحلة الناصرية المتشبعين بشعاراتها. المعارضة ليست سياسية خالصة، لكنها اجتماعية طبقية في المقام الأول، ويرصد المعارضون الغاضبون غطرسة السادات وسلوكه الغرائبي في تهكم ساخر يصل إلى الذروة في ثنائية هتلر وشابلن!.

لا مفردة واحدة في لوحة العصر الساداتي تدعو إلى الإعجاب والتفاؤل، والمشهد في جملته كابوسى يمهد لكارثة الاغتيال في حادث المنصة.

الإخوان المسلمون وأثرياء سياسة الانفتاح الاقتصادي، هم مؤيدو السادات والمدافعون عن توجهاته، لأسباب سياسية واقتصادية وثيقة الصلة بالمصلحة المباشرة التي لا شأن لها باقتناع حقيقي يطول مجمل الرؤى خارج النطاق الذاتي المغلق.

المحامي محمد حامد برهان، في «الباقي من الزمن ساعة»، هو المعبر بدقة عن موقف جماعة الإخوان المسلمين من السادات. بعد صعوده إلى الرئاسة مباشرة، تتعدد اللقاءات بين محمد وأصدقائه القدامى من أعضاء الجماعة، ويقول له أحدهم مرة في مكتبه:

«- الرئيس الجديد صديق.

فقال محمد بحذر:

- ليكن اعتمادنا على أنفسنا.

- العدالة تزحف حتى شملت الإقطاعيين أنفسهم».

«العدالة» مفهوم نسبى لا يمكن الاتفاق على معناه، والأمر يقترن بالمصالح المتغيرة بطبيعة الحال. في هذا الإطار، يندفع المحامي الإخواني للتعاطف مع السادات وتأييده غير المحدود، ولا يتورع عن تبرير قمع المظاهرات الطلابية الاحتجاجية، مبررا ذلك بأنها: «حال استثنائية، والموقف يتطلب الحزم»!.

ويجد محمد في حرب أكتوبر مبررا جديدا للتأييد والإعلان عن الإعجاب، مغدقا الثناء والتقريظ: «انتشل الرجل مصر من الفناء، وانتشل العرب».

يكشف الإخواني العتيد عن الأسباب الحقيقية لتأييد السادات في قوله الكاشف المضئ: «إنى راضٍ عن الرئيس الحالي باعتباره التمهيد لدولة الإسلام».

السادات ليس إلا جسرا للوصول إلى الدولة الدينية، والتأييد مشروط لا يعنى الاندماج الكامل، ولذلك يتغير الموقف بعد مبادرة السلام التي تصطدم مع الأفكار الإخوانية حول الصراع العربي الإسرائيلي، ويتراجع محمد عن التأييد قائلا: «هذه هي الثغرة التي لا انسداد لها!».

الموقف نفسه يتخذه الإخواني سليم حسين قابيل، في «حديث الصباح والمساء»، فهو يؤيد السادات في مطلع عهده ويجد في حكمه «مودة ورحمة»، ثم ينقلب عليه: «سرعان ما دهمه ما دهم زمرته من غضب لمغامرة السادات الكبرى في سبيل السلام. وارتد مرة أخرى إلى عنفوان السخط والتمرد، حتى صدرت قرارات سبتمبر ١٩٨١. ورُمى به في السجن من جديد. ولما وقع حادث المنصة قال:

– عقاب إلهى لحكم كافر».

العداء العنيف المتبادل بين الإخوان المسلمين وعبدالناصر، في حياته وبعد موته، يدفع الجماعة إلى تأييد السادات ودعمه والإشادة بالكثير من مفردات سياسته المغايرة لسلفه، لكن موقفهم هذا لا يعنى المساندة المطلقة لكل توجهاته، ذلك أنهم تيار سياسي ديني مستقل، يراود أهدافا مختلفة قوامها تأسيس الدولة الإسلامية. الصفقة مع السادات تمهيد للهدف الأسمى الذي يسعون إليه، ومع المبادرة والمعاهدة يبدأ الصدام، وتأتي قرارات سبتمبر لتطيح ببقايا التحالف والتعاون، وتنتقل العلاقة من التأييد والتبرير والتعاطف إلى الاتهام الصريح المباشر بالكفر!.

القوة الأخرى التى تؤيد السادات بلا تحفظ، تتمثل في الطبقة الجديدة التي تفيد من سياسة الانفتاح الاقتصادي، واللافت للنظر أن عالم نجيب محفوظ يقدم السادات في صورة المنقذ والمخلص للمضارين من السياسة الاقتصادية التي تتبعها الثورة في عهد الرئيس عبدالناصر.

محمد البنان، في قصة «صباح الورد»، تتعرض أسرته الثرية لعديد من الضربات الاقتصادية الموجعة في العهد الناصري: «واسترد نشاطه في عهد السادات، وعاونه الانفتاح فعوض خسائره وضاعف ثروته بل وتردد اسمه في صحف المعارضة باعتباره من وحوش الانفتاح».

وفي القصة نفسها، يتغير حال حسين الجمحي في سنوات حكم السادات، ويزدهر متألقا بفضل سياسة الانفتاح التي تصعد به إلى القمة: «فاستقال من وظيفته واشتغل بالاستيراد وغيره وأثرى ثراء فاحشا، وشيد لأسرته قصرا في مصر الجديدة وعاش عيشة الملوك».

وتزدحم رواية «حديث الصباح والمساء» بنماذج شتى من الذين يستردون ما سُلب منهم في العهد الناصري، وأكثر، في مرحلة السادات، والفضل مردود أيضا إلى قوانين الانفتاح الاقتصادي وما تتيحه من فرص للصعود، المشروع منه وغير المشروع.

يبلغ حازم سرور ذروة الثراء في عهد السادات، ويفتح مكتبا هندسيا يُعد بعده من أصحاب الملايين، أما زوجه سميحة، التي تزغرد تعبيرا عن الشماتة والفرحة بعد وفاة عبدالناصر، فتقول عن السادات معبرة عن تأييده بطريقتها المتوافقة مع الخلل النفسي الذي تعانيه: «حقيقة إن وجهه أسود ولكن قلبه أبيض!».

ويجد حسن المراكيبي في السادات وسياسة الانفتاح بغيته وعزاءه عن هزائم الماضى القريب جميعا: «فشمر للعمل والثراء الخيالي».

أما عدنان المراكيبي، فواحد من الذين يعتبرون الانفتاح بابا من أبواب الجنة. يعمل في تربية العجول والدجاج والبيض: «وربح أرباحا خيالية، ولم يكتف بذلك فانضم إلى الحزب الوطني وأُنتخب عضوا في مجلس الشعب».

وعقل حمادة التنادي، لا يعاوده تنفسه الطبيعي إلا في عهد السادات: «ووجد في الانفتاح فرصة لأعمال كبيرة تنسيه الوساوس والهواجس، واختار الشقق ميدانا لتجارته مستفيدا من مدخراته وبيع نصيبه من ميراث أبيه».

من حق وواجب هؤلاء أن يدافعوا باستماتة عن السادات، لكنه دفاع عن المصلحة الشخصية دون التزام بمجمل التوجه السياسي، ومثلما يتخلى الإخوان المسلمون عن السادات بعد الاختلاف معه، فإن أثرياء الانفتاح لا يعبأون إلا بالحفاظ على مصالحهم وتنميتها.

يتسع عالم نجيب محفوظ لعدد غير قليل من الناصريين الذين يتشبثون برؤى عبدالناصر بعد موته، ولا وجود للساداتيين المدافعين عن سياسة السادات بعد اغتياله. غاية المتاح هو وجود بعض الموضوعيين الساعين إلى الإنصاف والتقييم المعتدل والمزج بين الحسنات والسيئات. يحاول نجيب نفسه أن يكون واحدا من هؤلاء، فهو يقدم صورة «متوازنة» في «قشتمر»، لا إسراف فيها: «وعصر الزعيم الثاني عامر أيضا بالمفاجآت، فهو عصر المنابر والنصر والسلام والانفتاح، وعصر أكبر درجات سجلها الفساد في تماديه واستفحاله».

أما العجوز الحكيم محتشمى زايد، في «يوم قتل الزعيم»، فيطرح تصورا متماسكا لتبرير شيوع كراهية السادات، فهو يرى المصريين قوما يرتاحون للهزيمة أكثر من النصر: «فمن طول الهزائم وكثرتها ترسبت نغمة الأسى في أعماقنا، فأحببنا الغناء الشجي والمسرحية المفجعة والبطل الشهيد. جميع زعمائنا شهداء: مصطفى كامل شهيد الجهاد والمرض، محمد فريد شهيد المنفى، سعد زغلول شهيد النفى أيضا، مصطفى النحاس شهيد الاضطهاد، جمال شهيد ٥ يونيو، أما هذا المنتصر المعجباني فقد شذ عن القاعدة، تحدانا بنصره، ألقى في قلوبنا أحاسيس وعواطف جديدة لم نتهيأ لها، وطالبنا بتغيير النغمة التي ألفناها جيلا بعد جيل، فاستحق منا اللعنة والحقد، ثم غالى بالنصر لنفسه تاركا لنا بانفتاحه الفقر والفساد. هذه هي العقدة».

قد يكون محتشمى مسرفا في التركيز على العامل النفسى على اعتبار أنه الأساس في تراجع شعبية السادات، لكن الصحيح في تحليله هو التأكيد على أنه رئيس من نسيج مختلف، وسلوك صادم غير معهود، ويقترن بمتغيرات يستعصى استيعابها والتوافق معها دون صدام وتوتر.

من ناحية أخرى، فإن حرص محتشمى على القراءة الموضوعية البعيدة عن التحامل لا تحول دون معاناته الشخصية التي يعترف بها متذمرا، من الآثار السلبية للانفتاح الذي يكتوى بنيران تداعياته: «يجمعنا في الصباح المدمس وحده أو الطعمية. هما معا أهم من قنال السويس. سقيا لعهد البيض والجبن والبسطرمة والمربى. ذلك عهد بائد. أوق. أ. أي قبل الانفتاح. الأسعار جنت. كل شيء قد جن».

الغلاء الفاحش لا يمكن غفرانه والتسامح معه، ولا يملك محتشمى كذلك إلا أن يدين قرارات سبتمبر ١٩٨١، بالغة القسوة والمناقضة لكل ما يردده السادات من شعارات: «ما هذا القرار أيها الرجل؟! تعلن ثورة في ١٥ مايو، ثم تضيعها في ٥ سبتمبر؟!. تزج في السجن بالمصريين جميعا من مسلمين وأقباط ورجال أحزاب ورجال فكر؟. لم يعد في ميدان الحرية إلا الانتهازيون فلكِ الرحمة يا مصر».

مصطلح «ثورة مايو» لا يبدو مقنعا منطقيا، لكن التحليل الذي يقدمه العجوز الحكيم عن حملة سبتمبر يكثف أجواء الأزمة، وكذلك الأمر عند فايد عامر عمرو، في «حديث الصباح والمساء»، فهو موضوعي آخر لا يعرف التحامل: «أيد السادات في حربه وفتحه صفحة الديمقراطية من جديد، وشك كثيرا في خطوة السلام، ثم لعنه بسبب الانفتاح والنكسة الديمقراطية، ومع أنه لم يوافق على الاغتيال إلا أنه لم يحزن عليه واعتقد أنه نال ما يستحقه تماما».

لا أحد في عالم نجيب محفوظ يؤيد حملة الاعتقالات ويبررها، ولا أحد يبرئ الانفتاح من آثامه وتداعياته السلبية.

تبقى مسألتان على قدر كبير من الأهمية في مسيرة حكم السادات وموقف نجيب محفوظ منه: المسألة الأولى تتعلق بالسلام، والثانية حول حادث الأغتيال الذي يضع نهاية مأساوية قاسية لحكم السادات.

لم تكن مبادرة السلام بعيدة عن الظروف الداخلية المعقدة العصيبة التي تمر بها مصر، وفي «الباقي من الزمن ساعة» يقدم نجيب محفوظ تمهيدا ينبئ عن أجواء المبادرة المغامرة: «وارتفعت الأصوات المعارضة ولكن الأسعار ارتفعت أكثر وامتلأت الأسواق بالسلع المستوردة، استهلاكية وكمالية، وتحدث المرهقون عن طبقة جديدة من أصحاب الملايين، كالوباء، يُعرف بآثاره وعواقبه ولا تُرى مكروباته بالعين المجردة. وإذا بالسماء تمطر دهشة أنست كل ذي هم همه. دهشة أسطورية لم يتصورها خيال من قبل، دهشة تتميز بخواص الخوارق وسجايا المعجزات ونشوة الأساطير، عندما عُرف وأُعلن أن أنور السادات سيهبط بشخصه في أرض إسرائيل!. وتجمع كثيرون من سكان الأرض أمام التليفزيون ليشاهدوا بأعينهم كيف تتحدى الإرادة البشرية مجرى التاريخ لتحوله عن مساره الحتمي عنوة وبلا سلاح. وتجلى اللقاء بين أعداء الأمس. تصافحت الأيدى، تبودلت الضحكات،

والخطب، والصلوات، وتدفق ماء عذب من شقوق صخر صلد لتصب في مجرى ملئ بالحصا».

الأزمة الاقتصادية الطاحنة توحى بأن المبادرة محاولة للإفلات من حصار الداخل والالتفاف حول المأزق، لكن لغة نجيب مليئة بمفردات الإعجاب والتأييد والتعاطف. إذا كانت الدهشة الصادمة تقود كثيرا من شخوصه السياسيين إلى المعارضة، فإنها تفضى بالروائى إلى تأمل إيجابي يرى الفعل الخارق وليس العمل الخائن. لا يهمل محفوظ معارضة القوى السياسية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، لكنه ينتبه أيضا إلى أن الأغلبية من البسطاء غير السياسيين أقرب إلى التأييد، أو كما تقول سنية المهدى: «رأيت استقبالهم للرئيس عند عودته فلم أدهش يا ابنى. كان الاستقبال مبايعة لشخصه من جديد ومباركة لخطوته، هم الذين يموتون عند الحرب ويجوعون عند اللاسلم واللاحرب، ورأيهم رأي الفطرة السليمة بعيدا عن شرك المذاهب».

في «أمام العرش»، يقدم إخناتون رؤية مماثلة، فهو يخاطب السادات قائلا: «أحييك كداعية من دعاة السلام ولا أدهش لاتهام خصومك لك بالخيانة، فقد تلقيت منهم نفس التهمة لذات السبب».

وعندما يهاجم عبدالناصر سلام السادات بقوله:

«- ثم نزلت عن كل شيء في سبيل سلام مهين فطعنت وحدة العرب طعنة قاتلة وقضيت على مصر بالانعزال والغربة.

يرد السادات:

-لقد ورثت عنك وطنا يترنح على هاوية الفناء، ولم يمد لى العرب يد عون صادقة، ووضح لي أنهم لا يرغبون في موتنا كما لا يرغبون في قوتنا كي نظل راكعين تحت رحمتهم، فلم أتردد في اتخاذ قراري».

ويبدو انحياز نجيب محفوظ للسلام ساطعا لا يحتمل التأويل في ختام المحاكمة، فهو ينتقى مجموعة من الزعماء الذين يُحاكمون، ويضع على لسان كل منهم عبارة تمثل خلاصة تجربته، ومن خلال السادات يؤكد على أهمية أن يكون الهدف: «الحضارة والسلام».

لا يخفى نجيب محفوظ إعجابه بمبدأ السلام مع إسرائيل، ويقدم مبررات دفاعية. لكنه لا ينشغل بالتفاصيل والنتائج المترتبة على سياسة السلام هذه، لكنه يقدم رؤية واضحة عن حادثة الاغتيال في المنصة.

يتكرر حلم موت السادات أو قتله قبل الحادث، وهو ما يعبر عن موقف لا مثيل له عند غيره من الرؤساء والزعماء في عالم نجيب محفوظ، ولا تنجو ديمقراطية السادات المشوهة الناقصة، وقراراته القمعية في سبتمبر ١٩٨١، من هجوم عنيف. يدفع السادات ثمنا باهظا للديمقراطية العرجاء المبتورة التي يريدها وفقا لمقاييس خاصة. في محاكمة «أمام العرش»، يجابهه الزعيم مصطفى النحاس قائلا:

«- حاولت اغتيالي وكدت تنجح لولا العناية الإلهية، ثم فقدت حياتك نتيجة للاغتيال».

ويشن النحاس، أحد أهم رموز الديمقراطية المصرية، هجوما عنيفا على ديمقراطية السادات:

«-إنك تريد حكما ديمقراطيا تمارس على رأسه سلطاتك الدكتاتورية!».

ثم يعيب عليه قرارات سبتمبر «الطائشة»، التي تترجم مفهوم الديمقراطية المشوهة التي يتبناها السادات:

«- ألقيت بالجميع في السجون فأغضبت المسلمين والمسيحيين والمتطرفين والمعتدلين، وانتهى الأمر بمأساة المنصة».

للسادات تاريخ قديم يقترن بالاغتيال السياسي، والنحاس واحد من ضحايا توجهه الذي لا يتوقف فيطوله بعد عقود بمعرفة جماعة إرهابية متطرفة، تمنح نفسها حق تكفير السادات وتنفيذ الحكم بإعدامه. ديمقراطية السادات ليست إلا ديكتاتورية ذات طلاء ديمقراطي هش غير أصيل، وما القرارات التي يصدرها في سبتمبر إلا التجسيد المنطقي للاختلاط الذي يفضى إلى مأساة المنصة.

يقدم محفوظ حادث المنصة، في «يوم قتل الزعيم»، من وجهتي نظر: الجد محتشمي زايد، والحفيد الساخط علوان فواز محتشمي. يعلق العجوز على الحادث بقوله: «اللهم حوالينا، لا علينا»، ما يعنى الإدانة والاستنكار، أما علوان فتنتابه أحاسيس أقرب إلى الفرحة والشماتة: «عدت إلى مجلسي تمزقني انفعالات متضاربة من الأسى والخوف والسرور. وأفعمني ترحيب غامض باحتمالات مجهولة

واعدة بتحطيم الجمود والروتين والانطلاق نحو آفاق غير محدودة. ليكن الغد ما يكون. حتى الفوضى خير من اليأس، ومقاتلة الأشباح خير من الخوف».

في اليوم نفسه: يندفع علوان إلى ارتكاب جريمة قتل موازية لحادث المنصة، ولم يكن القتل غير المتعمد لعدوه الشخصي «أنور» علام، في مقابل العدو الموضوعي «أنور» السادات، نهاية للشر والفساد، أو بداية للخير والاستقرار. بالمنطق نفسه، فإن اغتيال السادات لا يعنى نهاية الشر، بل لعل في الاغتيال ما يسبب، لما يترتب عليه من آثار، مزيدا من المعاناة. ويتجلى موقف نجيب في التعليق المشوب بالخوف، في «قشتمر»، وهو يعلن عن رؤيته: «ويوم قتل الزعيم فزعنا وتساءلنا عما يخبئه لنا الغد».

ما الذي يخبئه الغد بعد اغتيال السادات؟. المزيد من القلاقل والاضطرابات، وتصاعد الهموم والأزمات، ولا شك أن جانبا كبيرا منها ينبع من سياسة الرئيس الذي يمهد التربة لتثمر التوتر والقلق.

هل تصلح كلمة «إيزيس»، في نهاية محاكمة السادات «أمام العرش»، للتعبير عن موقف نجيب ورؤيته؟!. إنها تقول: «بفضل هذا الابن رُدت الروح إلى الوطن، واستردت مصر استقلالها الكامل كما كان قبل الغزو الفارسي. وقد أخطأ كما أخطأ سواه، وأصاب أفضل مما أصاب كثيرون».

ربما تصلح!.

الفصل الثانى
إحسان عبدالقدوس

يغيب اسم الرئيس السادات عن مؤلفات إحسان عبدالقدوس الروائية والقصصية، المنشورة منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى رحيل جمال عبدالناصر في سبتمبر ١٩٧٠، وهو اختفاء مبرر وثيق الصلة بطبيعة المرحلة السياسية التي لا يتسع فيها الواقع، ومن ثم أدب إحسان، إلا للرئيس عبدالناصر بحضوره الطاغي المتوهج.

مع صعود السادات إلى مقعد الرئاسة، يظهر اسمه في ستة أعمال روائية ومجموعات قصصية تُنشر في سنوات حكمه، وستة أعمال أخرى تُنشر بعد اغتياله في أكتوبر ١٩٨١. عبر هذه المؤلفات جميعا، يمكن التماس الموقع الذي يحتله السادات، في عالم إحسان، في ثلاثة محاور:

أولا: مكانة السادات ودوره الهامش المحدود خلال مرحلة زعامة الرئيس عبدالناصر.

ثانيا: المقارنة بين السادات وعبدالناصر.

ثالثا: تقييم حكم السادات والتفاعل مع الأحداث والمحطات المهمة في سنوات قيادته.

أي دور يلعبه أنور السادات خلال فترة حكم الرئيس جمال عبدالناصر وقيادته المنفردة حتى رحيله في سبتمبر ١٩٧٠؟. ثمة إشارات محدودة إلى هذا الدور، تتناثر في بعض مقدمات قصص إحسان عبدالقدوس.

في مقدمة مجموعة القصص السينمائية: «دمى ودموعي وابتسامتي»، يتحدث إحسان عن فيلمه «الله معنا»، الذي يتعرض – كما يقول – لدسائس ومؤامرات تعيق ظهوره، وتؤدي: «إلى أن يبقى الفيلم مختبئا داخل العلب الصفيح حوالى ثلاث سنوات.. ومما أدى إلى أن الرئيس أنور السادات تردد بنفسه عدة

مرات على استوديو مصر ليشاهد هذا الفيلم في عرض خاص، ساعيا إلى إطلاق حريته وعرضه على الجمهور».

يعود تاريخ عرض فيلم «الله معنا» إلى العام ١٩٥٥، ومع الإقرار بأهمية السينما والدور الكبير الذي تلعبه في الحياة المصرية، فإن كبار قادة النظام لا ينبغي أن يتسع وقتهم لمتابعة التفاصيل المتعلقة بتعثر عرض فيلم لأسباب رقابية أو تآمرية، لكن السادات يتردد على ستوديو مصر «عدة مرات» لمشاهدة الفيلم، ما يعني بالضرورة أنه لا يتولى مسئوليات مهمة في إدارة الدولة!.

على الرغم من النشاط اللافت الذي يقوم به السادات في المشاهدة، وحرصه على «السعي» لإجازة عرض الفيلم، فإن القرار الحاسم يتطلب تدخل عبدالناصر شخصيا: «الذي أمر بعرضه فعلا، وحضر بنفسه افتتاح عرض الفيلم في سينما ريفولي».

لا يملك السادات إلا أن يشاهد ويسعى دون قدرة على التأثير واتخاذ القرار، ذلك أن الحسم يتطلب تدخل الرئيس عبدالناصر. إذا كان السادات عاجزا عن التصرف في مسألة هامشية كهذه، فلا شك أنه بلا صلاحيات، ولا دور له في الأخطر والأهم من القضايا والقرارات المصيرية.

من مشكلة فيلم «الله معنا»، إلى أزمة قصة «علبة من الصفيح الصدئ». في مقدمة قصة «أين صديقتي اليهودية؟»، مجموعة «الهزيمة كان اسمها فاطمة»، يشير إحسان إلى قصته التي تُنشر مسلسلة في مجلة «المصور»، ثم تُنشر في كتاب: «ثم .. بعد خمس سنوات... في عام ١٩٦٩.. وفي لقاء مع الرئيس أنور السادات، قال لى إنه كان في اجتماع مع جمال عبدالناصر، وإنه – أي جمال عبدالناصر – قال للمجتمعين إنه قرأ قصة لى أقول فيها إن ما كان يحدث قبل الثورة يحدث بعد الثورة، وإنه أمر بأن تُعرض هذه القصة في التلفزيون كما هي».

يلعب السادات دور «الناقل» لما يقوله الرئيس عبدالناصر في اجتماع عام، ولا رأي له في قصة إحسان ومضمونها الجرئ الذي يهتم به ناصر، الزعيم الذي يسيطر منفردا على الأمور جميعا صغيرها وكبيرها، ويملك وحده حق اتخاذ القرار النهائي الحاسم الملزم، وبأمر منه يعرض التليفزيون تمثيلية السهرة المأخوذة عن نص ذي رؤية صادمة مثيرة للجدل ومفجرة لمخاوف تدفع إلى الاعتراض.

لا يملك السادات من الأمر شيئا، وفي الجلسة نفسها يواصل دور الناقل – الراوي بلا موقف: «وقال لي يومها أنور السادات إن عبدالناصر يسأل لماذا توقفت عن كتابة القصة؟.. وقلت للرئيس السادات أيامها: لن أكتب .. لأننى لا أضمن أن يقرأ جمال عبدالناصر بنفسه كل ما أكتبه»!.

قراءة عبدالناصر لقصصه هي الضمانة الوحيدة، المستحيلة، التي يطلبها إحسان لمواصلة الكتابة، وهو مطلب يعنى أن السادات بلا قدرة على التأثير. البطولة المطلقة من نصيب عبدالناصر الذي يحمى ويأمر ويفرض إرادته، أما السادات فشخصيته هامشية تابعة، ولا اعتبار لما قد يراه ويتحمس له، حتى عندما تضيق الدائرة وتنتقل الكرة إلى الملعب الذي يتولى إدارته وقيادته والسيطرة عليه: مجلس الأمة.

في الكلمة التي يصدِّر بها إحسان قصة «كم تدفع.. لا ماذا تأكل»، مجموعة «الهزيمة كان اسمها فاطمة»، حديث آخر عن قصة لإحسان تُناقش من منظور اتهامي في مجلس الأمة: «وكان رئيس مجلس الأمة أيامها هو الرئيس أنور السادات، وقد استدعاني سيادته قبل درج الموضوع في جدول أعمال المجلس، وقال لى إنه قد قُدم سؤال موجه إلى وزير الإرشاد عن قصة لي، وإنه سيعرضه فعلا على المجلس، وحاولت أن أقنع سيادته بأن هذه القصة ليست سياسية، والمجلس ليس مجال مناقشتها، ويمكن أن تُناقش في أي هيئة أدبية رسمية، وأجابني سيادته بأن السؤال مقدم في حدود لائحة المجلس، وأنه لم يتعود أن يتحدى القانون أو اللوائح، وكل ما يوصينى به هو أن أحتمل.. وكنت أعلم أن هذا السؤال مقدم بإيحاء من أحد مراكز القوى التي كانت تسعى لعزلي من عملي. ولكن الرئيس السادات لم يقل شيئا عما تسعى إليه هذه المراكز واكتفى بأن أوصاني بالاحتمال».

ينبئ ما يكتبه إحسان عن صداقة وثيقة تجمعه بالسادات قبل أن يصعد إلى قمة السلطة، لكنه صديق قليل الحيلة مشلول اليد، ذلك أنه بلا نفوذ يمكنه من تقديم الدعم. ما يُقال عن «لائحة المجلس» ورفض السادات لتحدى القانون واللوائح، أسباب واهية لتبرير العجز الذي ينبع من هامشية السادات وموقعه في الظل، حيث لا يملك أن يفعل شيئا سوى «النصح» والحث على الصبر والاحتمال. «مراكز القوى»، ذلك المصطلح الفضفاض المراوغ الذي يصعب تعريفه وتحديده، أقوى من رئيس المجلس الذي يتذرع باحترام القوانين واللوائح، متجاهلا أنها لا

تُطبق عندما يتعلق الأمر بما هو أخطر من قصة لإحسان تثير غضب واستياء الأخلاقيين المتزمتين.

يطغى حضور عبدالناصر فيزيح كل من حوله، ويتولى الزعيم وحده حق الإدارة المطلقة واتخاذ القرارات، المصيري منها والتافه. لم يكن السادات في الحقبة الناصرية، مع تعدد واختلاف مناصبه، بقادر على التأثير وحماية أصدقائه المقربين. يستمر طوال العهد الناصري قريبا من قمة السلطة، بعيدا عن الفاعلية والتأثير. يصطدم عبدالناصر بالآخرين من أعضاء مجلس قيادة الثورة ويطيح بهم تباعا، لكن السادات لا يمنحه فرصة لأنه يتجنب الاختلاف، ولا يلقى من عبدالناصر في المقابل إلا معاملة فاترة تليق بسلبيته وتبعيته وخضوعه الدائم الذي لا ينذر بالخطر. الصياغة المثلى في التعبير عن هذا المعنى، يقولها رفعت البيومى في رواية «وغابت الشمس ولم يظهر القمر»، بعد موت عبدالناصر وانتقال السلطة إلى السادات: «إنه يعرف أنور السادات معرفة شخصية منذ بداية الثورة، ولكنه في الواقع لم يكن يركز على هذه المعرفة، ويحيطها بشئ من الاهتمام الذي كان يبذله لباقي المحيطين بعبدالناصر.. لم يلهمه ذكاؤه بأن السادات يمكن أن يصل في يوم من الأيام إلى كل هذه القوة، ربما لأن عبدالناصر نفسه كان يعامل السادات معاملة فاترة، ولا يقدر له شخصية قوية يمكن أن يعتمد عليها وينفرد بها عن باقي الشخصيات».

الضعف مصدر قوة السادات، والأسباب التي تدفع إلى الاستهانة به وعدم تقديره خلال سنوات حكم عبدالناصر، هي نفسها الأسباب التي تؤهله لاعتلاء مقعد الرئاسة!.

تتم المقارنة بين عبدالناصر والسادات، في عالم إحسان عبدالقدوس، عبر عدة محاور:

- رجال الرئيسين.
- زوجتا الزعيمين.
- ثنائية الامتداد والاختلاف.

* الفارق لافت ملموس بين رجال الرئيسين، ومرده إلى التباين الكبير بين شخصيتي عبدالناصر والسادات، ما ينعكس بالضرورة على التوجهات والرؤى.

مرتضى السلامونى، في «يا عزيزي كلنا لصوص»، يعرف أن أباه لم يُطرد ويُقبض عليه بتهمة اللصوصية كما هو معلن من النظام الجديد: «أبدا.. لقد قُبض عليه فقط لأن الرؤساء تغيروا.. والرئيس الجديد لم يكن يحبه ولا يريد أن يشاركه في الملك»!.

يتغير الرئيس فتتبدل مصائر وأقدار الرجال القريبين من قمة السلطة، ومع مجئ السادات تختلف المواقع والحظوظ أيضا. توجهات العهد الجديد تختلف جذريا عما كان سائدا من قبل، ولأن المعايير الموضوعية غائبة، تنعقد البطولة للفرد ومزاجه الشخصي الذي يخضع للهوى في المقام الأول.

في «الحياة فوق الضباب»، يتقلد عباس ربيع منصب الوزير في حكومات عبدالناصر: «لكنه لم يبق طويلا في الوزارة.. خرج.. ولم يخرج لظروف متعلقة بالحالة الاقتصادية، ولكنه خرج لظروف سياسية كانت تسيطر عليها الشلل.. خرج هو وشلته من الوزارة. وعندما بدأت حكومات أنور السادات اتخذ موقفا سياسيا قفز به فورا إلى الوزارة.. ولكنه أيضا لم يبق في الوزارة فترة طويلة.. خرج وعاد إلى أسواق السياسة».

وزير في العهدين المتناقضين، ومطرود منهما لأسباب مختلفة. إذا كانت «الشلل» و«مراكز القوى» تفسر أزمته خلال الحكم الناصري، فإن «الموقف السياسي» الذي يعود به إلى الوزارة، في بداية عهد السادات، لا ملامح له ولا تفاصيل عنه، والأمر نفسه ينطبق على الأسباب والملابسات التي تفضى إلى خروجه!.

أى أسواق سياسية يعود إليها في عصر السادات؟، وما المساحة المتاحة للتحرك والتأثير خارج مؤسسة الرئاسة التي تسيطر وتفرض هيمنتها المطلقة بلا شريك؟!.

- تمتد المقارنة بين عبدالناصر والسادات لتصل إلى الزوجتين، وطبيعة العلاقة التي تربطهما بالحياة السياسية والحركة النسائية: السيدة تحية كاظم، والسيدة جيهان السادات.

في تقديم مجموعة «الهزيمة كان اسمها فاطمة»، يرى إحسان أن عبدالناصر يميل في بيته إلى المحافظة على التقاليد القديمة، ما يؤثر على حركة الزوجة وعموم الحركة النسائية، والعكس صحيح بالنسبة للسادات: «ولا شك أيضا أن

مساهمة حرم الرئيس أنور السادات في الحياة العامة وفي تحمل المسئولية الاجتماعية، قد دفع كل زوجات الطبقة المؤثرة إلى السير معها والنهوض بالحركة النسائية».

الرأى نفسه، وبصياغة مشابهة، تكرره الدكتورة سعاد في رواية «ونسيت أنى امرأة»، فهى تقول ما نصه: «..ثم تغير الحاكم وأصبح أنور السادات، وهو يبيح لزوجته المساهمة في الحياة العامة وتحمل المسئوليات الوطنية، ويؤيد الحركات النسائية بانطلاقة أكثر من جمال عبدالناصر، فأصبح الرجال كلهم يقلدون الرئيس والزوجات يقلدن زوجة الرئيس».

الانحياز واضح إلى السيدة جيهان ونشاطها الاجتماعي، والإهمال كامل لمصدر القوة الذي تتمتع به، ذلك أنها تستمد نفوذها من الانتساب إلى الرئيس وتسخر إمكانات الدولة لخدمة تحركاتها، فهل يعنى هذا تفردا مرده إلى قدراتها الشخصية؟!. لابد أن تكون الإجابة بالنفي!.

- لا تعارض في عالم إحسان عبدالقدوس بين حتميتين: حتمية علاقة الامتداد التي تصل بين السادات وعبدالناصر، وحتمية الاختلاف بينهما في الوقت نفسه. إنهما عنده، دون نظر إلى الموقف السياسي منهما، جزء من التاريخ الممتد للوطن وزعيمان من زعمائه.

في قصة «ابنة المرحوم»، مجموعة «الحب في رحاب الله»، يجمع الدكتور عبدالحي نعمان بينهما عندما يعد دراسة مطولة موضوعها تحليل الحالة النفسية لزعماء مصر.

إذا كان التحليل النفسي يجمع بين عبدالناصر والسادات في القصة السابقة، فإن «النفاق» واحترام «فكرة» الرئيس، أي وكل رئيس، هو ما يجمع بينهما عند محمود المرعشلى في قصة «واحد من الرؤساء»: «كان يحس كأنه يهم بالسجود على الأرض كلما تطلع إلى صورة جمال عبدالناصر.. إنه الرئيس الأكبر.. وأحس نفس الإحساس كأنه ساجد على الأرض وهو يتطلع إلى صورة أنور السادات.. إنه أيضا الرئيس الأكبر»!.

من منظور سياسي، لا علاقة له بالتحليل النفسى أو تقديس فكرة الرئيس، يرى إبراهيم أبوطالب في قصة «الزجاجة الفارغة»، مجموعة «آسف لم أعد

أستطيع»، علاقة الامتداد بين السادات وعبدالناصر: «وكذلك أنور السادات، فهو أيضا يعتمد على قوة الاستمرار.. لم يمر بمرحلة موت سياسي كما مررنا نحن وحزب مصر الحرة».

بالتحليل الطبقى، يصل المليونير رضوان الدسوقي، في رواية «في وادي الغلابة»، إلى نتيجة مشابهة ترصد وجها للتشابه: «أين الأفراد الذين كنا نردد أسماءهم أيام الحاكم جمال عبدالناصر.. ثم الأسماء التي ظهرت أيام أنور السادات.. لقد اختفت كلها.. ضاعت.. لأنها أسماء لأفراد لا يمثلون طبقة مستمرة تتوارث نفسها.. إلا فردا أو اثنين استطاعا أن ينتقلا من رضاء حاكم إلى رضاء الحاكم الآخر»!.

علاقة الامتداد هذه، متعددة الأسباب الطبقية والسياسية والنفسية، لا تنفى وجود الاختلاف والتباين الشاسع بين الرئيسين. في هذا الإطار، يبدو إحسان منحازا إلى السادات وفلسفته وتوجهاته، وليس أدل على ذلك من أنه يستعين به ويستشهد بمقولاته لتقييم مرحلة حكم عبدالناصر!.

في مقدمة مجموعة «آسف.. لم أعد أستطيع»، ينشر إحسان نص رسالة قديمة يكتبها لعبدالناصر في منتصف الخمسينيات، ثم يعلق قائلا: «هذه هي الرسالة التي كتبتها عام ٥٥ لجمال عبدالناصر، وبين كلماتها ما يعبر عن مدى ثقتنا فيه وحبنا له في هذه الفترة.. فترة الخمسينات التي وصفها الرئيس السادات أنها كانت فترة الانتصارات وقبل أن تبدأ فترة الستينات، والتي وصفها السادات بأنها فترة الهزائم، والتي أخذت منا كثيرا من الحب الذي يجمعنا بعبدالناصر».

من توصيف السادات للمرحلتين يقتبس إحسان ويؤمن ويصدق موافقا: الانتصارات والهزائم في الحقبة الناصرية من منظور السادات، وانطلاقا من تحليله. لا يذكر أسبابا ومبررات للتمييز بين الخمسينيات والستينيات على هذا النحو، قانعا بالنقل عن السادات دون تعقيب، كأنه صاحب القول النهائي الفصل الذي لا اختلاف معه ولا تعقيب عليه!.

في رواية «وغابت الشمس ولم يظهر القمر»، شهادة مهمة تتوقف عند التغيير الذي يتحقق، وتعبر عن الخلاف الجوهرى بين الرئيسين من خلال شخصية رفعت البيومى:

«إن كل شيء يتغير..

وهذا مفروض..

إنه لا يمكن أن ينتظر أن تكون طبيعة شخصية أنور السادات هي نفس طبيعة جمال عبدالناصر.. ولا نفس العقلية.. ولا نفس أسلوب الحكم..

وقد استقبله أنور السادات بعد أن تولى الحكم بترحاب كبير.. وبدا كأنه قرر الاعتماد عليه كما كان عبدالناصر يعتمد عليه.. ولكن رفعت لم يطمئن إلى هذا الترحاب ولم يصدق نفسه وهو أن الحكم سيستمر في الاعتماد عليه.. وقد فوجئ بسرعة أن الحكم بدأ يعتمد على غيره في نفس الأعمال التي كان يقوم هو بها.. وينفرد بها.. سحب منه السادات حق الاحتكار والانفراد بهذه الأعمال».

كل شيء يتغير في العهد الجديد، وشخصية السادات تختلف بالضرورة عن شخصية عبدالناصر، وهو اختلاف يؤدي بالتبعية إلى متغيرات عديدة، تبدأ من القضايا السياسية الخطيرة، وتنتهي بطبيعة الرجال المحيطين بالرئيسين وأساليب التفكير وآليات اتخاذ القرار.

يقدم رفعت تحليلا «ذاتيا» لتجسيد الخلاف وتبرير الموقف الذي يتخذه السادات منه، كرمز لموقفه العام من عموم التركة الناصرية: «إن الحاكم لا يستطيع أن يعتمد إلا على من له فضل عليهم.. وقد كان عبدالناصر صاحب فضل عليه.. هو الذي شمله برعاية الثورة.. وهو الذي سكت على صداقته للإنجليز.. هو الذي فتح له كل هذه الحرية التي حقق بها مشروعاته.. وهو الذي كلفه بمهام كثيرة رفعت من مركزه وقيمته في البلد وبين كل الدول الأجنبية التي يتعامل معها.. فماذا يستطيع السادات أن يقدم له من فضل حتى يأسره بفضله عليه.. لا شيء.. إن كل ما يستطيع أن يقدمه هو الاستمرار فيما كان يقدمه له عبدالناصر.. أي سيبقى السادات دائما معقدا يعتبر نفسه أنه ليس صاحب فضل على رفعت.. وسيبقى رفعت في نظره كأنه رجل عبدالناصر.. والسادات معذور.. إن من طبيعة الحاكم أن يبحث عمن يأسرهم بفضله عليهم».

من الممكن أن يتسع هذا التحليل الذاتي الضيق ليتجاوز خصوصية رفعت البيومي وأمثاله، إلى رحابة وعمومية الواقع الموضوعي الذي يتعامل معه السادات ويمثل قمته: الرغبة في تشكيل نظام ينتسب له؛ نظام له سياسات مختلفة، ورجاله الجدد، وتوجهاته المفارقة لجوهر المرتكزات الناصرية. ليست «العقدة»

إذن في عدم شعور السادات بالفضل على رفعت، وإنما المشكلة الحقيقية في البحث عن دور متميز لا صلة له بتراث عبدالناصر.

ما الملامح والسمات التي ينفرد بها نظام السادات عند إحسان عبدالقدوس؟. إنه لا يهمل الجانب الشخصى والنزعة العائلية التي تطبع النظام، وبصرف النظر عن النوايا والدوافع الحقيقية، فإن شبكة العلاقات العائلية الجديدة للسادات تمثل موضع انتقاد ومحل اتهام دائم لا يتوقف.

في مقدمة قصة «البحث عن الطريق الآخر»، مجموعة «العذراء والشعر الأبيض»، يطرح إحسان سؤالا مهما: «عندما يكون الأب رئيسا.. هل يظلم أبناءه أو يظلمه أبناؤه؟». زواج نهى ابنة السادات من حسن سيد مرعى، نموذج للقضية المطروحة: «وفي مصر قامت حملة ضد المهندس سيد مرعى عندما رشح نفسه لرياسة مجلس الشعب متهما بأنه اعتمد على أنه ناسب الرئيس أنور السادات بزواج ابنه من ابنة الرئيس، وأذكر أنه بعد أن أُعلنت الخطبة أن التقيت مرة والصديق سيد مرعى وقلت له: على قدر فرحتى بخطبة حسن إلى نهى فإنى أشفق عليك من هذا الزواج. ولم أكن في حاجة إلى أن أسمع رد سيد مرعى، فإنى أعلم أن شخصيته السياسية بدأت قبل الثورة واستمر بها بعد الثورة دون أن يعتمد على قرابة أو نسب، ولكنى كنت أقدر أن مجرد ارتباطه برباط مع رئيس الدولة سيثير حوله متاعب كان في غنى عنها، وقد يتحمل رئيس الدولة نفس المتاعب.. وهو ما حدث فعلا».

ليست القضية هنا في مكانة سيد مرعى وتاريخه السياسى القديم الممتد، لكنها في شبكة من العلاقات العائلية التي تثير المتاعب وتفجر الشائعات، وتطلق الاتهامات والتشنيعات. بإضافة هذه الشبكة الراقية، اجتماعيا وطبقيا، إلى معاناة فقراء الشعب جراء سياسة الانفتاح الاقتصادي المنفلت، يبدو منطقيا أن يتصاعد العداء للسادات ويصل إلى ذروته في نوع الهتافات التي تتردد ضده وضد نظامه، وتظهر بعض هذه الهتافات في رواية «في وادي الغلابة»، نقلا عن المظاهرات العنيفة المعادية للسادات: «مش كفاية لبسنا الخيش.. جايين ياخدوا رغيف العيش.. يا حرامية الانفتاح.. الشعب جعان مش مرتاح.. يشربوا ويسكى وياكلوا فراخ.. والشعب من الجوع أهو داخ.. هو بيلبس آخر موده.. واحنا بنسكن عشرة في أوده.. بل إن الهتاف تطور إلى أبعد من ذلك.. لم تعد مقصورة على رفض

رفع الأسعار.. لقد كانوا يهتفون.. الصهيوني فوق ترابي.. والمباحث على بابي.. يا أمريكا لمى فلوسك.. بكره الشعب يدوسك.. احنا الشعب مع العمال.. ضد حكومة الاستغلال.. و..».

تكشف هتافات المتظاهرين التي يرصدها إحسان، في حياد يخلو من الموقف، عن حالة السخط التي تهيمن على الفقراء المضارين من سياسة السادات الاجتماعية، حيث الانحياز المطلق بلا ضفاف إلى الطبقة الطفيلية التي تثرى ثراء فاحشا في ظل سياسة الانفتاح الاقتصادي، بكل ما يترتب عليها من معاناة تنعكس على حيوات محدودي الدخل الذين يواجهون أشباح الغلاء ويزدادون فقرا وحرمانا كل يوم.

الفصل ليس ممكنا بين التوجه الاجتماعي الاقتصادي من ناحية والفلسفة السياسية من ناحية أخرى، ولذلك يكشف المتظاهرون في هتافاتهم عن وعي بخطورة توجه السادات إلى التحالف مع الولايات المتحدة والاقتراب من إسرائيل، وهو ما يتجلى بوضوح في القرارات المعادية للاتحاد السوفيتي. طرد الخبراء السوفيت من القرارات الخطيرة التي يتخذها السادات، معلنا عن موقف جديد من الدولة الاشتراكية التي يتحالف معها عبدالناصر، ويظهر صدى القرار عند العميل المحترف رفعت البيومي في رواية «وغابت الشمس ولم يظهر القمر»، ووفق تعبير إحسان: «فوجئ بطرد الروس من مصر.. طرد القوات السوفيتية والخبراء السوفيت.. إنه لم يستطع أن يحصل على أي معلومات مسبقة يبلغ بها الروس والإنجليز رغم اتصالاته التي كان قد وصل إليها مع الكثيرين من الشخصيات الحاكمة.. وربما كانوا هم أيضا لم يعلموا بشيء مقدما.. وانفرد بالقرار أنور السادات بنفسه إلى أن فاجأه به بدليل أن بعض الوزراء قدموا استقالاتهم لأنهم لم يتحملوا المفاجأة».

يتوافق هذا القرار مع الاقتراب من الولايات المتحدة الأمريكية، الذي يزداد بروزا بعد حرب أكتوبر، وهو التقارب الذي يتجلى رد الفعل السلبي تجاهه عند رفعت البيومي في الرواية نفسها: «بدأ يردد في كل مناسبة تجمعه بأحد المسئولين أنه متأكد من أن أمريكا لا يمكن أن تعتمد على أنور السادات.. لا يهمها أن تغير رئيسا برئيس.. إنها تريد أن تغير نظام الحكم كله ليكون قريبا من النظام الأمريكي، والنظام الأمريكي يقوم على نوع من الديمقراطية وتعدد الأحزاب».

لم تكن الديمقراطية الشكلية، بلا مضمون حقيقي، بالمطلب العسير. برعى محمود، المليونير أمريكي الهوى المعبر عن نظام السادات، يواجه ممثل العهد القديم، رفعت البيومي، بهذه الحقيقة: «إن أنور السادات نفسه هو الذي سيقلب نظام الحكم وسيبيح تعدد الأحزاب».

الجفاء مع الاتحاد السوفيتي هو الوجه الآخر للتقارب مع الولايات المتحدة، ويترك التحول أثرا بالضرورة على الصراع العربى الإسرائيلي. لم تكن مبادرة السادات بزيارة إسرائيل، تمهيدا لتوقيع معاهدة السلام معها، إلا تتويجا لرحلة طويلة من الممارسات السياسية والاجتماعية التي تمهد للتوجه الانقلابي الجديد.

في عالم إحسان عبدالقدوس موقفان متناقضان لشخصيتين مختلفتين تجاه السلام مع إسرائيل، ولا يمكن فض الاشتباك بمعزل عن الفصل بين موقف إحسان من اليهود ومواقف شخوصه من معاهدة السلام، ذلك أن الموافقة على المعاهدة أو رفضها، لأسباب سياسية خالصة، لا علاقة لها بالعداء العنصرى لليهود.

لوسى، زينب، اليهودية المسلمة في رواية «لا تتركونى هنا وحدى»، لا تخفى سعادتها بزيارة السادات للقدس، وتدفعها الزيارة لتتذكر إبراهيم سرور، المصرى اليهودي الذي يعيش كمسلم، ويهاجر أولاده إلى إسرائيل، وابنته روجينا هي من تستقبل الوفد المصري في فندق هيلتون عند زيارة السادات: «وفرحت عندما قرأت الخبر.. فرحت لأن يوما سيعيش اليهود في مصر وإسرائيل معا..».

يرتبط الحكم المتطرف، الذي يحلق بعيدا عن معطيات الواقع، بطبيعة الشخصية التي تتعايش داخلها المشاعر اليهودية الإسلامية المتداخلة، وهي لا تنظر إلى الصراع في إطاره السياسي بقدر ما تتعامل معه بمنطق رومانس خيالي يغلفه التفاؤل.

أما الطالب السياسي مرتضى، في رواية «في وادي الغلابة»، فيقترح أن يكون منشور جماعته السياسية، غير محددة الهوية، ضد اتفاقية السلام: «إن ارتباطنا بأمريكا يعنى ارتباطنا بإسرائيل.. فليكن المنشور ضد كامب ديفيد وضد ما يُسمى العلاقات الطبيعية مع إسرائيل.. إننا لا نقبل أن نكون على علاقات طبيعية مع إسرائيل وهي تعتدى على كل الأرض العربية».

الموقفان المتعارضان المتنافران لا يقودان إلى شئ محدد: لوسى امرأة حالمة تنفصل عن الواقع، ومرتضى إنشائي يردد كلمات معادة لا جديد فيها يستحق الاهتمام!.

يمكن القول إن النهاية الحقيقية للسادات تبدأ مع قرارات الاعتقال التي يصدرها في سبتمبر ١٩٨١، وتشمل كل رموز العمل الوطني في مصر، من اليسار واليمين على حد سواء. يبذل إحسان جهدا واضحا لتجميل الضربة والتخفيف من قسوتها، على الرغم مما يصيبه شخصيا باعتقال ابنه محمد، المنخرط في صفوف جماعة الإخوان المسلمين. يتجلى ذلك في وصف إحسان للمعاملة الطيبة التي يلقاها رفعت البيومي داخل المعتقل: «وقد أُستقبل رفعت البيومي في السجن باحترام كبير كأنه أحد كبار الزوار.. واطمأن بعد ساعات بأنه ليس هناك تعليمات بإساءة معاملته.. وهو يعرف من أين تصدر هذه التعليمات.. إنها تصدر من الرئاسة نفسها.. ولكن يبدو أن الرئاسة لن تأمر بإساءة معاملته».

على الرغم من المعاملة الطيبة، تنتهي الرواية ورفعت في السجن لم يغادره: «وقد مضى عليه الآن أكثر من شهر دون أن يحس بأي حركة تثير الأمل».

يتزامن مرور هذا الشهر مع اغتيال السادات في حادث المنصة، وهو ما تتجاهله الرواية دون منطق، لكن الإشارة إلى الحادث تظهر بشكل عابر في رواية «الحياة فوق الضباب»، من خلال شخصية منير غانم، الذي يجنح إلى العزلة والسلبية، منتقلا بإرادته إلى صفوف المتفرجين اللامبالين: «حتى عندما أغتيل أنور السادات.. كان رأيه رافضا لعملية الاغتيال.. ولكنه لم يترك نفسه لمجرد إبداء رأيه».

ثمة إشارة أكثر أهمية في قصة «زئير في الأحلام.. والحياة في أقفاص»، مجموعة «وكر الوطاويط»، ذلك أنها تمتد إلى عمق تاريخي يبدأ مع تولى السادات للسلطة.

رئاسة السادات تمثل مفاجأة خارج التوقعات بالنسبة لمعروف حمامة: «فلم يكن ينتظر أن يكون هذا هو الحاكم.. ولكنه حاكم يتصرف بأسلوب جديد.. ويتكلم بأسلوب جديد.. ويرفع شعارات جديدة».

بعد أن يستعرض معروف رحلة السادات في الحكم، ورحلته الشخصية مع السادات، يصل إلى قرارات سبتمبر التي تفضى إلى الاغتيال: «ولم يعد الحاكم

يطيق سماع أي ضجة.. فقبض على كل الأسود، واعتقلهم في أقفاص بعيدة عن السيرك السياسى!. ووجد معروف حمامة نفسه مرة ثانية في المعتقل.. وكما هى العادة، وجد نفسه يرتاح من مسئولية الزئير دون أن يفقد إحساسه بأنه أسد.. حتى لو كان أسدا في قفص.. ولم تمر شهور على اعتقاله حتى فوجئ بأن الحاكم قد ذهب.. ولم يكن الله قد أخذه بنفسه كما أخذ الحاكم السابق، ولكن أخذته جماعة لا يعرف عنهم شيئا ولا يدرى هل هم من الأسود أم من الحشرات القاتلة».

الفاصل بين الاعتقال والاغتيال لا يتجاوز الشهر الواحد، لكن معروف حمامة يحوله إلى عدة شهور!. هذا التناقض يبدو هينا مقارنة بالخلل الزمني الذي يقع فيه إحسان، عندما يجعل بطله فوق سن الأربعين بعام واحد، لكنه لا يجد حرجا في التأكيد على مشاركته الفعالة في الحياة السياسية المصرية قبل ثورة يوليو، التي يؤيدها وهو طالب في الجامعة؛ أي في العاشرة من عمره تقريبا!.

القصة، في مجملها، لا تكشف عن موقف محدد لمعروف حمامة، سلبيا كان أم إيجابيا، ذلك أن عباراته إنشائية فضفاضة، وأفكاره ضبابية تستعصى على التحديد، وحكمته مصنوعة زاعقة!.

ليس أدل على الارتباك من الحكم «النهائي» الذي يقدمه معروف عن الرئيس السادات، في إطار فلسفي يراود الحكمة، لكنه بلا مضمون حقيقي مفهوم: «وخلفه أنور السادات.. وكان قد تعدى سن الشباب وأصبح عجوزا متخليا عن كل أحلام الشباب.. وأغرق نفسه في أبعد أعماق الواقع.. واستطاع بواقعيته أن ينقل مصر كلها إلى وضع جديد كان لا يمكن أن تحققه الأحلام.. إلى أن ذهب هو الآخر».

ألا يتناقض هذا التقييم الإيجابي المتعاطف مع ما تقوله القصة، من خلال الشخصية نفسها، قبل صفحات قليلة؟!.

هكذا تنتهي رحلة إحسان عبدالقدوس مع السادات، وهي الرحلة التي تبدأ بإشارات عابرة محدودة إلى دوره الهامشى الخافت في ظل الحضور الطاغي المتوهج لعبدالناصر، ثم تنتقل إلى المقارنة الطويلة المضنية بين الرئيسين عبر زوايا متعددة، يبدو فيها انحياز إحسان واضحا لمرحلة السادات وتوجهاته، ثم تأتي المحطة الأخيرة في تقييم السادات وعهده، ومن المنطقي أن تكون كل الآراء المحايدة والمؤيدة في الأعمال التي تُنشر وتطبع في حياة السادات، أما الآراء السلبية والمعارضة فتُنشر في مؤلفات ما بعد الاغتيال.

الفصل الثالث

فتحي غانم

في المقدمة القصيرة لرواية «قليل من الحب كثير من العنف»، التي نُشرت طبعتها الأولى سنة ١٩٨٥، يشير فتحي غانم إلى أن أحداث الرواية مستمدة من صميم الواقع المصري كما يعاصره في نهاية السبعينيات، ثم يضيف كأنه يفسر العنوان أو يبرره: «وما حيلتى، وما سوف أرويه يحذرنا من الحب، ويقول لنا إن حياتنا لم تعد تحتمل الحب. فهو أخطر على حياتنا من العنف ولذلك نحيا في عصرنا الحالى بـ «قليل من الحب وكثير من العنف»....».

من المنطقى أن تقترن حقبة السبعينيات في شتى مناحيها بالرئيس السادات، رأس النظام وصانع سياسته، وفي رواية غانم شهادة عميقة شاملة عن المرحلة، تتجاوز السياسى التقليدي المباشر إلى الاقتصادى والاجتماعى والثقافي والنفسى، ومن خليط هذا كله تتشكل الرؤية السياسية الأعمق والأدق.

العناصر الفاعلة المؤثرة تختلف عما كان معهودا في الزمن القريب، ذلك أن أغنياء الانفتاح الاقتصادي يتربعون منفردين فوق القمة، والسادة القدامى تطيح بهم زلازل التحول العاصف فيسقطون أو يقفون على حافة السقوط. توجه السادات ذو خصائص مختلفة لا تشبه المراحل السابقة، والمحصلة النهائية تتمثل في إيقاع غرائبى يغلب عليه النشاز والارتباك.

العنف الذي يعنيه غانم في روايته لا يقتصر فحسب على الإرهاب الدموى بالمعنى الشائع، بل إنه يمتد أيضا لترجمة مناخ الاضطراب وأجواء التوتر والاحتقان التي تفسد صفاء الحياة وتعكرها بآليات الخلل الذي يدمر منظومة القيم والأفكار التي تنهض عليها أركان مجتمع ما قبل السادات. لا متسع للحد الأدنى من مفردات التعايش الآمن في العصر المرتبك، ذلك أن النسيج المتوازن المتماسك يتعرض للاختراق جراء طوفان التحول غير المحسوب، وهو من القوة بحيث لا ينجو منه الصالح والطالح، المثقف والجاهل، الغني والفقير.

يتبخر المشروع الناصري ويتآكل لمزيج من الأسباب الذاتية والموضوعية بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧، وفي أعقاب حرب العبور يهيمن السادات منفردا ويكتسب شرعيته الذاتية المستمدة من انتصار يتيح له الحق في اختيار درب جديد وسياسة مغايرة لتلك التي كان يتبعها سلفه عبدالناصر.

مرتكزات المرحلة التي يقودها لا تنتمي إلى العهد الملكي وجملة قيمه «البائدة»، وتصطدم بالضرورة مع السائد من القوانين والأعراف في سنوات حكم عبدالناصر. الخريطة التي يرسمها السادات ذات سمات وملامح يتحمل وحده مسئوليتها، دون اعتبار لنفور واستياء الأغلبية الشعبية الساحقة.

في «الأفيال»، يعود ميرزا الفلكي إلى مصر بعد رحيل عبدالناصر ليسترد حقوقه المسلوبة، وسرعان ما يكتشف أنه يواجه عالما مغايرا لكل ما كان يتصوره، والمقياس عنده هو العهد الملكي الذي يمثل أحد رموزه وعلاماته البارزة: «الأعيان من أمثال أبيه اختفوا، أنواع أخرى من البشر هي التي تحيا الآن، لا صلة لها بأبيه ولا بالعالم الذي جاء منه».

هؤلاء الطفيليون الجدد، بكل ما يتسمون به من نهم وأمراض نفسية مزمنة، هم سادة عصر السادات والأقدر على التوافق مع سياسته والإفادة منها. يتغير الزمن، وتظهر قوى اجتماعية جديدة مشوهة، تريد أن تنهش وتسود وتتحكم، وفي غمار السعى المحموم للسيطرة والقيادة وإحكام القبضة، يتشكل عالم قوامه النشاز والاختلاط.

لا يمكن القول إن السادات يعود بمصر إلى ما كانت عليه قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، سياسيا واقتصاديا، كما أنه لا يمثل امتدادا للحقبة الناصرية بسماتها وتوجهاتها المعروفة. العلامات الأهم في سنوات حكمه، هي الضبابية والغموض والولع بالقرارات الانفعالية غير المحسوبة.

في قصة «تفاصيل أخرى عن حادث بيت الزمالك»، مجموعة «عيون الغرباء»، يعود يوسف الحكيم إلى الظهور من جديد، وهو سليل عائلة من أمراء المماليك، تسلبها الثورة كل أملاكها وتطيح بمكانتها، وكان ظهوره مصاحبا للتغييرات الجذرية العميقة التي يباركها عصر السادات: «في تلك الأيام التي كان يلجأ فيها شاه إيران والشهبانو إلى السادات في مصر. وكان الملك فؤاد الثاني يعود

إلى القاهرة وكثير من رجال الأعمال المصريين يعيدون فتح مكاتبهم في مصر قادمين من أوربا وبيروت وليبيا والخليج».

الأسماء التي تشير إليها القصة، شاه إيران وزوجه الشهبانو والملك فؤاد الثاني، فضلا عن كتيبة رجال الأعمال الذين تجذبهم سياسة الانفتاح الاقتصادي، تنبئ في جملتها عن عالم مختلفة ذي رؤى وتوجهات تنعكس بالضرورة على المقاييس والمعايير التي يتم اعتمادها في تقييم البشر والأشياء، وصياغة منظومة القيم التي تحكم وتتحكم.

المليونير مرسى فرج، الشخصية المحورية في «قليل من الحب كثير من العنف»، يرى أن أولاد البكوات والباشوات لا يساوون «بصلة ولا فجلة»، ويتجلى ذلك في قوله لابنه طلعت، وريث الامبراطورية الاقتصادية مترامية الأطراف: «كلهم شحاتين، فماذا يكون مرتب وزير أو نائب عام، خمسمائة جنيه.. ستمائة.. سبعمائة، ألف في الشهر. أبوك يعتبر يومه أغبر لو كانت غلته أضعاف هذا المبلغ».

يتكلم المليونير العصامى، ذو الأصول الشعبية المتواضعة، بلغة الثروة الطائلة التي يستمد منها نفوذه الخطير، وليس أدل على ذلك من الصلة الوثيقة التي تجمعه بالرئيس السادات ومؤسسة الرئاسة. تتجسد سطوته عندما يختلف مع محافظ الإسكندرية فيتلقى المحافظ درسا قاسيا، ويوبخه الرئيس في اجتماع عام بسبب تكدس البضائع في الميناء: «وكان المحافظ يعلم، كما يعلم الرئيس الذي يوبخه، أن هذا التوبيخ بسبب أوامر أصدرها المحافظ خطأ بإعطاء الأولوية في التفريغ لمواد تموينية كان يعتقد أن الحاجة ماسة إليها وعاجلة، ولن يحدث ضرر إذا ما تأخرت عملية تفريغ حاويات مرسى فرج يوما واحدا».

ينحاز السادات إلى رموز وأعلام الطبقة الطفيلية الجديدة التي تزدهر في عهده، والمصلحة الشخصية للمليونير مقدمة على الاحتياجات الجماهيرية الشعبية الملحة، ولأن رجال السلطة التنفيذية، ممثلين في المحافظ الذي يرأس الجميع، يجيدون قراءة المؤشرات وترجمتها إلى سلوك عملى، فإنهم لا يملكون إلا الانصياع والخضوع والتفاني في خدمة من يرضى عنهم الرئيس ويتحالف معهم ويدعمهم بلا حدود.

قد يوحى ظاهر «الحاج» مرسى بالبساطة والتواضع والتقوى والورع، لكنه يملك نفوذا خطيرا بفضل العلاقة الوثيقة مع الرئيس السادات، ويتجسد ذلك

بوضوح عند شروع ابنه المهندس طلعت في الزواج من ابنة النائب العام. المعلومات التي تتسرب عن الزوجة الأولى للابن تثير غضبه واستياءه، ويدرك المحافظ شهدى أبواللطف أن المليونير الغاضب يتهمه بالمسئولية ويهدد بإقالته: «وكان شهدى أعقل من أن يعارض الحاج.

وكان يعرف أنه لابد وأن يقدم ضحية قربانا يسترضى به ذلك المليونير الغاضب الثائر. إنه لن يقبل أن تضيع ثورته هباء، ولابد أن يقتنع في الحال أنه سيد مرهوب الجانب.

وقال شهدى أبواللطف إنه يرى أن الأمر فعلا خطير، وأنه سبق وأن قال للحاج، أنه غير مطمئن للعمل مع مدير الأمن».

لا يجد المحافظ من يضحى به إلا مدير الأمن، فيتهمه بالخيانة، ويطلب من الحاج أن يوضح حقيقة الرجل للرئاسة قبل أن يتمادى في عبثه وخيانته: «فقال الحاج مرسى بهدوء:

-لن يطلع عليه الصباح وهو مدير الأمن في هذا البلد.

واستمع شهدى إلى كلمات الحاج في وجوم، وقلبه يدق بعنف، وقد استولت عليه رهبة عجز عن إخفائها وهو يردد:

- تمام يا حاج .. تمام .. تمام»!.

اللغة الهادئة وليدة الثقة والقوة، ذلك أن نظام السادات يمنح الحاج مرسى وأعوانه من غيلان الانفتاح مكانة تفوق الأعمدة التقليدية للدولة. لا صعوبة في الإطاحة بمدير الأمن، والأمر ميسور باتصال تليفوني، فكيف لا يتراجع المحافظ وينحنى ويسمع ويطيع؟. إنه مرءوس للحاج، رجل المرحلة وعلامة التحول.

يتزوج طلعت مرسى، بعد فشل زيجته من ابنة النائب العام، والعروس الجديدة تنتمي إلى العائلة الملكية. يحرص السادات وأفراد أسرته على حضور حفل الزفاف، وتُفرض حراسة مشددة على الفرح خوفا من «هجوم» طليقة المهندس طلعت، وبذلك يتورط الرئيس في منحدر لا نهاية له: «كانت الحراسة شديدة طبعا، بسبب وجود الرئيس والشخصيات الكبيرة.. إلا أن الهمس كان يدور بين المدعوين بأن السبب الحقيقي في تشديد الحراسة، أنهم كانوا خائفين من هجوم تقوم به فاطمة على الحفل.. ويشهد العالم مشهدا بينها وبين رئيسكم وهي تشكو ظلم طلعت لها ولابنتها.. ولقد سرت هذه الإشاعة حتى أن بعض أصدقاء

مرسى فرج قالوا إن الشيوعيين المتحالفين مع المعارضة هم الذين يشنون هذا الهجوم لإحراج الرئيس»!.

طليقة الابن ليست إلا امرأة شعبية مسكونة بمزيج من الغضب والغيرة والخوف، فكيف تثير هذا القدر من الذعر، ما يستدعى الحراسة المشددة كأنها منظمة إرهابية عاتية؟!. السؤال هنا: هل يليق برئيس الدولة، وللمنصب جلاله وهيبته، أن يتورط في منظومة مضطربة تختلط فيها الأوراق على هذا النحو، ويُعطف الشيوعيون والمعارضون السياسيون على امرأة بسيطة لا شأن لها بالمعارضة السياسية؟.

صداقة مريبة ذات دلالات سلبية تجمع بين السادات والمليونير السكندرى العصامى، الذي يتحمل منفردا تكاليف الاحتفال بزيارة الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، الذي تحاصره الاتهامات في بلاده، ويُستقبل في مصر بترحاب أسطوري. شخصية مرسى فرج، كما تقدمها الرواية، تحظى بثقل كبير مؤثر بلا ضفاف، ويوشك الرجل أن يكون رئيسا لجمهورية الإسكندرية نائبا عن السادات. المحافظ يخشاه ويرتعش في مواجهته، ومدير الأمن يُنقل بمعرفته، والرئيس وأفراد أسرته يشاركون في فرح ابنه. كيف تنشأ هذه الصداقة؟، ومن أين، ولماذا، يستمد الحاج نفوذه المتشعب؟!. أسئلة لا تجيب الرواية عنها بشكل صريح مباشر، لكن التماس الإجابات ليس صعبا.

في قصة «بعض الظن إثم بعض الظن حلال»، يتوارى الإطار الاجتماعي – الشخصى الذي تعبر عنه رواية «قليل من الحب كثير من العنف»، ويظهر الوجه السياسى الاقتصادي لحكم السادات من خلال شخصية الصحفى الإنجليزي جون ماكريدى. يعايش انتفاضة يناير ١٩٧٧، ويبعث برسالة تنشرها صحيفة «كرونيكل»: «وصف فيها الأحداث وما سمعه من أفراد الشعب عن الأزمة الاقتصادية وارتفاع الأسعار، وكان قد أعطاني نسخة من رسالته وأعجبت بها فنشرتها في روزاليوسف. وغضب السادات لأنه كان يريد أن يدمغ الأحداث بأنها انتفاضة حرامية وليست انتفاضة شعبية. وأصدر قراره بطرد جورج من مصر، وفي نفس الوقت أصدر قراره بعزلى من رئاسة تحرير روزاليوسف».

انتفاضة يناير ١٩٧٧، بكل ما يسبقها من قرارات غير شعبية، وما يترتب عليها من نتائج وتداعيات خطيرة، حدث محورى بالغ الأهمية في حقبة السادات. تقييم

الرئيس للاحتجاج الشعبى العفوى لا يتوافق مع طبيعته المعبرة عن أزمة النظام، والإصرار العصبى على أنها «انتفاضة حرامية» وهم يأبى إلا أن يصدقه ويتشبث به. الإسراف الانفعالى يقوده إلى اتخاذ قرارات متطرفة في مواجهة من يخالفونه الرأى: يُطرد الصحفى الإنجليزي بعد أن ينشر شهادته، ويُعزل فتحى غانم نفسه عقابا لإقدامه على إعادة النشر.

من ناحية أخرى، يمكن القول إن أهمية انتفاضة يناير تتجاوز الاختلاف حول تسميتها وتفسير أسبابها ودوافعها والمسئولين عن إشعالها، ذلك أن رد الفعل الأخطر للسادات يتمثل في مواقف وقرارات خطيرة، يمكن التماسها فيما يقوله ماكريدي لصديقه الراوي حول إصرار السادات على ألا يرى الواقع، ويستنبط من ذلك الإنكار تهيؤه للاقتراب من عقد صلح منفرد مع إسرائيل، وإذ يقول له غانم متحفظا على تحليله:

«-لا أظن أنه يفعل ذلك.. فالشعار الذي أعلنه عبدالناصر ما زال ساريا.. القدس والجولان قبل سيناء.

قال لى وهو يشير إلى الحرائق وآثار الدمار:

-لن يتحمل السادات هذا الشعار.. وعندما يعلن أن هذه الأزمة هي انتفاضة حرامية .. فهذا يعنى أنه قرر أن يتهرب من هذا الواقع. وسيبحث عن الصلح بأى ثمن مع أمريكا ومع إسرائيل.

قلت له متشككا في أحكامه:

-لا أظن أنه يفعل..

قال بتأكيد :

-بل يفعل.. سيقول للشعب إنى أحصل لك على السلام والرخاء وسوف يصدقه ولو لبعض الوقت.. ويأخذ فرصة لالتقاط أنفاسه...

«الهروب من الواقع» مفتاح مهم لفهم واستيعاب أبعاد شخصية الرئيس السادات، المولع بالأوهام التي لا تتكئ على منطق متماسك، و«التقاط الأنفاس» لا يمكن أن يكون حلا جذريا لهموم الواقع الذي يزداد تدهورا، لكنه يمنح فرصة للتسويف والاستمرار في مسلسل الهروب والإنكار.

تتحقق نبوءة الصحفي الإنجليزي ذو الرؤية الواعية الثاقبة، ورفض السادات للمواجهة الجادة يصل به إلى مبادرة السلام وتوقيع المعاهدة، ويقوده

أيضا إلى بعثرة الوعود والأحلام الوردية المستحيلة عن الرخاء الذي لا متسع له، بالنظر إلى معطيات الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

يتوافق مخطط السلام مع اتجاه السادات لمغازلة تيار الإسلام السياسي، والسعى الدءوب لاستثمار الجماعات الدينية المتطرفة لمواجهة أعدائه اليساريين من الشيوعيين والناصريين، وهذا التوجه الأقرب إلى المقامرة هو الموضوع الأساس لرواية «الأفيال»، وكما يقول فتحي غانم نفسه في قصة "يوسف في تابوت من زجاج"، مجموعة «عيون الغرباء»: .. "وكتبت بعد سنوات «الأفيال» وكان السادات قد وقع معاهدة كامب ديفيد. وجماعات انتشرت تدعو له الخليفة الراشد السادس للمؤمنين، وجماعات أخرى تهاجمه. والكلام في الدين يتحول إلى كلام في السياسة ولعب بالنار. الأفيال عالم مجهول يذهب إليه البشر يجترون فيه ذكرياتهم ويلعبون الدومينو، بعيدا عن أحداث السياسة وإسرائيل والإرهاب».

يفتتح السادات مرحلة جديدة ذات محاور وتوجهات ينفرد بها، والأبرز فيها هو السلام مع إسرائيل، والتحالف مع الجماعات الدينية المتطرفة، والإعلاء من شأن الخطاب الديني الزاعق، بغية تحقيق انتصارات سياسية هامشية وخيمة العواقب.

اختلاط الدينى بالسياسى، على هذا النحو غير المسبوق، يهئ لكارثة لا تتأخر طويلا، وفي تجربة «الأفيال» الروائية ترجمة عميقة دقيقة لجوهر وخلاصة التحولات العاصفة المزلزلة التي يقودها السادات ويرعاها ويدفع ثمنها فادحا.

الأفيال الميتون بعيدون عن معترك الصراع، لكن الحياة التي يغادرونها لا تعرف الهدوء. خارج المقبرة الروائية، التي تحذر من خطورة اللعب بالدين وتوظيفه في معترك السياسة، يبدو التوجه الذي يؤسسه السادات مستمرا في «ست الحسن والجمال».

يؤكد الشيخ عبدالستار لعمر عبدربه: «الحكومة تقبض على الشيوعيين فقط. السادات يصالح المسلمين. السيد الحسينى الذي فتح الله عليه وبارك في أمواله وتجارته سوف ينقل نشاطه قريبا إلى مصر. طلب منه أن يرسل شعر لحيته»!.

ما الذي تعنيه مقولة إن السادات يصالح المسلمين ويقبض على الشيوعيين وحدهم؟!. المعنى الوحيد الذي يمكن استخلاصه أنه يستثمر الدين ودعاة الإسلام

السياسي لتصفية الحساب مع القوى اليسارية، وهو يلجأ إلى مثل هذه المغامرة الخطيرة دون تفكير في مرحلة ما بعد تقليص النشاط اليساري، وتطلع الاتجاه الاسلامي إلى الحصول على نصيبه من الصفقة.

العقلاء وحدهم من يدركون أن اختلاط الدين بالسياسة مهلك مدمر، لكن السادات لم يكن مدركا لخطورة ما يقوم به، ومن المنطقي أن يدفع ثمنا فادحا لاختياره الخاطئ.

في قصة «بعض الظن إثم بعض الظن حلال»، ينتصر غانم لضرورة الفصل بين الدين والسياسة، وعندما يفكر الصحفى الإنجليزي ماكريدي في إشهار إسلامه والزواج من مسلمة، يقول له بصوت جاد:

«- حذارِ يا جورج أن تلعب بالإيمان فهو أخطر من اللعب بالنار..

فقال كأنه يتحداني:

-أليس هذا هو الذي كنت تقوله عن السادات.

قلت بسرعة:

-لا.. أنا لا أجرؤ على اتهام أحد في إيمانه.

فقال قبل أن أكمل:

-إذن لا تتهمني ولا تتشكك في إيماني».

على الصعيد الشخصى، لا يملك أحد أن يشكك في إيمان السادات، والاعتراض كله ينصب على لعبته الخطيرة التي تقوم على الطعن في إيمان الآخرين!.

غياب التعاطف هو السمة المسيطرة على المكانة التي يحتلها السادات في عالم فتحي غانم، فهو الرئيس الذي يقترن اسمه بمعاناة الانفتاح الاقتصادي الذي يهدد استقرار الأغلبية الفقيرة، والاستثمار الخطير غير المحسوب للمشاعر الدينية في ساحة العمل السياسي.

في «قط وفأر في القطار»، تكتمل شهادة غانم، فالرواية تعود إلى مرحلة ما بعد موت عبدالناصر وبداية صعود السادات. يأمر الرئيس الجديد باستدعاء المحامى صديق الزعيم الراحل: «فلما دخلت عليه كانت صورة الذي مات فوق رأسه، وتمثاله على يمينه.. وكان السادات ينفث الدخان من الغليون في فمه، ويتحدث معك عن الصداقة والوفاء.. وسألك إذا كنت تريد شيئا خاصا.. وقال

لك إنه يعرف علاقتك به.. كيف كانت حميمة.. وكيف كان يستمع إلى رأيك.. فتظاهرت بأن ما يقوله صحيح.. ولزمت الصمت في وقار الممثل العظيم الذي هو أنت، وفي قرارة نفسك تتساءل إذا ما كان السادات يبالغ في تمثيلية مواصلة السير في طريق الذي مات رافعا شعاراته عن الوفاء..

وعندما خرج من مكتب السادات قابل في نهاية الممر رئيس الوزراء الذي توقف وعانقه قائلا باحتفاء:

-أهلا.. ألف مبروك.. أرى أنك ما زلت معنا في اللعبة..

قال لرئيس الوزراء وهو يفكر في أن يتشقلب أمامه على البساط الأحمر في الممر:

-لا أدرى إذ كانت لعبة أم تمثيلية..».

استمرار اللعبة أم صناعة تمثيلية ذات سيناريو مختلف ومضمون مغاير لما كان سائدا؟!.

مظاهر وفاء السادات لسلفه شكلية لا تنبع من القلب، فهو يكره عبدالناصر وتوجهاته، ولا يفكر في السير على دربه.

قد يضع الصورة فوق رأسه، ويحتفظ بالتمثال على يمينه، ويتحدث عن الوفاء، لكن نبرة المبالغة تثير الشك في مصداقيته، وتدفع إلى الريبة، وتطرح علامات استفهام شتى حول جدية الشعارات التي تتنافر مع الممارسات.

لم تكن هذه إلا مرحلة الاستضعاف والكمون، وفيها يتجنب السادات الإعلان عن العداء المباشر الصريح لعبدالناصر ورموز عهده، بل إنه يصر على أنه ناصرى صميم، يلتزم بأفكار وشعارات الرئيس السابق ولا يحيد عنها.

ينال المحامى صديق عبدالناصر وعدا من السادات باستمرار قضايا المؤسسات الحكومية في مكتبه، ويقول له:

«-الوفاء أهم شيء.. أعرف أنك لم تتورط معهم.. كنت صديقا وفيا وأنا يعجبنى هذا الوفاء.

بعد شهر سحبوا نصف القضايا، وفي نهاية العام اختفت من مكتبه بقية قضايا المؤسسات، وشركات القطاع العام».

المسألة هنا لا تتعلق بموقف شخصى من السادات تجاه واحد من الأصدقاء المقربين لعبدالناصر، وهو رجل لم يتورط يوما في الصراعات السياسية، ذلك أن الموقف الحقيقي يكشف عن طريقة وأسلوب ومنهج السادات، حيث المكاسب السريعة على المدى القصير، والخسائر الفادحة في المستقبل.

هكذا هو السادات في ممارساته على المستويين الذاتي والموضوعي، مع المحامي صديق عبدالناصر ومع جماعات الإسلام السياسى، ويقوده هذا النمط من الممارسة المختلة إلى أوخم العواقب. لم يكن اغتياله في حادث المنصة إلا تتويجا لطموحه المستحيل في التلاعب بالجميع، واستثمارهم دون تفكير بعيد النظر.

الفصل الرابع

بهاء طاهر

يغيب اسم السادات عن رواية «شرق النخيل»، التى تدور أحداثها مطلع السبعينيات، بعد فترة قصيرة من صعود الرئيس الجديد وسيطرته على السلطة، لكن المظاهرات الطلابية الرافضة لسياسته تشكل محورا مهما في البناء الروائي، فضلا عن الظهور المبكر لطلائع ورموز الطبقة الطفيلية التي تمثل الأساس الاقتصادي والاجتماعي لنظام السادات بعد سنوات قلائل.

يغيب الاسم أيضا في قصة «ولكن»، مجموعة «ذهبت إلى شلال»، التي تقدم دفاعا مجيدا ذا طابع أسطورى شعبى عن الزعيم «الولي»، جمال عبدالناصر، وفي الدفاع عنه إدانة ضمنية للعهد التالي الموصوف بالانفتاحي، في سياق اتهامى يدين كارهى عبدالناصر والمنقلبين على سياسته.

تقدم القصة مصريا مغتربا يعيش في لندن، ويعود إلى وطنه زائرا. يصطدم بالإيقاع الجديد الذي لم يعتده، فلا أحد من السائقين العاملين في ساحة المطار يرحب بالذهاب إلى بولاق حيث يسكن، ويطلب أحدهم ثلاث «برايز» لاصطحابه: «ولما أبديت عدم الفهم انصرف دون كلمة وهو يشوح بيده».

لغة جديدة لا يعرف مفردات قاموسها، و«البريزة» فيها تعنى عشرة جنيهات. بعد الحيرة والاضطراب والانتظار، يعثر على سائق نوبي عجوز يقود سيارة عتيقة، يوافق على ركوبه دون مساومة، ملتزما بالعداد. يمثل الحوار بينهما قوام القصة، وتتناثر سيرة الراوى ومحطات حياته عبر جزئيات يفكر فيها ولا يبوح بشئ منها للسائق.

تنبئ حكايته التي لا يبوح بها عن رغبة كامنة في الاستقرار داخل الوطن، لكن المتغيرات العاصفة، على الصعيدين الذاتي والموضوعي، تحول دون تحقيق

أحلامه الصغيرة، فهو مثقل بالأعباء والمسئوليات، ومطارد بالتحديات والضغوط التي لا قبل له بمواجهتها إلا عبر البحث عن الرزق في بلدان أخرى. ينتهي به الأمر إلى الرضا بوظيفة بائع في محل، متخليا عن مهنة التدريس التي يسيطر عليها أباطرة الدروس الخصوصية.

حبه لعبدالناصر يكشف عن توجهاته السياسية والاجتماعية، وما يحكيه السائق عن الزعيم الشعبي الراحل يحظى بإصغائه وإعجابه: «كان السائق» العجوز شاردا أيضا مع أفكاره وكنا قد تركنا منشية البكرى، واقتربنا من الجامع الأبيض المهجور، حين قال لي بلهجة حزينة:

-اقرأ الفاتحة يا أفندى.. هنا أيضا ولى من الصالحين.

وكان يمسح وجهه بيده وهو يقول «آمين» ثم التفت نحوى وقال بنوع من الاستفزاز:

-أو يمكن سعادتك من (بكوات) الانفتاح؟».

«بكوات» الانفتاح كارهون بالضرورة لعبدالناصر، وهم نجوم عصر السادات الذي يدفع بسطاء المصريين ثمنه فقرا وغربة، ومواجهة غير متكافئة مع طوفان التحول الذي يسلب من الوطن أجمل ما فيه.

الوجود المؤثر المباشر للسادات، في عالم بهاء طاهر، يطل عبر روايتيه «نقطة النور» و«الحب في المنفى». الرواية الأولى، ٢٠٠١، تدور أحداثها في منتصف السبعينيات، أي في ذروة حكم السادات، ويظهر فيها العهد كله مليئا بالاضطراب والاختلاط وقسوة التغير الاجتماعى العنيف، الذي يلحق الأذى بالعاديين من الناس. الرواية الثانية، ١٩٩٥، تدور أحداثها سنة ١٩٨٢، بعد عام واحد من اغتيال السادات في حادث المنصة، لكنه لا يغيب عن ذاكرة شخوصها ويحتل موقعا مهما في إطار سلبى.

تنعقد البطولة في «نقطة النور» لأسرة متوسطة غير سياسية، وهذا النفور من السياسة مشترك بين الجد الباشكاتب المتقاعد والابن التاجر الصغير والحفيد طالب الجامعة، لكن فراج مسعد، الذي يتقدم للزواج من فوزية حفيدة الباشكاتب، يقدم شهادة بالغة الأهمية عن مرحلة الانتقال والارتباك والتوتر التي يقودها السادات، ويمحو من خلالها ملامح العهد السابق.

فراج واحد من شباب الحقبة الناصرية، ولأنه لا ينتمى سياسيا إلى اتجاه بعينه، ولا يتقن قراءة مؤشرات العهد الجديد، فإنه يتعامل مع نظام السادات كأنه الامتداد للمرحلة الناصرية وشعاراتها. في إطار هذا الفهم الساذج، يبدو عظيم الثقة والتفاؤل وهو يتقدم خاطبا، لا يملك شيئا من المؤهلات المالية. المراهنة كلها على المستقبل وما يبشر به من وعود: «لأننا بعد أن انتصرنا في حرب أكتوبر بحمد الله ستلتفت الحكومة أكثر إلى الاقتصاد وستركز على الصناعة بالذات.. ولو فرجها ربنا بهذه البعثة إلى ألمانيا قريبا فسأتمكن من ادخار مبلغ للمهر والشبكة».

الانتصار في حرب أكتوبر يعنى عنده التفرغ للبناء الداخلي والتنمية الاقتصادية والصناعية بالمعايير الناصرية، ومثل هذا التوجه لابد أن يتم، وفق تربية فراج السياسية والمبادئ التي يتعلمها في العهد الاشتراكي، لخدمة بسطاء الناس الذين يشبهونه، ولزيادة الإنتاج وتحقيق الأحلام!.

لا يتحقق شيء مما يؤمله فراج وينتظره ويراهن عليه: «لم تأت بعثة ألمانيا الشرقية وازدهار الصناعة بعد الحرب».

لا يمكن القول إن فراج سياسى أو ناصرى، ذلك أنه «مواطن صالح» تقليدي، يعرف الالتزام الصارم ويردد الشعارات ويعمل بإخلاص لا يرحب به عصر السادات أو يقدره. من المنطقى أن يتعرض الشاب لأزمات مادية طاحنة لا قبل له بمواجهتها، ومن المبرر كذلك أن يكون التوجه الدينى هو الملاذ والاختيار البديل.

التحول إلى مظاهر التدين الشكلى، بإطلاق اللحية، نتيجة متوقعة للارتباك والاضطراب وتغيير المسار. يسعد بحجاب زوجه فوزية، كأنه كفيل بحل المشاكل المزمنة المتراكمة، وتتحول بوصلة التفكير في المستقبل من التصنيع وبعثة ألمانيا الشرقية، إلى المراهنة على العمل في المملكة العربية السعودية: «ستتحسن الأمور قريبا بإذن الله. أنا تقدمت لإعارة إلى السعودية وسيوفقني ربنا هذه المرة إن شاء الله».

فراج ليس شريرا أو مقصرا، وما تقوله فوزية عن «عبط» زوجها ليس دقيقا. إنه يجتهد قدر طاقته ويعمل ويشقى، ويصدق كل ما يُقال بنية طيبة مخلصة، ثم يطوله السقوط الذي يرتبط بمعطيات تتجاوز الأفراد.

خلال الفترة التي كان فراج فيها يمنى نفسه بالسفر في بعثة إلى ألمانيا الشرقية وبناء مستقبل مشرق، كانت الجامعة تشهد انقساما حادا بين مؤيدى السادات، أعضاء الجماعات الدينية المدعومة من النظام، ومعارضيه الذين يرفعون الشعارات اليسارية، ويوجهون النقد اللاذع للسياسة غير الشعبية. سالم، شقيق فوزية اللامبالي سياسيا، يرصد المشهد في حياد: «كانت هناك مجلات كثيرة داخل إطارات زجاجية تنشر كلاما مع الرئيس السادات ومجلات أخرى بعضها مثبتة إلى الحائط مباشرة بدبابيس وقد تمزقت أجزاء منها وتكتب كلاما ضد الرئيس».

لبنى شوكت، الفتاة الثرية ذات الوضعية الطبقية المتميزة، تتفاعل مع المتغيرات العاصفة التي يشهدها المجتمع المصري، وترصد الملامح الأهم في المجتمع والجامعة معا: «تجار التهريب وتجار العملة والغلاء البشع وبذاءة الأغنياء الجدد وفقدان الكرامة وغياب فكرة الوطن ونسيان تضحيات الحرب القريبة وظهور نساء في السياسة يستعرضن جمالهن وأزياءهن على شاشات التليفزيون ويتاجرن بظهورهن مع مشوهى الحرب على مقاعدهم المتحركة، وذلك في الوقت الذي ظهر فيه في الجامعات عشرات من الطلبة بجلابيب بيضاء ولحى يمزقون مجلات الحائط التي تكتب هذا الكلام ويضربون زملاءهم الذين يكتبونه بينما يحميهم حرس الجامعة حين يمزقون وحين يضربون. أحبت لبنى زملاءها الغاضبين الذين يحنون إلى أيام لم يكن فيها شئ من ذلك، ويحنون إلى الزعيم الذي أحبت صورته وصوته وهي طفلة».

مصر، في منتصف السبعينيات، على عتبات مرحلة جديدة مغايرة لكل ما كان سائدا مهيمنا في الحقبة الناصرية، وحرب أكتوبر هي المحطة الأخيرة التي تقترن بالقيم الوطنية الخالصة. طوفان من القبح والابتذال والفساد، وتحالف مريب خطير بين نظام السادات والاتجاهات الإسلامية المتطرفة.

المعارضون للسادات، من الجبهة العريضة لليسار، يرفضون مجمل سياساته ويحتجون على معاناة الفقراء جراء التحولات التي تغير الكثير من الثوابت الموروثة عن العهد الناصري. الثورة المضادة تتمثل في عديد من الممارسات والمفردات الرديئة التي تمثل تفريطا في القيم الوطنية وانقلابا شاملا وخيم

العواقب في خريطة البناء الاجتماعي، ولا تأييد لهذا التوجه إلا من التيار الديني الذي لا يحب السادات بقدر ما يكره عبدالناصر.

للوهلة الأولى، يبدو التحالف الذي يبرمه السادات اختيارا ذكيا من حيث النجاح السريع في تحجيم اليسار وضربه على الصعيدين المادي والمعنوى، لكنه الذكاء المحدود قصير النظر الذي يثبت فشله، ويطيح بالسادات نفسه فيما بعد.

لبنى شوكت واحدة من تيار المعارضة اليسارية للسادات، ما يعرضها للاعتقال مثل عدد كبير من زملائها، ويتدخل الأب بعلاقاته ونفوذه لتغادر المعتقل إلى ايطاليا، بعيدا عن الأجواء المحتقنة التي قد تعرضها للمزيد من الإجراءات القمعية. خلال إقامتها في العاصمة الإيطالية ضيفة في بيت عمتها، تكتشف لبنى أن الحقيقة الملموسة التي تعايشها تفوق ما يردده المعارضون وما يكتبونه عن الفساد والانهيار الشامل: «رأت في بيت زوج عمتها الدبلوماسي تجار الانفتاح الذين كانت تسمع عنهم. اعتاد أن يدعوهم للعشاء، وبعد أن يأكلوا ويشربوا عدة كؤوس من الويسكى يفلت عيارهم وتنطلق ألسنتهم. يتبادلون الخبرات عن كيفية تهريب الشحنات من الجمرك، وعن أماكن شراء البضائع «المضروبة» من إيطاليا وتمريرها على أنها بضائع صالحة، وعن أضمن الطرق لتهريب العملات، ومن الذي يجب أن يدفعوا له في البلد!. كانوا يتباهون أيهم (أشطر) من غيره ويتكلمون بصراحة تدهشها. لا يشعرون بخجل مما يقولون ولا يفهمون حتى مدى البذاءة والإجرام فيما يقولون.

ولكن ما أدهشها أكثر أن زوج عمتها الدبلوماسى المثقف يصبر على سماع أحاديث هؤلاء اللصوص الذين كانوا بلا استثناء حفنة من الجهلة، وأنه يضحك على نكاتهم الفجة ويتبادل المزاح معهم. في البدء اعتقدت أن هذا جزء من عمله. أنه ربما يجمع معلومات أو شيئا من هذا القبيل، ولكن لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أنه شريك، يتبادل المصالح معهم».

فساد أخطبوطى عابر لحدود الوطن، وقيم سلبية جديدة وافدة متراكمة، كفيلة بتخريب وتدمير كل شيء. النخبة المثقفة غارقة في المستنقع، واللغة السائدة قوامها كلمة واحدة بمشتقاتها المتشعبة: المصلحة. في سبيلها لا وجود للاعتبارات الوطنية والقيم الأخلاقية والمبادئ.

منظومة فساد كاملة يرعاها نظام السادات ويشجعها ويتيح لها فرصة النمو والازدهار المتوحش، وفي هذا المناخ يتحقق الاستقطاب الطبقي الحاد، وينقسم المجتمع إلى أغلبية تعانى وتعارض، وأقلية تصعد إلى قمة الثراء وتبارك التحول.

التيار الديني يؤيد السادات لأنه يفيد من توجهاته السياسية ويستعيد قوته، وتجار الانفتاح مع السادات لأنهم يعرفون دوره الحيوى في إنعاشهم اقتصاديا، وكل كارهى عبدالناصر يقفون في خندق السادات لأنه يشاركهم في العداء لسلفه.

الدكتور شوكت، الماركسى القديم، لا ينشغل بما تتعرض له ابنته لبنى من أذى في عهد السادات، لكنه لا ينسى، وهو النرجسى المتطرف، ثأره الشخصى من عبدالناصر الذي يعتقله لفترة قصيرة، ويقول لابنته كأنه يبرر موقفه: «من أدخل في عقولكم لعب العيال الذي تعملونه الآن؟ كنتم تريدون الحرب والحمد لله حاربنا وانتصرنا. البلد بالكاد تشم نفسها وأنتم تريدون أن ترجع إلى أيام الخراب».

خراب من؟. الإجابة لابد أن تكون طبقية!.

الراوى في «الحب فى المنفى»، صحفى ناصرى مأزوم، يعمل مراسلا لصحيفة مصرية في مدينة «ن» الأوروبية. بعد عبوره الخمسين، وبفضل تجاربه وخبراته المتراكمة، يمكن القول إنه يصلح شاهدا نموذجيا على الواقع المصرى عبر مراحل متتالية مختلفة: نهايات العصر الملكي قبل ثورة يوليو، صعود وازدهار وانكسار التجربة الناصرية، تحولات السادات وانقلابه الجذرى على جملة التوجهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لعبدالناصر.

مثل الملايين من فقراء وبسطاء المصريين الكادحين الشرفاء، يفيد الصحفى الناصري ذو الأصول المتواضعة من توجهات السياسة الناصرية الشعبية. صعوده في العمل الصحفى مردود إلى الكفاءة والتفانى من ناحية والإخلاص للنظام وتنظيمه السياسى الوحيد من ناحية أخرى. لا يعنى هذا أن الأمور مثالية نقية متطهرة لا تشوبها العكارات، لكن المعايير والقيم السائدة، في مجملها، تبدو أكثر عدلا عند المقارنة بما قبل يوليو، وبما بعد رحيل الزعيم. أحلام المساواة والتقدم والعدالة الاجتماعية تغفر الكثير من السلبيات والتجاوزات التي لا ينجو منها نظام سياسي، وانكسار الأحلام يقترن بانقلاب السادات وسياسته الجديدة.

لم تكن الإطاحة به من المؤسسة الصحفية ميسورة بعد سيطرة السادات ورجاله، فلا شئ يؤخذ عليه ويدينه ويستدعى العقاب الصارم، لكن «التجميد» فعل ممكن، يتحول معه من كان قريبا من مقعد رئيس التحرير إلى مستشار لا يستشيره أحد. ولأنه مخلص لمبادئه وأفكاره الناصرية، يرفض الانخراط في منظومة القطيع المتحول. يستثمر الفراغ لينهمك في تأليف كتاب عن عبدالناصر، يدافع فيه بالوثائق والأدلة والبراهين عن تجربة الرئيس الشعبى الذي يحبه ويتشبث بزمنه وأحلامه: «ولكن الكتاب صدر وصدرت معه الأوامر السرية إلى أكشاك الجرائد والمكتبات بإخفائه فلم يره أحد».

صراع الراوي مع السلطة الجديدة يخلو من التكافؤ والندية، ولا شئ يبقى من الكتاب الذي يولد ميتا إلا اللقب الساخر الذي يطلقه المتهكمون على المؤلف: «أرملة الفقيد»، وفي التوصيف تعبير مكثف عن حدود وطبيعة ومردود الجهد المبذول، وتجسيد مؤلم للعبث واللاجدوى!.

ينعكس سقوط العهد الناصري وسطوع عصر السادات سلبا على حياة الراوي العائلية ومسيرته المهنية، فتتوتر علاقته مع الزوجة منار وصولا إلى الطلاق، ولم يكن السفر إلى مدينة «ن» ليعمل، أو لا يعمل، إلا حلا مرضيا للأطراف جميعا: «لم أكن أعمل شيئا في الحقيقة. كنت مراسلا لصحيفة في القاهرة لا يهمها أن أراسلها، وربما يهمها بالذات ألا أراسلها».

ليست المسألة بالطبع خلافا شخصيا بين الراوي والسادات، فلا صلة تجمع بينهما على الصعيد الشخصى، لكنه صدام سياسي موضوعى مرده إلى ناصرية الصحفى التي تصطدم بقوة مع التوجهات والممارسات غير الناصرية للسادات، الذي لا يلتزم بالخط السياسي والاجتماعي لعبدالناصر. لم يكن الراوي مثل غيره من الصحفيين: «الذين تسابقوا على لعن سياسة عبدالناصر التى كانوا يسبحون بها لمجرد إرضاء السادات».

على الرغم من قسوة الراوى على نفسه وإسرافه العنيف المتطرف في جلد الذات، فإنه لا ينكر إيجابياته وفي الصدارة منها موقفه بالغ الوضوح من عبدالناصر والسادات: «لم لا تذكر أنك عندما وقع الانقلاب في الصحيفة رفضت أن تساير الركب؟.. لم لا تذكر ما قلته لمن جاء يوسوس لك: ابعث برقية تأييد للرئيس! .. الرئيس معجب بك ويعرف أنك صاحب قلم. اكتب افتتاحية ضد مراكز

القوى!. صرفته بأدب قائلا لن أرسل برقية ولن أكتب افتتاحية. كنت تعرف أنه سينقل ذلك وأردت أن ينقله».

السادات عنده يقود انقلابا، ولا شبهة تفكير في التأييد أو المهادنة. البحث عن المصلحة الشخصية ليس مطروحا، والعداء موضوعى سياسى خالص. من خلال هذا العداء المبرر، تتجلى رؤيته للتحولات والممارسات صانعة الاختلاف.

من تلك السياسات الساداتية ما يظهر بشكل عابر، في الحوار بين الراوى وزميله الماركسى إبراهيم المحلاوى: «نتحدث عمن صعد نجمهم على غير توقع وعمن أُبعدوا دون إنذار تطبيقا لسياسة السادات في الصدمات الكهربائية».

سياسة «الصدمات الكهربائية» هذه جديرة بالسخرية والتهكم، على الرغم من أن الحديث عنها يدور في إطار «مهنى» ضيق يتعلق بالصحافة ولا يتطرق إلى السياسة العامة.

ثمة ممارسات أخرى جديرة بالرفض والاعتراض، تلوح في سياق استدعاء الراوي لذكريات المعارضة «الكلامية» التي يمارسها المثقفون ضد السادات، ولا شئ فيها إلا التنفيس الذي يعبر عن الضعف وقلة الحيلة: «أرأيت!.. الانتفاضة! ١٨، ١٩ يناير.. الشعب يتحرك.. النهاية تقترب! أرأيت؟. الشاه والسادات في أسوان، تصور؟.. مصر تريد أن تدفن النفايات الذرية لأوربا في الصحراء! تصور! كلمات وكلمات نقولها ونحن نتحسس ربطات العنق الغالية ونتلفت حولنا وكأن الجواسيس يسجلون كل كلمة نقولها. وكأن كل كلمة ستهد الحكم!».

الثرثرة المجانية الفارغة لا تسقط نظاما قويا، لكن الثرثرة نفسها تقدم العناوين العريضة لمجالات الاختلاف السياسي ودوافع المعارضة عند قطاع كبير من الكارهين للسادات والساخطين عليه.

ليس الراوي وحده من يعارض السادات ويرفض توجهاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية. فالطالب الجامعى يوسف، الهارب من مصر بعد حكم قضائي بالسجن، في الرواية نفسها، من معارضى السادات أيضا.

ينتمى يوسف إلى جيل لاحق للراوى، ويتعلق مثله ببقايا الحلم الناصرى الذي يجهضه السادات: «كنت في السنة الثالثة بكلية الإعلام وكان محكوما علىَّ بالسجن ستة أشهر، لأننى اشتركت في مظاهرة هتفت ضد السادات واشتبكت مع حرس الجامعة. هربت إلى ليبيا بعد صدور الحكم ومن ليبيا جئت إلى هنا».

الشاب الوطنى المعارض للسادات، والهارب من تنفيذ حكم بالسجن جراء النشاط المناهض لنظامه، يعقد مقارنة مهمة بين عبدالناصر والسادات، ينتصر فيها لعبدالناصر ومشروعه الشعبى الذي ينحاز إلى الأغلبية الفقيرة: «كنت أقارن بين حال الإنسان البسيط مثل أبى أيام عبدالناصر وما أصبح عليه في عهد الانفتاح».

معارضة الصحفى الراوي تنتهى به إلى المنفى، المريح ماديا والمرهق نفسيا، والمعارضة نفسها تقود الطالب الجامعى الصغير إلى منفى يتعذب فيه وتتعرض مبادؤه وثوابته لامتحان عصيب يفضى به إلى الضياع: «تظاهرت ضد السادات وحُكم علىَّ بالسجن وهربت من بلدى ومن أهلى لأنى كنت أعتقد أنه يفرط في مستقبل البلد وضاع مستقبلى أنا الفقير في المبادئ، بينما الكبار والأغنياء.. أهلا يا مبادئ!».

ناصريان من جيلين مختلفين، يعارضان السادات في المنفى ولا يفعلان شيئا إيجابيا ذا نتائج ملموسة. ينتهيان إلى أزمة عاصفة، تصل بالراوي إلى المرض الخطير، عضويا ونفسيا، وتقود يوسف إلى الارتماء في أحضان أمير خليجي فاحش الثراء، ذي علاقات مريبة معقدة مع قوى مناهضة لأحلام الشاب وأفكاره الناصرية.

إذا كان السادات لا يجد من يدافع عنه في الرواية، فإن الماركسى إبراهيم المحلاوي لا يبرئ عبدالناصر من «مسئولية» صعوده إلى قمة السلطة، فقد تم اختياره بمعرفة الزعيم الراحل: «ثم من الذي أتى بالسادات؟».

من ناحية أخرى، يضطر الراوي نفسه إلى ترديد ما يشبه الدفاع عن السادات، فإذ يقول له مستشار صحفى بإحدى السفارات العربية، ساخرا من حرصه على المشاركة في المظاهرة المؤيدة للشعب الفلسطيني بعد مذبحة صبرا وشاتيلا:

«-ولكن لماذا تهتم مصر بهذه المظاهرة؟.. ألم توقع على كامب ديفيد؟

يرد الراوى على الفور:

« - نعم، ولكن ماذا فعل من لم يوقعوا على كامب ديفيد».

دفاع اضطراري أقرب إلى رد الفعل المبرر، ولا يمكن القول إنه تأييد صريح لسياسة السادات مع إسرائيل، لكنه يعكس الشعور بالضيق تجاه من يحرصون على الدمج بين مصر والسادات، فضلا على أنهم لا يقدمون بديلا!.

ما أخطر وأعمق التحولات التي تعرفها مصر في عصر السادات، وتنعكس سلبا على هويتها ومنظومة القيم التي تحكم المصريين وتوجه سلوكهم.

منار، طليقة الراوى وأم ابنيه خالد وهنادي، تنهض نموذجا دالا. صحفية نشيطة جادة، تبدأ حياتها المهنية من دعاة تحرير المرأة والمدافعات عن حقوقها الكاملة غير المنقوصة، لكنها تنتهي محجبة إسلامية الخطاب.

لا يتيح بناء الرواية فرصة الظهور الكثيف لمنار، وتقديم رؤاها ووجهات نظرها. كل ما يُقال عنها ويُنسب إليها يتم بمعرفة الزوج السابق الذي يتحامل عليها أحيانا، ويعود في أحيان أخرى إلى دائرة الاعتدال والتقييم الموضوعى المتوازن.

كل ما يُقال عنها لا يمكن فهمه واستيعابه بمعزل عن التحولات الجذرية العميقة التي يقودها السادات، ويبرر انتقالها المباغت الصادم من معكسر الدفاع عن المرأة وحقوقها إلى الخندق المقابل، حيث الشعارات الدينية والحجاب والتمسك بالأفكار والرؤى التقليدية التي كانت تعاديها وتحاربها.

يتصفح الراوى عدد الخميس من الصحيفة، حيث صفحة المرأة الأسبوعية التي تحررها منار، فيتوهم غيابها، ثم يكتشف أن الأمر ليس على هذا النحو. هي من تكتب مقالا عنوانه: «بين الشريعة والتاريخ»، والصورة المرفقة تظهر فيها بالحجاب. الأسلوب مختلف باهت، والمضمون يتوافق مع الانقلاب الشامل الذي يتحول معه مسار مصر إلى النقيض تماما مما كانت عليه: «الشريعة صانت للمرأة حقوقها المادية والأدبية ولكن الرجال على مر التاريخ راحوا ينتقصون من هذه الحقوق. وكان المقال مليئا بالشواهد والاقتباسات من المراجع الدينية ولم أجد أسلوب منار التقليدي. خفت حدة هجومها على الرجال الذين كانت تدخر لهم في مقالاتها كلمات كطلقات الرصاص أبسطها الجبروت التاريخي للرجل، وفقهاء الجهل والكذب والذين يكسرون أعناق النصوص... الخ. هذه المرة كانت أقوى عبارة في مقالها أن الرجال لو فهموا الشريعة كما ينبغى لتحققت المساواة منذ

زمن بعيد لأن النساء لهن في الشريعة حقوق مساوية لواجباتهن، وإذا كانت للرجال حقوق إضافية فلأن عليهم واجبات إضافية».

قبل أسبوع واحد كان الخطاب مختلفا، وقبل سنوات طوال كان موقف منار ثوريا مغايرا لما تنتهي إليه بعد الوصول إلى محطة التدين الشكلى والحجاب. الطوفان عارم تصعب النجاة منه، والابن خالد يسبقها إلى «الهداية» والتشبث بكل ما هو شكلى هامشى في الدين. يحرِّم الشطرنج ومشاهدة التليفزيون والذهاب إلى النادي، الذي يحفل بالاختلاط والرذائل والموبقات.

لا شيء يؤخذ على منار وابنها في التدين المعتدل الذي يمثل سمة راسخة عند الغالبية العظمى من المصريين، لكن التشدد والتمسك بالقشور الشكلية هو الجديد الطارئ منذ منتصف السبعينيات، توافقا مع توجه السادات للتحالف الانتهازى مع الجماعات الدينية في الداخل من ناحية واقترابه المتزايد من الدول الخليجية ذات الثقافة المحافظة من ناحية أخرى.

فراج مسعد في «نقطة النور»، ومنار وخالد في «الحب في المنفى»، يجدون في التدين الشكلى، الذي يروج له السادات، ملاذا آمنا من الأزمات التي تحاصرهم وتطيح بتوازنهم، والوجه الآخر من اللوحة يتمثل في غيلان الانفتاح الاقتصادي، الذين تمتد جذورهم إلى المرحلة الناصرية، ومنهم الحلاق تاجر العملة مدبولي في «شرق النخيل». يرى في الحرب التي يطالب بها الطلاب المتظاهرون خرابا للبلد، وفي شخصيته تعبير عن طليعة طبقة اجتماعية شرسة تتهيأ للصعود السريع والهيمنة برعاية ومباركة نظام السادات.

تكشف العاهرة سوزي عن بعض المخبوء من تاريخه القريب: «سعادته حلاق حريمي درجة ثانية كان يأخذ مني ومن غيري الدنانير الكويتية والريالات السعودية بسعر التراب ويبيعها للناس في موسم الحج بضعف ثمنها. الآن كبر. أصبح مدبولي باشا. يترك الصالون لصبيانه ويشتغل هو في العملات».

مندوب طبقة طفيلية جديدة صاروخية الصعود، تصل إلى الثراء غير المشروع بشتى الوسائل والأساليب، وتتعدد أنشطتها المريبة التي تعتمد على شبكة معقدة من العلاقات النفعية، تبدأ من صالون الحلاقة المتواضع، وصولا إلى أجهزة الأمن، مرورا بالعاهرات!.

الفصل الخامس
صنع الله إبراهيم

بعد اغتيال السادات، يشن الدكتور يوسف إدريس هجوما ضاريا على الرئيس الراحل، وينقل صنع الله إبراهيم في «ذات» مقتبسا دالا مما يكتبه إدريس:

«يوسف إدريس: هل كان أنور السادات حسن النية في داخله، غبيا، أو حتى متخلفا عقليا أمام خصوم في غاية الذكاء؟ أم هو لم يكن غبيا وإنما كان يعرف حقيقة الدور الذي يقوم به وكان واعيا تماما بما يُراد للأمة العربية على يديه؟ هل كان وعي السادات لدوره هذا وقبوله القيام به بل وحماسه الغريب في تنفيذ المهمة لأسباب مبدئية؟ أي أنه كان يحب إسرائيل وأمريكا ويكره العرب ويكره الشعب المصري؟ أم أن إيمانا لم يكن هناك بالمرة وأن السادات قام بدوره تماما وهو مدرك لقذارة ذلك الدور، ولكن قوة عاتية مركبة هي التي ساقته طائعا مختارا ليفعل ما فعل. وربما جشع ذاتي مريض كان كامنا وموجودا، بل ومعروفا، بالذات لعبدالناصر؟».

لا تظهر شجاعة إدريس النقدية إلا بعد غياب السادات عن الساحة، وللكاتب الكبير آراء أخرى مغايرة ومواقف مضادة، يكتبها ويعلنها ويفيد منها في الحقبة الساداتية، ولعل في هذا التناقض اللافت ما يشجع كاتبا صحفيا من مؤيدي السادات على الرد «العملي»، لاجئا إلى منهج لا يحتاج براعة ومجهودا شاقا:

«موسى صبرى، رئيس تحرير جريدة الأخبار، ينشر نماذج من مقالات قديمة ليوسف إدريس عن بطولة السادات، وصفه فيها برب العائلة الأكبر».

الدفاع عن يوسف إدريس وتبرير مواقفه وآرائه المذبذبة ليس ممكنا، والموافقة على أسلوب موسى صبرى ليس واردا، ذلك أنه لا يناقش مقولات واتهامات إدريس الجديدة الخطيرة، بقدر ما يسعى إلى تفنيدها من خلال الاستعانة بالأرشيف القديم، كأنه يتخذ من إدريس القديم حجة لمواجهة تحولاته الجديدة!.

الجدير بالاهتمام هنا هو البحث في كلمات يوسف إدريس، القاسية المتطرفة، عن مجموعة من المرتكزات التي تعين في التعرف على الموقع الذي يحتله السادات في العالم الروائي لصنع الله إبراهيم، ويمكن تحديد أهم هذه المرتكزات في:

- كراهية السادات الأصيلة العميقة للرئيس جمال عبدالناصر وتوجهاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهو ما يتيح عقد مقارنة بين الزعيمين والعهدين.
- إعجاب السادات غير المحدود بالولايات المتحدة الأمريكية، وحرصه المحموم غير المحسوب على التقارب مع إسرائيل، وهذه السمة البارزة تعني بالضرورة اتخاذ موقف سلبي تجاه الاتحاد السوفيتي من ناحية وضد الفكرة العربية من ناحية أخرى.
- ما يقوله يوسف إدريس عن كراهية السادات للشعب المصري هو من قبيل الأفكار والشطحات الغرائبية البعيدة عن المعقولية والمنطق المتماسك، لكن السياسة التي يتبعها السادات تلحق أضرارا فادحة بقطاعات شعبية عريضة في المجتمع المصري، وأخطر ما في هذه السياسة يتمثل في محورين متداخلين متشابكين يصعب الفصل بينهما: التشجيع الموضوعي للفساد والفاسدين عبر مجموعة من القرارات الاقتصادية التي تنتصر للأغنياء وتعادي الفقراء وتمثل تهديدا حقيقيا لاستقرار المجتمع المصري، المتاجرة الرخيصة بالمشاعر والشعارات الدينية ما يؤدي إلى إذكاء روح التعصب والفتنة الطائفية.

في رواية «وردة»، يعرف العالم خبر رحيل الرئيس جمال عبدالناصر بصوت السادات.

على النقيض مما يعلنه السادات، عند صعوده إلى قمة السلطة، عن السير على طريق عبدالناصر والاحتذاء بنهجه والاقتداء بسياسته، فإن كل ممارسات الرئيس الجديد تنم عن العداء الأصيل العنيف لسلفه، وتكشف عن الرغبة الكامنة في إزالة علامات عهده وتغيير المسار الذي يسيطر على مصر الناصرية.

لم يكن السادات صريحا مباشرا في عدائه، فهو يتشدق بالشعارات العاطفية الكاذبة عن الوفاء لعبدالناصر، ويسعى في الوقت نفسه إلى تقليص مظاهر الناصرية بشتى السبل. في تجربة «ذات» مع صور الرئيسين، في المؤسسة الصحفية

التي تعمل بها، ما يكشف عن أسلوب السادات المراوغ، الذي يسهل اكتشافه، ويتم التعامل الشعبي معه في إطار التهكم لاذع السخرية: «فعندما مات جمال عبدالناصر وأصبح السادات رئيسا للجمهورية، أراد البيروقراطيون أن يضعوا صورة الأخير مكان صورة سلفه على جدران المكاتب الحكومية والمؤسسات المختلفة، لكن السادات رفض ذلك الإجراء، مقدما لمواطنيه درسا قيما في الوفاء. فقد رُوى عنه قوله، إن الأفضل من رفع صورة عبدالناصر تركها حتى تقع من تلقاء نفسها. هكذا استقر الوجه المتبتل ذو الزبيبة إلى جوار سلفه الباسم ذي الفودين الأشيبين حتى تحققت نبوءة السادات وأخذت صور عبدالناصر تتساقط من تلقاء نفسها».

يتحول «وفاء» السادات لذكرى عبدالناصر إلى مادة للفكاهة وصناعة النكات موجعة الصدق، وكل ما يفعله السادات ينم عن رفضه الجذري لسياسة سلفه، والرغبة الملحة في التجاوز والتفرد واتباع نهج بديل مضاد.

يدير السادات معركته فوق نار هادئة بلا ضجيج، وكان صدامه الأول مع «رجال» عبدالناصر المقربين في «حركة» مايو التصحيحية، وهي الحركة التي تتحول سريعا إلى «ثورة» يتكرر الاحتفال بها سنويا، مع الإشادة الإنشائية بإنجازاتها الديمقراطية!.

في الثالث عشر من مايو ١٩٧١، تكتب وردة في الرواية التي تحمل اسمها: «السادات يقوم بما أسماه حركة تصحيح ضد رجال عبدالناصر».

ينجح السادات في إقصاء أتباع عبدالناصر، ثم يجهز عليهم بمحاكمة هزلية سريعة قاسية الأحكام، تتكفل بإبعادهم النهائي عن ساحة العمل السياسي، ويترتب على ذلك انفراده بالسلطة المطلقة دون شريك. تعود وردة، في يوميات السادس والعشرين من يونيه، لتكتب: «قرر السادات تشكيل محكمة ثورة خاصة لمحاكمة مائة من رجال عبدالناصر على رأسهم على صبرى، شعراوي جمعة، سامى شرف، محمد فائق، ضياء الدين داود».

تتابع وردة الأحداث من الخارج، وترصد انقلاب السادات على رجال عبدالناصر ومحاكمته لأهم رموز وقيادات المرحلة الناصرية، وفي الداخل، تشتد حملة السادات الهادئة الواثقة لإحكام قبضته والتخلص من كل آثار العهد الناصري.

أمينوفيس فلتس قلتة، في رواية «ذات»، مواطن مسيحي مسالم لا علاقة له بالسياسة، وهو عضو في الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي لأنه لا يملك إلا أن يكون عضوا. بعد «ثورة» السادات في مايو، تطوله يد التصحيح وتهدد مكانته الوظيفية التي يعتز بها. لا يفلت من الحملة الشرسة إلا بمعجزة تتمثل في سلبيته الكاملة: «استدعاه رئيس مجلس الإدارة في أعقاب الانقلاب الذي قام به السادات ضد أعوان عبدالناصر، وقال له وهو يتفحصه بإمعان: أوشى بك أحدهم يا أمينوفيس».

يتخلص السادات من كبار رجال عبدالناصر وأهم معاونيه، ثم يتحول إلى الصغار والبسطاء ليرهبهم ويدفعهم إلى المزيد من الانطوائية والتقوقع والسلبية والانصراف عن الهم العام.

لا تنجو الأغاني الوطنية الناصرية من الانتقام والقهر، وتتعرض أغنيات عبدالحليم حافظ للمنع والحجب، ولا يتم الإفراج عنها والسماح بتداولها إلا بعد اغتيال السادات: «بعد أن كانت ممنوعة في عهده».

الاختلاف الجذري بين عبدالناصر والسادات يغرى بالمقارنة بينهما، لكن السؤال الجدير بالاهتمام: من الذي يقارن، وما المقاييس التي يستخدمها في إجراء المقارنة واستخلاص الأحكام والانتصار لأحدهما على حساب الآخر؟!.

في الاستعراض الذي يعده ويقدمه الدكتور رمزي نصيف داخل السجن، في «شرف»، تظهر عروسة صفراء تمثل شخصية الملياردير المصرى المعروف عثمان أحمد عثمان، أحد كبار المقربين من السادات. تعقد العروسة مقارنة إنشائية هزيلة، ترتفع فيها رايات المصلحة الشخصية المباشرة:

«ما زلت مقتنعا بأن الجنون والحقد،
أعمياه عن كل شيء عدا ذاته،
بعكس السادات الذي كان زعيما من نوع آخر،
اضناه البحث عن الذات،
ويعرف ربه في الخفاء أكثر مما في العلن.
رأيته يجلس على الأرض كعادة الفلاحين،
يأكل هو وأفراد أسرته من طبق واحد فوق الطبلية،
(صحيح أنهم كانوا يجلسون فوق موكيت بلجيكي فاخر،

وأن الأمر كله كان للتصوير،

وأن المدام رفضت الاشتراك في هذا التهريج،

إلا أن الموقف يكشف لكم حقيقة ميوله وتوجهاته)...».

عبدالناصر مدان لأنه ينحاز إلى الأغلبية الشعبية الفقيرة ويجتهد في خدمة مصالحها، وهو «متهم» بالجنون والحقد وكراهية الأغنياء والتصدى لجشعهم الذي لا يعرف الرحمة. أما السادات، صاحب الأفضال العديدة على عثمان قبل أن يكون رئيسا للجمهورية، فهو زعيم محبوب «مختلف» عن سابقه: يبحث عن ذاته في خطاب يتوجه به إلى الغرب في المقام الأول، ويرفع الشعارات الدينية الحماسية في تعامله مع الداخل، ويعيش حياة شخصية باذخة الترف، ولا يخفى ولعه بأضواء الإعلام وهالات الدعاية.

يتعصب عثمان للسادات وينتصر له، لكنه يكشف أيضا عن جوهر ميوله الاستعراضية وتوجهاته غير الشعبية.

ليس صحيحا أن الأغنياء والحالمين بالثراء يفيدون جميعا من سياسة السادات الاقتصادية والاجتماعية، ذلك أن الطفيليين وحدهم هم الذين يصعدون ويرتفعون وينالون النصيب الأوفر، وفي رحلة صعودهم السريعة هذه يدوسون الأغلبية الفقيرة وقطاعا عريضا من الطامعين إلى الثروة بوسائل مشروعة وأدوات شريفة جادة محدودة التأثير.

عبدالمجيد، في «ذات»، موظف بنكى صغير، وأحلامه الطموحة تتعرض للإجهاض في عهد السادات: «فالحلم الرأسمالى الذي كان يبدو قريب المنال في ظل اشتراكية عبدالناصر، صار للعجب مستحيلا في عهد رأسمالية السادات»!.

قد يزول العجب وتتبخر الدهشة عند التأمل في طبيعة الرأسمالية التي يتبناها السادات ويبشر بها، فهي رأسمالية ترادف السرقة والتحايل على القوانين والبراعة في التهريب والإثراء غير المشروع والنهب المنظم، ولا متسع في هذه الرأسمالية المنفلتة لصغار الحالمين من أمثال عبدالمجيد وزوجه «ذات».

«ذات» امرأة من سواد الشعب وأغلبيته العادية التقليدية، تكابد وتعانى وتحلم وتتمزق بين زمنين ورئيسين، وفي أحلامها ما يقدم شهادة بالغة الأهمية عن الاختلافات والفوارق الشاسعة بين عبدالناصر والسادات.

يزورها جمال عبدالناصر في أحلام «عدوانية» تلح على المطالبة بالتغيير الكاريكاتوري الساخر: «المطبخ.. الحمام»، ومثل هذا التغيير الشكلي الكاذب المخادع هو ما يدعو إليه السادات ويجعل منه هدفا أسمى، يصيب العاجزين عن الوصول إليه بالتشيؤ والانهيار النفسي والسقوط في دائرة الشعور بالحرمان والكبت: «تسمرت عيناها على جدران المطبخ، ولاح لها شبح جمال عبدالناصر، منهمكا في تكسيرها، وخلفه عكف أنور السادات في عناية شديدة، على تثبيت قطع السيراميك الملون الفاخر».

أليس ممكنا أن يُختصر عهد السادات كله في كلمات بسيطة دالة مثل: السيراميك الملون الفاخر؟!.

فلسفة الانفتاح الساداتي تتمثل في الترويج لوهم التغيير الاستهلاكي العبثي المدمر، وفلسفة عبدالناصر بمثابة النقيض الكامل لمثل هذا التوجه الانفتاحي. بينهما تتمزق ذات، وعندما تنتصر قيم السادات المشوهة التافهة السطحية، يختفى عبدالناصر من أحلامها: «توقف جمال عبدالناصر عن المجئ حاملا معول الهدم، لكن أنور السادات واصل زياراته الليلية وفي يمينه قطع السيراميك المعهودة».

واحد من المتفرجين المشاركين في استعراض الدكتور رمزي، الذي تقدمه «شرف»، يشير في إيجاز عميق إلى أهم حلقات التآمر التي تحيط بالتجربة الناصرية وتطيح بها:

«فبعد أن أغرقنا السعوديون في مستنقع اليمن،

استدرجنا الإسرائيليون إلى فخ ٦٧،

وتولى أنور وصحبه الباقي».

يتولى «أنور» مهمة تصفية الحلم الناصري الذي تضعفه الأعاصير والعواصف، ويتكفل بإقامة نظام بديل تتراجع فيه هيبة مصر ويضعف تأثيرها في المحيط العربي الذي كانت تتزعمه.

عندما تشتعل الأزمة اللبنانية وتختلط الأوراق ويقنع السادات بالفرجة اللامبالية، يبدو صحيحا ومؤلما ما تنشره إحدى الصحف، في «بيروت بيروت»، نقلا عن وكالة نوفوستى للأنباء، في ذكرى رحيل عبدالناصر: «غيابه ملموس بقوة».

غيابه الملموس يضفى عليه حضورا متوهجا، ووجود السادات الباهت يجعله غائبا تائها، ومن ثنائية الغياب المتوهج والحضور المنطفئ تتشكل النتيجة النهائية للمقارنة بين عبدالناصر/ الغائب الحاضر، والسادات/ الحاضر الغائب!.

في حديث مع صحيفة «جيروز اليم بوست»، المشار إليه في الرواية السابقة، يعلن السادات أنه بصدد إعداد وإعلان قرار سياسي مهم، ويعلق الراوي ساخرا: «لم يبق إلا الانضمام إلى حلف الأطلنطي أو عقد اتفاقية دفاع مشترك مع إسرائيل».

يقدم السادات للولايات المتحدة والمعسكر الرأسمالي وإسرائيل كل ما يمكن تقديمه، ولم يبق إلا ما يفوق كل خيال ومنطق: الانضمام إلى حلف الأطلنطي، توقيع اتفاقية دفاع مشترك مع إسرائيل!.

يتعاون السادات بإدراك كامل ووعي يقظ وإيمان مستقر بحتمية وجود واستمرار العلاقات الاستراتيجية مع أصدقائه الأمريكيين والأوروبيين والإسرائيليين، وفي الرواية نفسها فيلم تسجيلي عن أحداث الحرب الأهلية اللبنانية، وثمة إشارة صريحة مباشرة تتهم السادات بإقامة علاقات مريبة قديمة مع المخابرات المركزية الأمريكية، إبان شغله لمنصب نائب الرئيس، ومصدر الاتهام الخطير مقال تنشره صحيفة «واشنطون بوست» للصحفي الأمريكي جيم هوجلان: «وبينما كان جمال عبدالناصر يحاول إسقاط النظام السعودي المحافظ في الستينات، استطاع كمال أدهم، مدير المخابرات السعودية، وضابط الاتصال بينها وبين المخابرات الأمريكية، أن يجند بحرص السيد السادات، الذي كان نائبا لرئيس مصر في ذلك الوقت. وفي إحدى المراحل، كان السيد أدهم يزود السادات بدخل شخصى ثابت، وفقا لما قاله مصدر مطلع رفض الإدلاء بتفصيلات».

ولاء السادات للولايات المتحدة سابق لمنصبه الرئاسي، والعلاقات المريبة مع المخابرات السعودية وكمال أدهم تثير الشكوك وتطرح عديدا من علامات الاستفهام حول «تاريخ» السادات القريب عندما كان نائبا للرئيس. لم يكن كمال أدهم وحده من يزود السادات بإيراد ثابت، فالعروسة التي تمثل شخصية هنرى كيسنجر في استعراض الدكتور رمزي نصيف، في «شرف»، تشير إلى مصدر آخر:

«وبخبرة تجارية عريقة منذ كان نائبا لرئيس الجمهورية،

عندما كان يتولى إدارة مصالح أمير الكويت».

ليست المسألة هنا في صحة ودقة ما يُنسب إلى السادات من وقائع، فالجدير بالاهتمام هو ما تشير إليه هذه الاتهامات من دلالة خطيرة عن حقيقة رؤية الرجل وانحيازه المطلق للولايات المتحدة الأمريكية ورموزها المحلية. السادات هو من يستقبل الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون استقبال الفاتحين، قبل أن تجف دماء شهداء حرب أكتوبر الذين يُقتلون بالسلاح الأمريكي، وفي توقيت يتعرض فيه نيكسون لحصار عالمي عارم يرفض سلوكه الشخصى وسياساته معا: «بعد أن رفضه العالم كله بما في ذلك الشعب الأمريكي نفسه».

في استعراض الدكتور رمزي، يتحدث روكفلر عن السادات ويلقى مزيدا من الضوء على شخصيته ومنهجه في التفكير:

«ترددت على مصر بعد تولية السادات ١٣ مرة.

رجل دمه خفيف،

يشاركنى حب الفخفخة وكراهية الشيوعية.

وقال لي بالحرف إن مصر وضعت نفسها مع المفلسين،

وآن لها أن تكون مع الأغنياء».

أي «مصر» تلك التي يتوق السادات أن تكون مع الأغنياء، ومن من المصريين ينعمون بالثروة التي يراهن عليها السادات؟!. الاختيار طبقي سياسي، والشروط يعرفها السادات جيدا ويوافق عليها ويتحمس لها ويبادر بطرحها كما يقول كيسنجر في الاستعراض نفسه:

«فقبل أن يجلس في حجر كارتر،

كان قد عرف حجر العبد لله.

تنازل عن شروطه في التسوية الشاملة،

وانسحاب إسرائيل إلى خطوط ما قبل سبعة وستين.

وفي أسوان، التزم أمامى بإمداد إسرائيل بالبترول، وإبرام الصلح معها، وإخراج السوفيت من معادلة الشرق الأوسط،

والأهم إلغاء سيطرة الدولة على التجارة الخارجية،

والسماح للمصريين بتكوين وكالات تجارية».

علاقة التبعية مشروطة: السلام مع إسرائيل، إزاحة الاتحاد السوفيتي من خريطة الصراع، الانفتاح الرأسمالي وفق معايير السوق.

لم يكن السادات غافلا أو مخدوعا، فالشروط المطلوبة توافق هواه، ويرى أنها الأفضل للخروج من سجن «الفقر» الموروث عن العهد الناصري!. أكثر ما ينشغل به السادات، الكاره الأصيل للشيوعية، حياة الترف على المستوى الشخصى، والتخلص من الناصرية وتبعاتها على المستوى الموضوعي.

أمريكا هدف للسادات، وهو هدف لها. العلاقة بينهما عند الرئيس «الاستراتيجي» لا تقبل الانفصام، ويتجسد ذلك بوضوح في «بيروت بيروت»: «ظهرت صورة السادات على الشاشة بمناسبة حديث أدلى به إلى مجلة «دير شبيجل» الألمانية، وأعلن فيه أن العلاقة المصرية الأمريكية هي علاقات استراتيجية، وأن بلاده مستعدة لتقديم التسهيلات للولايات المتحدة والدول الغربية من أجل الدفاع عن مصالح هذه الدول في الخليج».

ترحيب حار غير مشروط بالتنسيق والعمل في خدمة السادة والدفاع عن مصالحهم في المنطقة العربية. الصراع مع إسرائيل، الموروث عن عبدالناصر وما قبل عبدالناصر، يمثل عقبة حقيقية لابد من اقتحامها وتجاوزها. من هنا تأتي مبادرة السلام وزيارة القدس وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد والتطبيع مع إسرائيل لترتفع أعلامها في قلب القاهرة.

قبل شهور قليلة من المبادرة، تجئ حكومة مناحم بيجين اليمينية المتطرفة، ويتطوع الإسرائيليون بإبلاغ السادات عن مؤامرة ليبية ضده. بعدها تتوالى اللقاءات السرية، وتُتوج بالمبادرة التاريخية في التاسع عشر من نوفمبر ١٩٧٧: «بأول زيارة من نوعها لرئيس عربي، وتحت شعار السلام الدائم بأي ثمن، وفي ظل الهيمنة الأمريكية، اعترف السادات بحق اليهود التاريخي في فلسطين، وفي المدينة المقدسة، فضلا عن حق المستوطنين الصهاينة في الوجود.

الكنيست الإسرائيلي. السادات يخطب معلنا: لن تكون هناك حروب أخرى بين مصر وإسرائيل».

السلام باي ثمن، والترحيب الكامل غير المشروط بالهيمنة الأمريكية، والاعتراف بحق اليهود التاريخي في فلسطين، والإقرار بشرعية المستوطنات واستمرار المستوطنين، والإعلان عن نهاية الحروب، مجموعة هائلة من التنازلات «المجانية» التي لا تلزم إسرائيل بشئ، ذلك أنهم لا يخفون التمسك برؤيتهم للسلام مع مصر

الساداتية من منطلق أنه لا يتعارض، ولا ينبغي أن يتعارض، مع أفكارهم الراسخة وسياستهم التوسعية العنصرية.

قبل أيام من زيارة السادات «التاريخية» للقدس، يقوم سرب من طائرات «الكفير» الإسرائيلية بهجوم وحشي على قرية لبنانية. واللافت للنظر أن قائد السرب الهجومي: «هو من تولى مرافقة السادات في سماء القدس»!.

الرسالة الرمزية واضحة، والسادات لا يقل وضوحا في استقبالها وقبولها. في تصريح صحفى على الهواء، يوم عيد الميلاد لعام ١٩٧٧، يعاود السادات تأكيد ما يطرحه من قبل: «اتفقنا على أن حرب أكتوبر سوف تكون آخر الحروب بين مصر وإسرائيل».

تبدو في الصورة، خلف السادات مباشرة، العصابة السوداء لعين موشيه دايان».

أعداء الأمس القريب هم أصدقاء اليوم والمستقبل، والسلام النهائي خيار استراتيجي لا تؤثر فيه «تجاوزات» إسرائيل وإصرارها على التمسك بالسياسة العدوانية وأحلام التوسع.

الموافقون على سلام السادات والعاملون معه، ومنهم وزير الخارجية محمد إبراهيم كامل، لا يملكون إلا إظهار الدهشة من سلوك السادات الغرائبي في التعامل مع إسرائيل والانحياز لها!.

في منتصف مارس ١٩٧٨، تقوم إسرائيل بعملية عسكرية انتقامية في الجنوب اللبناني، وترسل إلى الحكومة المصرية آملة في عدم تأثير الحملة على المفاوضات الثنائية!. ينقل الفيلم التسجيلي الذي تقدمه الرواية، فقرة مهمة من مذكرات وزير الخارجية المصري:

«دائرة قلمية حول فقرة من مذكرات محمد إبراهيم كامل، وزير الخارجية المصري: في صباح اليوم التالي للغزو الإسرائيلي.. اتصلت تليفونيا بالرئيس السادات في استراحة القناطر الخيرية لأعرض عليه البيان الذي أعددته.. حول العدوان.. إلا أنى لم أتمكن من محادثته لأنه كان لا يزال نائما وعاودت الاتصال به بعد ذلك عدة مرات في فترات متباعدة دون جدوى.. فبادرت بإصدار البيان دون انتظار رأي السادات فيه إذ كان الموقف محرجا بالنسبة لمصر خاصة أمام العالم العربي ...

وفي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، اتصل بي السادات تليفونيا في الوزارة وسألني في صوت ملؤه تثاؤب عن السبب الذي طلبته تليفونيا من أجله عدة مرات في الصباح، فأجبته بأن الأمر يتعلق بالهجوم الإسرائيلي على لبنان.

فقال السادات ضاحكا: هل أعطوهم العلقة ولا لسه؟. ولم يخطر ببالي ما يقصده، فقلت متسائلا: أفندم؟ فقال: يعني أدبوهم ولا لسه؟. وفهمت أخيرا أنه يقصد إن كان تم للإسرائيليين تلقين الفلسطينيين درسا ...".

محمد إبراهيم كامل ليس من أعداء السادات، فهو صديقه القديم ووزير خارجيته، لكن الواقعة التي يرويها تكشف عن المدى الذي يصل إليه الرئيس المصري في التعامل مع الممارسات الإسرائيلية المنفلتة التي تهدد سمعة مصر وتزلزل مكانتها في المحيط العربي. لا شيء يعطل المفاوضات مع إسرائيل، والرسالة التي تصله تحظى بالموافقة والرضا، ولا تمنع نومه الهانئ إلى ما بعد الظهر. المفاجأة المثيرة للدهشة أن السادات يثق بلا حدود في قدرة إسرائيل على "تأديب" المقاومة، ويتوق إلى متابعة نتيجة "الدرس" الذي تقوم به القوات الإسرائيلية!.

أي نمط من السلام يتطلع إليه السادات ويراود تحقيقه؟. إنه يندفع في سلام غير محسوب، وتصل مودته مع العدو التاريخي إلى مرحلة تفوق خيال وأحلام الإسرائيليين أنفسهم.

يحكى السادات في اجتماع حزبي عن بعض تفاصيل لقائه مع رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجن لإنهاء الاتفاق الخاص بالفلسطينيين، ويوافق الرئيس المصري على كل إجراءات الأمن التي تطالب بها إسرائيل، ثم يطرح فكرة تمثل تهديدا خطيرا للأمن القومي المصري: "قلت له إيه رأيك في مليون متر مكعب يوميا من مياه النيل.. قالي شيء عظيم جدا...

لا يملك السادات حق تقديم مثل هذا الاقتراح الذي يعني العبث بموارد المياه وتفجير نزاعات جديدة مع الدول المشاركة في ملكية مياه النهر، والسؤال الأساس: لمصلحة من يتم طرح الاقتراح المغامر؟.

عرض غرائبى لا يُنسى من سلسلة العروض الصادمة غير التقليدية التي يبدو السادات مولعا بها، وواحد من المتفرجين في استعراض الدكتور رمزي نصيف، في "شرف". يعود إليه في سياق الحديث الرأسمالي عن ضرورة أن يتم تسعير المياه بسبب ندرتها:

"غريبة!
أول مرة أسمع عن ندرة المياه
فما أعرفه أن المرحوم أنور،
من كثرة الفائض،
عرض تزويد إسرائيل بما تحتاجه منها".

من لا يملك يعطى وعدا لمن لا يستحق: السادات لا يملك الحق في توزيع المياه، وإسرائيل لا تستحق المعروض عليها.

من المنطقي أن تُوصف زيارة السادات للقدس، في "وردة"، بأنها مشئومة: "وقلبت كثيرا من الموازين وغطت أنباؤها على كل حدث آخر".

تتغير الموازين، ويتيح السادات لإسرائيل فرصة رفع علمها على سفارة لها في قلب القاهرة. امرأة فرنسية، في "بيروت بيروت"، تقدم شهادتها عن وصول السفير الإسرائيلي إلى القاهرة ورد الفعل الشعبي تجاهه: "كان مشهد سيارته وهي تجتاز وسط المدينة رافعة العلم الإسرائيلي مذهلا بحق.

لم يكن هناك جمهور كثير. وكانت السيارة تسير بسرعة. وكان رجال الشرطة يقفون على جانبي الطريق في أعداد غفيرة".

مشهد مذهل غير متوقع، ينصرف عنه المصريون ويحميه رجال الشرطة، لكن الأمر لا يخلو من احتجاج صاخب يتحول إلى شريط مسجل يتداوله الناس في "ذات"، كأنهم ينفسون بالاستماع إليه عما يسكنهم من مشاعر الرفض والضيق. صاحب الشريط-الموقف، مواطن مصري عادي اسمه سعد إدريس حلاوة: "النهارده ٢٦ فبراير ١٩٨٠، النهارده بالذات السادات فتح لإسرائيل سفارة في الدقي ورفعوا عليها علمهم. يا أهالي أجهور.. أنا خلاص قررت أدفع دمي عشان نبقى فوق... أنا معايا اتنين رهاين من أفراد الشعب الغلبان.. وإذا كان الخديوى السادات خايف على حياتهم يطرد السفير الإسرائيلي فورا من القاهرة خلال ٢٤ ساعة وإلا أقتل الرهاين وأقتل نفسي".

لا يُطرد السفير بطبيعة الحال، وتستمر مسيرة السلام دون توقف، ولا تتأثر باغتيال السادات نفسه في حادث المنصة. بعد سنوات من موته، تشيد به عروسة بألوان العلم الإسرائيلي، في الاستعراض الذي تتضمنه رواية "شرف":

"لكن رب إسرائيل الذي لا يتخلى عنها،

بعث إلينا بأنور السادات".

يقدم السادات خدمات جليلة لإسرائيل، وفي "ذات" ما يشير إلى اعتراف إسرائيل بفضله: "إضافة اسم أنور السادات إلى النصب التذكاري الذي أقامته إسرائيل باسم .. ضحايا حرب الظلام والصمت".

يمكن القول إن هذه الإضافة هي أقل ما يجب أن تقوم به إسرائيل للتعبير عن الشكر والامتنان!.

ارتماء السادات في أحضان الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، يقوده إلى اتخاذ موقف سلبي من الاتحاد السوفيتي، ومن فكرة الانتماء العربي: الاتحاد السوفيتي لأنه القوة الدولية المناوئة للنفوذ الأمريكي في الساحة العالمية، والفكرة العربية لأنه لا معنى لوجودها وتبنى شعاراتها في ظل التقارب مع إسرائيل.

يكن السادات كراهية عميقة للشيوعية والاتحاد السوفيتي، وفي "شرف" يعترف لصديقه روكفلر بضرورة التخلص من معسكر المفلسين:

"وقال لي بالحرف إن مصر وضعت نفسها مع المفلسين،

وآن لها أن تكون مع الأغنياء".

كان طرد الخبراء العسكريين السوفيت من مصر، أحد أهم القرارات المبكرة المباغتة التي يتخذها السادات، وتكتب "وردة" عن القرار في يوميات الثامن من يوليو ١٩٧٢: "السادات يتخذ قرارا بإنهاء مهمة المستشارين والخبراء العسكريين السوفيت في مصر. كشف بذلك عن عدم جديته في خوض معركة التحرير".

يعتمد الجيش المصري على السلاح السوفيتي، والتخلص من الخبراء بكل ما يترتب على ذلك من نتائج وتداعيات، يوحى بعدم جدية السادات في خوض الحرب. الوجه الآخر يتمثل في إلحاح السادات على الشكوى المريرة من معاناته في التعامل مع الاتحاد السوفيتي، وإصراره على تحميل السوفيت مسئولية التقصير والخذلان.

يتحقق إنجاز أكتوبر ١٩٧٣ بالسلاح السوفيتي، لكن السادات يبادر باتخاذ قرار جديد، تعلق عليه "وردة" في يومياتها المكتوبة في شهر أبريل ١٩٧٤، بعد شهور قليلة من الحرب: "السادات يقرر تنويع مصادر السلاح. عيب السلاح السوفيتي أنه غير مصحوب بعمولات"!. السياسة العامة التي ينحاز إليها السادات هي الانفتاح غير المشروط على الساحة الغربية، في السلاح وغيره، والقواعد التي يتبعها الاتحاد

السوفيتي في صفقات السلاح تجعل السوق مغلقة وتغيب عنها كل مصطلحات السوق الرأسمالية!.

يتغير المسار إلى الولايات المتحدة، ويتم استقبال نيكسون في احتفاء أسطوري لا يتناسب مع الاتهامات التي تطارده داخل أمريكا وخارجها، ولا يعدم السادات حججا واهية لتبرير تحوله وتجميل قراراته التي تتزايد بسببها الديون والأعباء، ويتجلى ذلك بوضوح سافر في الاستعراض الذي تقدمه "شرف":

"مرة يقولون إن السوفيت امتنعوا عن تعويض السلاح،
كما لو كانت الحرب نيابة عنهم أو لحسابهم،
ورغم أنهم زودوا الطيران المصري بسرب ميج ٢٣،
قبل أن تحصل عليه دول حلف وارسو
ومرة يقول إن السلاح السوفيتي الذي حقق النصر،
متخلف ويجب استبداله بآخر من الغرب،
الذي يدفع العمولة.
وبدلا من ثلاثة أرباع مليون جنيه مصري للميج ٢١،
دفع الهبل بين ٦ و ٨ مليون دولار للفانتوم الأمريكية،
ومئات الألوف من الدولارات لخبراء عسكريين،
مكان الخبراء السوفيت،
الذين كانت موسكو تتحمل رواتبهم بالكامل".

يعترف السادات كثيرا، في مناسبات سابقة، بأفضال الصديق السوفيتي ومساعداته القيمة، لكنه لا يتردد في التنكر للسوفيت والهجوم عليهم والتحالف ضدهم، بحثا عن فوائد مادية ومعنوية يحرص عليها ويتشبث بها: سوق السلاح الغربي والأمريكي بكل ما فيها من إغراءات، تقليص الدور السوفيتي في إطار التحالفات المعادية للشيوعية.

بعض الثوريين من اليساريين العرب، في "بيروت بيروت"، لا يخفون عداءهم العنيف للسياسة السوفيتية، والفلسطيني "أبومازن" واحد من هؤلاء:

"-نحن لا نأخذ منهم غير الكلام.

وإذ تتدخل اللبنانية أنطوانيت معترضة:

-السادات يقول نفس الشيء. كأنما المفروض أن يحملوا السلاح بدلا منا.

يرد الفلسطيني اليساري متشبثا برأيه الذي يتوافق موضوعيا مع السادات:
-لسنا سوى قطع شطرنج في اللعبة بين الروس والأمريكان".

ليست صدفة أن يلتقى أقصى اليسار مع أقصى اليمين في العداء الهستيري للاتحاد السوفيتي، وليس مستغربا أن ينسحب السادات من المعادلة القديمة ويدير ظهره للصديق السوفيتي، منتقلا بولائه إلى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية وإسرائيل وكل من يدورون في الفلك الأمريكي من منطلق التبعية.

يرتبط السادات، نائب رئيس الجمهورية، بعلاقات مريبة مع المخابرات السعودية، وعلاقات شخصية تجارية مع أمير الكويت، ويواصل سياسة التقارب مع الرموز التقليدية والمحافظة بعد الصعود إلى منصب رئيس الجمهورية.

في أكتوبر ١٩٧١، يشارك السادات في الاحتفالات الأسطورية التي يقيمها شاه إيران، وتكتب وردة: "حضر قابوس احتفالات إيران بمرور ٢٥٠٠ سنة على عرش الطاووس في برسبوليس. كان السادات هناك أيضا. لم الشاه جماعة متناسقة".

هذه "الجماعة المتناسقة" هي من يحرص السادات على الانتماء إليها والاندماج معها، وأكثر ما يميزها هو العداء المتطرف للشيوعية والولاء الكامل للولايات المتحدة. علاقة السادات مع الشاه تعبر عن قناعاته المغايرة للخط الناصري، واستهانته بالمصالح المصرية والعربية. ذلك أن تاريخ محمد رضا بهلوى يحفل بالكثير من الأخطاء والخطايا التي لا يسهل نسيانها.

في الثامن من يناير ١٩٧٥، تكتب وردة: "شاه إيران في القاهرة. دبر له السادات استقبالا حافلا".

أي معنى في الحفاوة التي لا يستحقها الشاه؟!. للرجل مواقفه بالغة الوضوح في العداء للعرب وكراهية مصر والانحياز السافر الصريح الذي لا يعرف التستر والمداراة لإسرائيل، وعندما يقوم السادات بزيارة جديدة لإيران في أبريل من العام نفسه، تكتب وردة غاضبة وكاشفة عن حقيقة الشاه وطبيعة مواقفه، وهو ما لا يجهله السادات بطبيعة الحال: "السادات في طهران. الساعة الخامسة والربع تعليق لإذاعة القاهرة يقول: موقف إيران موقف مشرف من القضية العربية منذ ٦٧، وكان لها خط عربي واضح من إسرائيل.. ودور مشرف في حرب أكتوبر.

يا للعار! نسوا كيف هرع الشاه لنجدة إسرائيل بالنفط في الأيام الأولى للحرب. السادات يسيل لعابه في حضرة الملوك والأباطرة".

لعاب السادات السائل، في حضرة الملوك والأباطرة، قد يعبر عن موقفه الشخصي ورؤيته الذاتية، لكن التقارب والتنسيق مع الشاه ذو وجه موضوعي يرتبط بالاختيار الأمريكي ومقدمات التصالح مع إسرائيل.

لم تكن الحرب الأهلية اللبنانية، موضوع "بيروت بيروت" الأساس، إلا حلقة من حلقات المؤامرة التي يشارك فيها السادات والإعلام المصري: "إذاعة صوت العرب المصرية تهاجم المقاومة الفلسطينية وتدعو الجيش اللبناني للنزول إلى الشارع لضربها..

دائرة حول فقرة من افتتاحية جريدة "أخبار اليوم" المصرية: ... الاشتباكات الحالية جزء من مؤامرة الرفض لإحباط التسوية السلمية بين مصر وإسرائيل بهدف خلق وضع يضطر سوريا إلى التدخل، وإذا حدث ذلك فإن إسرائيل ستضطر للتدخل".

تحريض صريح مباشر ضد المقاومة الفلسطينية، وتشبث بالسلام مع إسرائيل وتأكيد على استمرار التعاون معها دون التورط في حرب تتآمر جبهة الرفض من أجل جر مصر إليها!.

السادات وإعلامه يديرون الظهر لوجه مصر العربي، وليست صدفة أن يقول الراوي المصري في الرواية نفسها: "إن الإعلام الساداتي نجح في قتل اهتمام الناس بالقضايا العربية".

ينهمك الشعب المصري إلى درجة الإنهاك في معاناة لم يعرفها من قبل، ويتقلص اهتمامه بالشأن العربي الذي كان رائجا في مصر الناصرية.

لم يكن هذا الانصراف المعبر عن الزهد إلا نتيجة متوقعة بعد ارتفاع رايات الانفتاح الاقتصادي، وهيمنة الفساد، وتحكم المفسدين برعاية وتشجيع من السادات نفسه.

كانت الحقبة الساداتية عصرا ذهبيا في مسيرة الانفتاحيين من رجال الأعمال على النمط الموغل في الفساد، وفي هذه المرحلة تتكون وتتراكم ثروات طائلة عند قلة من الطفيليين الذين يركبون الموجة ويحسنون استغلال الرياح المواتية. في المقابل، يتزايد الفقر وتتضاعف أعداد الفقراء.

قبل أن تنتهي المعارك في حرب أكتوبر، وفي ذروة القلق المصاحب للثغرة التي يقودها شارون وتهدد فرحة العبور، يجد السادات متسعا من الوقت لاستدعاء

صديقه عثمان أحمد عثمان، في "شرف"، ليتحاور معه حول آفاق المستقبل الذي يتخيله:

"استدعاني السادات للقائه،

وتصورت أنى سأجده منهارا أمام ذلك التطور المفاجئ، لكنه كان في قمة الانتشاء،

وهو يحدثني عن التعمير

(كانت إسرائيل تشترط البدء فورا في تعمير مدن القناة لتكون حاجزا إذا ما تجدد القتال)،

وعن تحويل بورسعيد إلى مدينة حرة،

تزدهر فيها المصانع الأجنبية دون قيود،

عاهدا إليَّ بالمقاولة كلها.

وكانت المعونة الأمريكية جاهزة للتمويل

(تحية لزعيمة العالم التي وقفت إلى جانبنا في وقت الشدة)

وسرعان ما امتلأت أسواق البلاد العطشى

بالسلع التي حُرمت منها طويلا:

السفن أب وصابون كامي وشكولاته نستلة،

والجبن الفرنسي ذي الرائحة النتنة".

بعد معاناة طويلة وحرمان ممتد، بسبب اقتصاديات الحرب والدفاع عن الوطن، يتلقى المصريون هدية السادات قبل أن تجف دماء شهدائهم: تعمير لمدن القناة يعني إغلاق ملف الصراع مع إسرائيل وانتظار السلام الأمريكي، تحويل بورسعيد من مدينة يُضرب بها المثل في الصمود والتحدي إلى مدينة حرة يعربد فيها رأس المال الأجنبي بلا قيود، أسواق تمتلئ بعشرات ومئات من السلع الاستهلاكية الكمالية التي لا يحتاجها إلا المترفون.

"المقاولة" كلها من نصيب عثمان، والمقاول ذو الحس التجاري المرهف هو من يتولى مسئولية التعمير والإسكان، ويفرض فلسفته الاقتصادية الأنانية المدمرة، وتترسخ من خلاله قيم الانفتاح الوحشية التي لم تعرف مصر مثيلا لها من قبل. أقوى الشهادات عن الخراب المروع الذي تتسبب فيه سياسة السادات

الاقتصادية الانفتاحية، يقدمها وزير الاقتصاد الدكتور مصطفى السعيد في "ذات"، وهو ليس من أعداء النظام بطبيعة الحال:

"د. مصطفى السعيد وزير الاقتصاد: الاقتصاد المصري في ظل حكم السادات كان مجرد قنطرة لعبور الموارد المالية الهامة من النقد الأجنبي إلى الخارج".

ما يقوله السعيد أقرب إلى التوصيف الموضوعي منه إلى الرغبة في التشهير والإدانة المتحاملة، والفوضى التي يصنعها الانفتاح في المجتمع المصري لا تحتاج إلى مجهود كبير للبرهنة على الآثار السلبية المترتبة عليه.

واحد من رموز شركات توظيف الأموال على الطريقة الإسلامية، في "شرف"، يعترف بأن بدايته الاقتصادية تقترن بعصر السادات وتدين له بالكثير من الفضل:

"وعندما أباح السادات، رحمة الله عليه، الاستيراد بالعملة الأجنبية مباشرة، أصبح هناك طلب كبير على الدولار".

مع تزايد الطلب على الدولار، يرتفع سعره وتشتعل الأسعار، ويترتب على هذا الارتباك صعود قلة تجني ثروات طائلة من أنشطة يغلب الفساد على الأغلب الأعم منها، وهبوط الكتلة الشعبية الساحقة إلى قاع سحيق لا قرار له.

لا يتورع الانفتاحيون عن ارتكاب شتى الممارسات التي تتيح لهم الوصول إلى ما يراودونه من ثراء فاحش، وفي المقتبس الدال الذي تقدمه "ذات" ما يشير إلى طبيعة المرحلة والقواعد التي تحكمها: "مجلة فورتشن (الثروة أو الحظ) الأمريكية عن بعض رجال الأعمال المصريين: بدأ صعودهم في الأيام الأولى لسياسة الانفتاح الساداتية. فبفضل أعطال غامضة في مصانع القطاع العام المتنجة للسجاير الشعبية، استطاعوا أن يغزوا السوق بالسجاير الأجنبية ثم انتقلوا إلى الحصول على رخص إنتاجها محليا هي وبعض السلع العالمية الرائجة مثل أدوات التجميل".

تخريب متعمد للصناعة الوطنية، وإيمان شرس بأن كل الوسائل، المشروع منها وغير المشروع، مباحة من أجل الوصول إلى المزيد من الثراء والسيطرة والاحتكار. أهي صدفة إذن أن يقترن اسم السادات برموز الفساد والانحراف مثلما يقترنون به؟!.

رشاد عثمان، عضو مجلس الشعب السابق والمتهم في كثير من قضايا الفساد والانحراف واستغلال النفوذ، هو من "يوصيه" السادات بمدينة الإسكندرية!،

ورحلة الملياردير التونسي، في الرواية نفسها، تبدأ بتسهيلات يأمر بها السادات: "أمر بإعطائه أرضا وقروضا فلم تعطه محافظة الجيزة أكثر من مائتي فدان ولم يقرضه البنك الأهلي سوى ٢٥ مليون جنيه"!.

وأشرف مروان، زوج ابنة عبدالناصر والسكرتير السابق للسادات: قُدرت ثروته من تجارة الأسلحة بأربعمائة مليون جنيه".

أما عصمت السادات، شقيق الرئيس، فقد كان من نجوم "محكمة القيم" بعد اغتيال الرئيس: "وقُدرت ثروته بالملايين التي يصعب تحديدها"!.

بل إن "روح" السادات ترفرف لرعاية الفاسدين بعد رحيله، ففي حفل توقيع عقد إنشاء أكبر مشروع إسكاني تعاوني باسم "مدينة معادي جدير"، تحت رعاية المهندس عثمان أحمد عثمان، يؤكد محمد ربيع جدير رئيس الشركة الدولية للاستثمار، أن المشروع الجديد: "يستلهم روح الرئيس محمد أنور السادات من أجل بناء مصر المستقبل".

وسرعان ما يهرب المليونير بعد الاستيلاء على أراضي الدولة بالمعادي: "وباعها لألف وخمسمائة مواطن بعشرة ملايين جنيه"!.

أهذه هي "روح السادات" التي يستلهمها رجاله الأوفياء لبناء مصر المستقبل؟!.

هل يمكن الدفاع عن الفساد الذي يستشري بشكل سرطاني في ظل السادات؟. واحد من محبيه ينبري للتبرير الذي يبرئ السادات من الشرور التي يرتكبها المحسوبون عليه:

"د. فكري يونان مسئول الدعاية في شركات الأدوية الأجنبية: الرئيس السادات رحمه الله كان يحب أن يعيش سعيدا ويجعل الآخرين من بقية الشعب سعداء بجانبه. وهذا المبدأ الكريم استغله بعض الحاقدين والمنحرفين عن المسيرة الوطنية ذوي النفوس الضعيفة التي تحمل في صدورها الضغينة والحقد وهي قلة ما تزال تعيش بين صفوفنا".

أي دفاع هذا الذي يخلو من المنطق ويعتمد اللغة الإنشائية من خلال كلمات فضفاضة غير محددة؟. من الحاقدون المنحرفون، ومن الذي يشجعهم ويسن لهم القوانين ويتغاضى عن جرائمهم وسرقاتهم؟!.

استثمار الشعارات الدينية والاتجار بها أحد أخطر الأسلحة التي يلعب بها السادات، ويتوهم أنه سيحقق من خلالها شعبية جارفة تلهي الناس عن الأزمات الاجتماعية وتراكم المشكلات التي تستفحل وتزداد ضراوة يوما بعد يوم.

للدين تأثيره الخطير في الحياة المصرية وتشكيل مشاعر المصريين، ولا شك أن مغازلة العواطف الدينية قد تحقق نجاحا جزئيا وتجذب شرائح من البسطاء محدودي الوعي، لكن التلاعب في هذه الساحة يقود إلى كارثة لا مهرب منها.

مشهد مهم يتضمنه الفيلم التسجيلي الذي تقدمه رواية "بيروت بيروت"، عن الحرب الأهلية اللبنانية:

"القاهرة، مبنى مجلس الشعب. الدكتور صوفي أبوطالب رئيس المجلس يؤكد أن هناك توجيها من الرئيس "المؤمن" أنور السادات بجعل الشريعة الإسلامية أساسا لقوانين الدولة بحيث تُطبق على غير المسلمين. يقول لأحد الصحفيين إن هناك مشروع قانون مقدم للمجلس عن "أحكام الردة" يقضي بالإعدام شنقا لمن يخرج عن الدين".

"الرئيس المؤمن" من الألقاب المحببة للسادات، وهو لقب يشيع في بداية حكمه كأنما ليؤكد اختلافه عن الرؤساء السابقين الأقل إيمانا!، لكن اللقب الساداتي الدعائي يتحول إلى توجيه انفعالي غير مدروس، يمس مصالح وحقوق غير المسلمين من ناحية، ويستهدف التصدي بالسلاح الديني لخصوم سياسيين من ناحية أخرى. الشيوعيون والناصريون والليبراليون يقودون حملة المعارضة ضد السادات، وما أسهل "شنق" هؤلاء المعارضين جميعا بتهمة الردة والخروج عن الدين!.

لعبة خطيرة تكتمل بمغامرة أخرى لا تقل خطورة: "صفحة من مجلة سويدية تتصدرها صورة فوتوغرافية لعدد من الشبان الملتحين، في جلاليب بيضاء يطاردون شبانا آخرين في قمصان وبنطلونات. أحد الملتحين يلوح بمطواة من نوع "قرن الغزال". في الخلف تبدو ساعة جامعة القاهرة. الكاميرا تركز على عبارة أسفل الصورة، بينما ترجمتها إلى اللغة العربية على الشاشة "سلاح ذو حدين".

دائرة حول فقرة من الصفحة المذكورة، تظهر ترجمتها على الشاشة:

استمع أنور السادات إلى نصيحة صديقه المليونير عثمان أحمد عثمان، وعهد إليه والمحافظ عثمان إسماعيل، بتسليح عدد من المتطرفين المسلمين ليرهب بهم معارضيه ويتقرب إلى التيار الإسلامي بالبلاد. وما أغفله السادات هو أن المدى سلاح ذو حدين".

الشباب الإسلاميون الملتحون يطاردون اليساريين ويقلصون بالقوة من نشاطهم ونفوذهم في الجامعات والتجمعات الشبابية،

وفي تشجيع هؤلاء الشباب – الأدوات فائدة مزدوجة: التقرب إلى الإسلاميين لاكتساب شعبية سريعة تتكئ على مغازلة الشعور الديني الجارف، القضاء على المعارضة اليسارية التي تزعج السادات ولا يملك حزبه الهش ومستشاروه التقليديون موهبة وقدرة التصدي لهم.

مكاسب جزئية زهيدة تهمل الأثر البعيد الخطير لصعود الاتجاهات الدينية المتطرفة، ويغيب عن الرئيس الاستراتيجي والمقربين إليه أنهم يمثلون سلاحا ذا حدين، ذلك أن الشباب المسلم لن يقنع طويلا بالتبعية والعمل لحساب غيره، ولابد له من السعي إلى الاستقلال تمهيدا للانقلاب على صانعيه.

ينزعج المصريون المسيحيون من السياسة التي ينتهجها السادات، ورد الفعل الأقوى والأخطر يتمثل في المؤتمر التاريخي غير التقليدي الذي تشهده مدينة الإسكندرية في السابع عشر من يناير ١٩٧٧، قبل يوم واحد من اشتعال الانتفاضة الشعبية العارمة ضد نظام السادات وتوجهاته الاجتماعية والاقتصادية. يناقش المؤتمر عديدا من المتغيرات المثيرة للقلق والاستياء، ويقدم المؤتمرون عدة مطالب تنم عن الشعور الحاد بالأزمة والتخوف من بوادر الفتنة الطائفية التي تطل أشباحها:

"وقدم المؤتمر إلى السلطات عدة مطالب منها: إلغاء مشروع قانون الردة، العدول عن التفكير في تطبيق قوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية على غير المسلمين، إلغاء القوانين العثمانية التي تقيد حق بناء الكنائس، استبعاد الطائفية في تولي وظائف الدولة على كل المستويات".

مكاسب قليلة يحققها السادات من الاتجار غير المسئول، وغير المحسوب، بالدين، وخسائر فادحة تتمثل في تهديد الوطن كله بالدمار، بل إن السادات نفسه

يسقط برصاص الإرهابيين الإسلاميين الذين يسلحهم ويشجعهم لالتهام خصومه، فلا ينجو من أنيابهم!.

كانت انتفاضة يناير ١٩٧٧ ذروة التعبير عن الغضب الشعبي والرفض الشامل لمجمل توجهات السادات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

تستجيب الحكومة لمطالب صندوق النقد الدولي، وتلغي الدعم عن بعض السلع الضرورية، و"تحرك" أسعار سلع أخرى: "وفي الصباح الباكر لليوم التالي، ١٩٧٧/١/١٨، خرجت مظاهرات الاحتجاج على الزيادات الجديدة في الأسعار في مدينة الإسكندرية ثم انفجرت بعد ساعات في القاهرة. ولم يكد النهار ينتصف حتى كانت المظاهرات تجتاح مصر من أقصاها إلى أدناها.

وفي اليوم التالي، انضمت إلى المظاهرات بعض العناصر التي اندفعت إلى النهب والتدمير. وزحفت الجماهير الغاضبة في أسوان على الاستراحة التي يوجد بها أنور السادات، وهي مقره المفضل في الشتاء، فاضطر إلى الفرار وعاد إلى القاهرة في حماية قوات الأمن المركزي.

وسقط بضع عشرات من القتلى برصاص قوات الأمن".

يمتد الانفجار الشعبي من الإسكندرية إلى أسوان، والاحتجاج يتجاوز القرارات الاقتصادية المباشرة إلى مجمل السياسة العامة التي ترهق الشعب عبر سنوات ست من حكم السادات المكروه شعبيا. مثلما كانت هزيمة ١٩٦٧ شهادة الوفاة الحقيقية للرئيس عبدالناصر ونظامه، فإن مظاهرات الغضب في يناير ١٩٧٧ هي بداية النهاية لحكم السادات بكل مآسيه وهزلياته وارتجاله.

في أحاديث السادات التي لا تنتهي، حديث يدلي به إلى التليفزيون الدانماركي، ويتضمن عبارة يقول فيها بالنص الحرفي: "ثبت أن الله يعدني لمهمة معينة".

هذا الشعور المتطرف بالذات، يمثل مفتاحا مهما لفهم شخصية السادات وإدراك السر في نهايته المأسوية. ينعزل الرجل عن الواقع المعيش الملموس، ويحلق بأحلام خرافية باحثا عن أوهام مستحيلة. مما يزيد الطين بلة، أنه يحيط نفسه بمستشارين وأصدقاء لا يفيدون بشيء، وغاية ما يفعلونه هو المسايرة العمياء والنصح الضار. لا يسلم السادات، حيا وميتا، من أذى الساداتيين:

"عبدالله عبدالباري رئيس مجلس إدارة جريدة "الأهرام" يرد على هيكل: أُشهد الله على أن أنور السادات، البطل والرجل والعملاق، لم يكن في يوم من

الأيام يهرب من ماضيه أو تؤرقه ذكرى فقره. ولو كان معقدا بسبب لونه كما قال هيكل، ما جلس بالساعات كل يوم في الشمس"!.

عبدالله عبدالباري نموذج لرجال السادات والمدافعين عنه والمنتسبين إليه، وحدود منطقهم لا تتجاوز الإنشائية والبلاغة التقليدية. جلوس السادات "بالساعات" كل يوم في الشمس، دليل على أنه لا يعاني من عقدة اللون!

... ويا له من دفاع هزيل!!.

الفصل السادس
جميل عطية إبراهيم

إذا كانت "ثلاثية" نجيب محفوظ بمثابة الشهادة بالغة الرقي والصدق والعمق عن مصر، اجتماعيًا وسياسيا وثقافيا، منذ بدايات القرن العشرين حتى قرب نهاية الحرب العالمية الثانية، فإن جميل عطية إبراهيم في ثلاثيته: "١٩٥٢"، "أوراق ١٩٥٤"، "١٩٨١": يقدم شهادة مماثلة عن مصر ما بعد الحرب العالمية، وصولا إلى أوائل الثمانينيات، ثم تأتي روايته "أوراق سكندرية" لتستكمل المسيرة وقوفا على عتبات نهاية القرن.

في "١٩٥٢"، كما ينم العنوان، تركيز على المناخ السابق والمواكب لثورة ٢٣ يوليو. البداية في عزبة "عويس"، حيث استعراض الواقع المصري المأزوم عبر شريحة دالة مكثفة، والنهاية مع ثورة الضباط الأحرار بعد مرحلة من التردي والانهيار في أعقاب حريق القاهرة، الذي يشعل العاصمة ويعبر عن ازدياد السخط الشعبي اللاواعي في ٢٦ يناير ١٩٥٢.

على الرغم من ظهور بعض أسماء ضباط يوليو في القسم الأخير من الرواية، فإن اسم السادات لا يبدو له أثر. في الغياب دلالة على محدودية دوره وهامشية تأثيره عند المقارنة مع غيره، بل إن العمل الوحيد المعروف الذي يقوم به، إذاعة البيان الأول للثورة، لا يُنسب إليه، اكتفاء بمقتطفات من البيان.

"أوراق ١٩٥٤"، الجزء الثاني من الثلاثية، تزدحم بعشرات الأسماء التي تلعب أدوارا مختلفة في أزمة مارس ١٩٥٤ وما قبلها، وهي مرحلة خطيرة حاسمة تحدد مسيرة مصر تحت راية الضباط. على كثرة الأسماء الفاعلة المؤثرة في الحدث الروائي والتاريخي معا، يختفي السادات وتتأكد مجددا هامشيته.

المرة الوحيدة التي يُذكر فيها اسم السادات، تؤكد تهافت وجوده وتكشف عن استهانة زملائه به وتعاليهم عليه. يشير السيد أحمد باشا إلى مشكلة توشك على الاشتعال بينه وبين جمال سالم عضو مجلس قيادة الثورة: "بسبب عدم استماعه على نحو صحيح لجملة قلتها بسبب ضجة افتعلها أنور السادات لحظتها، غير أن الرجل اعتذر بشدة فور أن أعدت عليه ما قلته. وجرى وراء أنور السادات وطرده، وأقسم إن عاد لضربه بالرصاص.

كان جمال سالم يسب، ولكن لفت نظري قوله له: يا ابن الجارية. وقد ضايقني هذا السباب، ورأيته تجريحا لأصحاب البشرة السمراء. لكنني علمت وقتها أن هذه الشتيمة.. لها قصة أخرى يعرفونها فيما بينهم، لكنهم لا يفصحون عنها أمام الغرباء مثلي".

السادات يفتعل ضجة كأنه مهرج، وجمال سالم يطارده ويسبه ويهدده بالقتل، كأنهما ليس زميلين ندين في مجلس القيادة. التكافؤ غائب، وأعضاء المجلس يتابعون المشهد بلا اعتراض أو احتجاج، واللوحة في جملتها تعبر عن تدني مكانة السادات ودونيته!.

الوجود المؤثر للسادات، كما وكيفا، يتحقق في الجزء الثالث والأخير من الثلاثية: "١٩٨١".

شهر أبريل ١٩٨٢ هو الإطار الزمني للرواية، لكن العنوان يشير إلى "١٩٨١"، السنة التي تشهد الحدث الأكثر أهمية وخطورة؛ اغتيال الرئيس السادات في حادث المنصة الشهير. فترة زمنية تزيد على ربع قرن بين الجزئين الثاني والثالث، من "١٩٥٤" إلى "١٩٨١"، وخلال هذه السنوات تئول الزعامة إلى جمال عبدالناصر حتى رحيله في سبتمبر ١٩٧٠، وعندئذ ينتقل ميراث الرئاسة إلى السادات، ويحكم حتى اغتياله في السادس من أكتوبر سنة ١٩٨١.

في معالجة موضوعية متسامحة تخلو من التشنج والإيغال في العداء والكراهية والشماتة، يتوقف جميل عطية إبراهيم أمام عدد من ملامح العصر الساداتي، ويتطرق إلى مجموعة من سمات الرئيس الذي يقود مصر طوال عشر سنوات، بعد نجاحه في حسم الصراع على السلطة لصالحه في مايو ١٩٧١. خلال هذه السنوات العشر، كان المسئول الأول والوحيد عن صناعة السياسة المصري واتخاذ القرار، داخليا وخارجيا على حد سواء.

على الصعيد الداخلي، يتبنى السادات سياسة اجتماعية واقتصادية تعادي الفقراء وتنحاز إلى بقايا الطبقة المهيمنة قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، والطبقة الجديدة الطفيلية التي تنشأ وتترعرع وتزدهر في ظل الانفتاح الاقتصادي المنفلت بلا معايير وقواعد حاسمة. لم تكن التشريعات والقوانين الصادرة في عهده، بمباركته وتشجيعه، إلا تجسيدا عمليا لتأييد القوى الاجتماعية التي تسعى ثورة يوليو، طوال الحقبة الناصرية، إلى ترويضها وكبح جماحها.

الأميرة جويدان، ابنة عويس باشا، تكسب قضيتها ضد الدولة، وتستعيد عزبة أبيها وقصره: "الفضل للقوانين التي أصدرها الرئيس السادات بإعادة الأطيان والأموال المصادرة لأصحابها الشرعيين".

إذا كانت مثل هذه القوانين والأحكام القضائية النهائية المترتبة عليها بمثابة الأداة التي تحقق "العدالة" وتنصف الملاك "الشرعيين" أصحاب الحقوق المسلوبة بفعل القرارات الثورية القديمة، فإن القوانين نفسها سياسية في المقام الأول قبل أن تكون قضائية، ولا شك أنها تمثل انقلابا شاملا سلبيا في حيوات الأغلبية الشعبية التي تشعر أن مكاسبها مهددة بالزوال، وترى في الممارسات اليومية ما يؤكد هزيمتها الطبقية في معركة غير متكافئة مع الطبقات الجريحة الشرسة التي ترغب في الانتقام وتصفية الحسابات.

في تمهيد الرواية ما يكشف عن عمق الانقلاب الجذري الشامل في الحياة المصرية، كما تمثلها عزبة عويس، مقارنة بالأوضاع السابقة في العهدين الملكي والناصري. تسود قيم جديدة، وتهيمن أفكار واتجاهات لم تُتح لها فرصة الانتشار والتأثير في العقود السابقة لحقبة السادات السبعينية. من المنطقي أن يتداخل الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي، وأن تتعرض مصر السادات لزلزال يهدد جملة الثوابت الراسخة المستقرة، وينذر بالمزيد من الاضطراب والارتباك، أو كما ترصد الرواية: "شوكة الجماعات الإسلامية وتشابكت خطوطها مع جماعات النهب المنظم وغلاة الرجعية في المنطقة.

عقل الأمة غُيب وطُرد المثقفون وهاجروا إلى بقاع الأرض بعد أن انتعشت جوقة الزمر وقرع الطبول وتلاحمت خيوط رجال السياسة برجال الانفتاح السعيد فترسخت قيم النهب وانكفأ رجال الطبقة المتوسطة على أنفسهم.

غاب المشروع القومي عن البال وقبع الناس داخل ذواتهم يلعقون جراحهم كالكلاب المضروبة بالرصاص.

مات جمال عبدالناصر، فانفض مولد الثورة وتفرق الناس. مولد كموالد الطهور والزفاف له بداية وله نهاية، وأولئك الذين أكلوا حمص المولد وشربوا الشربات تنكروا للعريس، وبحثوا عن غيره، عن مولد آخر للحمص".

السيادة في زمن السادات للجماعات الإسلامية المتشددة وقوى الانفتاح وغلاة الرجعية، وهذه كلها مسميات لمعنى واحد هو الثورة المضادة التي تعادي العقل والثقافة،

وتعلى من شأن النهب وقيم الخرافة، ويتدثر خطابها بالتزمت والتعنت والعنف. تموت الثورة بموت عبدالناصر، ويتحمس السادات لمشروع جديد ينهي به "المولد" ويسدل الستار على مسرحية لم تكتمل فصولها.

قضيتان مهمتان متداخلتان متكاملتان تطرحهما الرواية وتستحقان التحليل والمناقشة: الأولى حول مسئولية السادات ونظامه عن انتشار التيار الإسلامي المتطرف، والثانية عن طبيعة العلاقة بين نظامي عبدالناصر والسادات.

يُقتل السادات بأيدي الجماعات الإسلامية المتشددة التي تزدهر وتنمو بتشجيع ودعم القتيل نفسه، والهدف الرئيس من التحالف يتمثل في ضرب اليسار المصري بكل فصائله. هذا التشجيع المحسوب بغير دقة، والذي يتسم بقصر النظر، هو ما يدفع الدكتور عماد وحيد، الساخر عميق التفكير على الرغم من ميله الظاهري إلى ادعاء البساطة والسذاجة، إلى اتهام الشيوعيين بقتل السادات!، وإذ تتساءل الأميرة جلهار في براءة:

"-الذين أطلقوا النيران على السادات وأردوه صريعا شيوعيون؟

يجيب الدكتور قائلا:

-يا سمو الأميرة هذه قضية أخرى. السادات كان يخاف الشيوعيين، فجمع حوله مجموعة من السلفيين، وسلحهم، ورباهم لمحاربة الشيوعيين، لكنهم انقلبوا عليه، وخانوا الاتفاق، من إذن قتل السادات؟. الشيوعيون!.

-هل هذا منطق يا دكتور؟

-السياسة يا سمو الأميرة لا تعرف المنطق، تعرف المؤامرات فقط".

من الناحية الرياضية الشكلية، يبدو تحليل الدكتور عماد منطقيا مقنعا. لولا خوف السادات من اليسار، ما ازدهرت الجماعات المتطرفة التي تنفذ عملية الاغتيال، فكأن الشيوعيين – أو الخوف منهم – هم قتلة السادات!.

يدفع السادات ثمنا فادحا لحساباته غير الواقعية، المبررة بخوفه من تصاعد نفوذ اليسار. ربما تعينه الجماعات الدينية في تحجيم أعدائه الشيوعيين والحد من نشاطهم ونفوذهم وتغلغلهم في الشارع المصري، لكن هذه الجماعات سرعان
ما تنقلب على راعيها. السلاح الذي يستخدمه السادات ضد اليسار، فكرا وفعلا، ينقلب سريعا عليه ويرديه قتيلا!. اليسار "كافر" و"ملحد" يستحق الإبادة في خطاب المتطرفين، والاتهامات نفسها تطول السادات وتهدر دمه!.

التحالف شائع معروف، والعلاقة الوثيقة بين السادات وقاتليه ليست سرية خافية، وفي الرواية عديد من المظاهر والأحداث التي تكشف عن طبيعة العلاقة ودرجة التواصل الحميم.

قطامش العجوز، السكرتير الخاص للواء عويس باشا في العهد الملكي، لا يتردد في اتهام السادات بصناعة الأزمة، ويحمله مسئولية التطرف والإرهاب، مدللا على ذلك بنموذج حميدة ابنة الشيوعي عباس، الفتاة التي تنتمي إلى جماعة دينية متشددة تؤمن بالقتل والإرهاب: "هذا كله بفعل الصهاينة وسياسات الرئيس السادات، الله يرحمه".

لإسرائيل والحركة الصهيونية مصلحة موضوعية مبررة في انتشار مثل هذه الجماعات الظلامية الموغلة في الإعلاء من قيم الرجعية والتخلف، وللسادات فضل التشجيع والرعاية وتقديم الدعم المادي والمعنوي. الشباب من أمثال حميدة ليسوا إلا ضحايا أبرياء، يبحثون عن مخرج من الأزمة الخانقة الطاحنة، وعندئذ يقعون في هاوية الاختيارات التي تزيد الأزمة استفحالا واشتعالا.

حميدة ابنة مناضل شيوعي عتيد، والقمع الذي يتعرض له الأب هو الذي يدفع الابنة إلى أحضان الاتجاه النقيض. ليست صدفة أن يتحقق هذا التوجه في بداية حكم السادات، فهو الذي يوفر المناخ المناسب لسقوط حميدة وكثيرين من أبناء جيلها: "امتلأ قلبها بالحقد وبحثت عن ملاذ يوفر لها الأمان النفسي، وفي الجامعة في سنوات السادات الأولى اقتربت من تلك الجماعات".

الهدف القريب مشترك، ذلك أن الجماعات الدينية والسادات يشتركان في عداء اليسار بكل أطيافه، ويسعيان إلى محاربته وتقليص نفوذه. يتحالفان وينجحان في إضعاف العدو المشترك، ثم يقع الصدام المتوقع بين حليفي الأمس. ويسقط السادات بأيدي حلفائه!.

يمثل نظام السادات انقلابا على الحكم الناصري بتوجهاته الشعبية وأحلامه الوردية التي لا تتحقق، لكنها تثير شهية التطلع وشهوة مراودة المزيد من الأحلام، وليس مثل الشيوعي عباس أبوحميدة في قدرته على تقديم تحليل حكيم عميق هادئ النبرة: "أحلام الناس يا ولدي كثيرة، منها المستحيل، ومنها البسيط، وكان جمال عبدالناصر يتبنى الأحلام المستحيلة، يحترمها، يتحدث عنها، يقنع الناس بأنه يضعها ضمن الأولويات، أما الأحلام الصغيرة، فسعى لتحقيقها، ألغى الألقاب، حدد الملكية، وجه ضربة للإقطاع، طبق مجانية التعليم، أقام مستشفيات ومدارس، اهتم بشئون الري، سعى للقضاء على البطالة".

يحقق عبدالناصر عددا من الأحلام الصغيرة ذات الأثر الإيجابي الملموس في حيوات البسطاء، ويتبنى الزعيم الشعبي أحلاما أخرى مستحيلة تفوق قدرته وإمكاناته. قد لا تتجسد هذه الأحلام في الواقع المعيش، لكنها تخلق مشروعا يسعى الناس إليه ويتطلعون ويواصلون مسيرة الأحلام.

السؤال المهم الذي تطرحه الرواية: إلى أي حد يصل التناقض والتنافر بين العهدين؟. السادات امتداد لعبدالناصر بقدر ما هو انقلاب عليه، ومن الخطورة بمكان أن يكون السادات وحده مسئولا عن كل ما يجري بعد رحيل عبدالناصر.

ما يقع في مصر قبل موت عبدالناصر بمثابة التمهيد لما يحدث بعد موته، وهزيمة يونيه ١٩٦٧ هي مفتتح التراجع والانكسار كما يرى كرامة سرحان السقا: "هذه هي ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ التي فتحت الأبواب أمام الصعاليك الجوعى للتربع على أعلى المناصب في الدولة، لكن أبناء الدهماء خانوا البلد والثورة، بسبب طموحاتهم ورغبتهم في التسلق، وما هزيمة ١٩٦٧ المدوية إلا نتيجة تقاعس، وما رحلة الرئيس السادات إلى القدس إلا لاستسلامنا".

الهزيمة ومبادرة السلام حلقتان متصلتان، لا يمكن الفصل بينهما. الهزيمة المهينة في يونيه هي الخطوة الأولى في طريق المبادرة، وتقع الهزيمة الكارثية في عهد

عبدالناصر وتشهر إفلاس النظام، معلنة عن سقوطه الفعلي وانهياره قبل موت الزعيم الشعبي المهزوم بأكثر من ثلاث سنوات.

يمكن القول إن موت عبدالناصر في سبتمبر ١٩٧٠ أقرب إلى الإعلان الرسمي عن موت سابق، والسادات – نائب عبدالناصر – هو الوجه الأكثر تعبيرا عن طبيعة المرحلة الجديدة، حيث تنتفي الأحلام الصغيرة والكبيرة معا. يتحول الأمر عند الشيوعي عباس إلى ما يشبه القانون الحتمي الذي يتجاوز الأفراد والتفسير الذاتي الذي يتعلق بشخصى عبدالناصر والسادات: "بعد سوكارنو لابد أن يحكم سوهارتو. هذه هي طبيعة الأمور. فبعد جمال عبدالناصر كان لابد أن يتولى السلطة الرئيس السادات، ولا تنس يا سعادة المستشار أن الرئيس قد حكم برجال عبدالناصر فيما عدا القلة من رجال مكتبه والمقربين إليه. هؤلاء وضعهم في السجن بعد محاكمة سياسية ظالمة، ليتخلص من منافستهم له، أما الآخرون، فساروا معه على الدرب الطويل.

قال كرامة سرحان السقا لنفسه: حقيقة حكم الرئيس السادات برجال عبدالناصر.

وبعدها سأل نفسه قائلا: اليس ذلك غريبا؟".

زعماء التحرر في العالم الثالث، مثل أحمد سوكارنو في أندونيسيا وعبدالناصر في مصر، يتولى بعدهم زعماء الثورة المضادة مثل سوهارتو والسادات. تختفي الرموز الشعبية وتستمر الأنظمة، فلا غرابة أن يحكم السادات برجال العهد الناصري، إلا القليل الذين تغيبهم السجون بعد محاكمات شكلية جائرة، سياسية في المقام الأول بلا ضمانات، وهؤلاء القلة هم من ينازعون السادات السلطة ويستحقون الإبعاد والعقوبة وفق منطق الغلبة.

السادات، الذي يسبه جمال سالم ويطارده مهددا بالقتل، واحد من أعضاء مجلس قيادة الثورة، ونائب عبدالناصر الذي تئول إليه السلطة في إطار شرعي وفق إرادة عبدالناصر نفسه، والقيادات السياسية والشعبية والتنفيذية التي تعمل مع عبدالناصر تواصل المسيرة مع السادات، ولا تجد في ذلك تناقضا أو مفارقة.

الاختلاف قائم، والامتداد موجود، والانقلاب متحقق. الفوارق واضحة جلية بين عبدالناصر والسادات، لكن: لا متسع للغرابة والمفاجأة. كلاهما ينتمي إلى ثورة واحدة، ذات رؤى متباينة!.

منقلبا على عبدالناصر متنكرا لشعاراته، مستعينا بالقوى الطفيلية والجماعات الدينية المتشددة، يحكم السادات ويقود مصر إلى أزمات وكوارث لا تنتهي باغتياله!.

عباس أبوحميدة، الشيوعي العقلاني الموضوعي، يجد في أحاديث السادات عن القرية وتقاليدها قيمة إيجابية، لكنه يأخذ عليه ميله إلى التزييف والإعلاء من شأن الشكليات التي تفضى إلى خراب شامل: "الرئيس السادات رحمه الله وغفر له عرف السر وحرص على العيش وسط الحقول في عزبة ميت أبوالكوم وفي القناطر الخيرية. لكنه صنع ريفا مزيفا.. ديكورا. كانت تطلعاته ونزعة الخيلاء في أعماقه أقوى من فطرته. رحمه الله.. خرب الريف في عهده وجاع. بارت الأرض....".

لا شك أن شعارات السادات عن "أخلاق القرية"، ذات بريق وجاذبية، ولا شك أيضا أنها قد تكون مفيدة بناءة حال ترجمتها وممارستها بشكل صحي صحيح يخلو من الخداع والمراوغة، لكن الأفعال العملية تأتي على النقيض تماما مما يُقال ويُعلن، وتفضى بالضرورة إلى الخراب.

إذا كان عباس أبوحميدة شيوعيا معارضا للسادات ورافضا لمجمل سياسته، فإن كرامة السقا من رجال السادات المقربين الذين يفيدون من حكمه. تجسد شهادته جوهر الأزمة التي تتجاوز المادي الملموس إلى الروحي الكامن في أعماق الشخصية المصرية: "كنت أود أن أقول له إن الشباب قد فقد القدرة في عصر السادات، لكنني أحجمت. بلعت الكلمات عن قصد، فقد خجلت أن أنتقد الرئيس السادات بعد موته، بعد أن كنت معجبا به طوال حياته".

ما الذي يعنيه كرامة بـ "فقد القدرة"؟. إنه يشير إلى جملة المتغيرات الجذرية القاسية التي يغيب معها حلم المشروع القومي، ويتراجع الانتماء، وتتبدل القيم والمعايير الأخلاقية.

عباس الشيوعي وكرامة الانتهازي، يعايشان سنوات حكم السادات من الداخل، واليساري المصري اليهودي بن هارون، الذي يعادي إسرائيل والفكر

الصهيوني محتفظا بولائه لمصر في الغربة، يتابع التجربة من الخارج، ويقدم رؤية شاملة عميقة.

لا يخفى بن هارون كراهيته العميقة للسادات، مخالفا في موقفه هذا للصورة النمطية العكسية السائدة في الغرب: "كراهيتي للسادات رحمه الله لا حد لها. والغرب هنا يقيم له مناحة ونزل فيها لطم على رأي اخوتنا الفلاحين".

الكراهية التي يحملها الرجل ليست سلبية ذاتية، فهي تتحول إلى "فعل" علني يتمثل في معارضة صريحة نشيطة للسادات وسياسته، وهي معارضة مسلحة بالعلم والمعرفة الشاملة لكل ما يدور في المنطقة من صراعات وتداعيات. يعترف كرامة سرحان، الذي يحتم عليه عمله الدبلوماسي أن يرد ويدافع في مواجهة الحملات المعادية، بعجزه عن مجاراة اليساري اليهودي والتصدي لمقولاته المتماسكة: "كان معاديا للرئيس السادات ويكتب في الصحف تحاليل سياسية ضده. وكان كرامة في بعض الأحيان يرد عليه، فتنشر الصحف ردوده، أما إذا كانت هناك ندوة فكان يفضل الغياب عنها، لأنه ليس في مقدور أحد مجاراة هذا الرجل في الحديث، ليس بسبب فصاحته فقط ولكن بسبب اتساع علمه ومعرفته بما يدور في الكواليس في الشرق الأوسط".

بن هارون، ذو الانتماء المصري والرؤية اليسارية والفصاحة والحضور، كاره للسادات من منظور سياسي موضوعي. يرصد ما يلحق بالحياة المصرية من تغيير عاصف غير مسبوق، يتمثل في ظاهرة الفرار الجماعي والهجرة الشاملة التي لا يعرفها التاريخ المصري من قبل: "الطاعون والمجاعات هي وحدها التي تجبر الناس على الفرار، وما جرى في مصر في زمن السادات يشبه الطاعون، فرار جماعي".

يعود بن هارون ليضيف: "ما نردده هذه الساعة في جنيف يا باشا، يردده مئات غيرنا من المثقفين المصريين المطرودين، في كافة أنحاء المعمورة. مقاهي لندن وباريس وروما وبرلين تغص بالمصريين، حتى المدن الصغيرة في بلدان الشمال عرفت المهاجرين المصريين لأسباب سياسية".

ينجح السادات في تفريغ مصر من أبنائها القادرين على النهوض بها، وإذا كانت الرواية تبدأ بعزبة عويس التي تعيش بلا عمل انتاجي عالة على أبنائها العاملين في الدول العربية النفطية، فإن الوجه الآخر للأزمة يتحقق في ظاهرة النفي والتشتت التي يتعرض لها المثقفون والسياسيون المعارضون القادرون حال بقائهم في الوطن

على تحقيق التوازن والحيلولة دون الانهيار الروحي، بعد حلول الإفلاس المادي والخراب الاقتصادي.

طاعون سياسي يجلبه السادات باتباع سياسة قصيرة النظر، ويسفر الوباء عن حالة من الخواء والفراغ تتيح للجماعات المتطرفة الإرهابية أن تنتشر وتتحكم وتفرض سيطرتها وتزيل ما يتبقى من الأحلام الناصرية الصغيرة. تخلو الساحة إلا من أمثال كرامة سرحان السقا، رجل كل العصور الذي يتسم بالنذالة والانتهازية على الصعيدين الذاتي والموضوعي. تبدأ رحلته قبل ثورة يوليو، ولا تنتهي باغتيال السادات. إنه نموذج متكامل بالغ الدلالة على طبيعة رجال السادات، أولئك الذين لا يعرفون إلا الأنانية والمصالح الشخصية.

كرامة سرحان، ابن السقا، يبدأ فقيرا معدما، وينتهي دبلوماسيا مرموقا. ابن ثورة يوليو في مرحلتيها المتعاقبتين المتنافرتين، وخير معبر عن مسارها صعودا وهبوطا.

يقول كرامة لنفسه، ملخصا رحلة حياته في بساطة ووضوح وقدر كبير من الصدق: "تركت العزبة وعملت بالخارجية دون واسطة في عهد الرئيس جمال عبدالناصر عندما فتحت الخارجية أبوابها لأبناء الشعب المعدمين، وبعدها اتصلت بالأميرة جويدان وجاهدت حتى أوقعت بها وآلت إليك ثروتها. وفي عهد السادات سبحَّت به وحمدت متخليا عما كان".

يتيح العهد الناصري لبسطاء الناس، من أمثال كرامة، أن يرتقوا بالكفاءة والعلم والعمل، ويسمح لهم النظام الشعبي باختراق قلعة وزارة الخارجية الحصينة، المغلقة في العهد السابق على أبناء الطبقة الأرستقراطية وحدهم، لكن كرامة يخوض التجربة محملا بالتراث المعقد الذي ينعكس على أحلام الصعود بلا حدود. عندما يأتي السادات يجد في كرامة وأشباهه رجالا خانعين يطيعون ويسبحَّون ويحولون الاتجاه القديم، متخلين عن الحقبة الناصرية وقيمها.

لا يمكن القول إن كرامة سرحان صنيعة السادات، فهو ابن الثورة الناصرية التي تصعد به في السلم الاجتماعي. ولاؤه الوحيد لذاته، ولا تفكير يحكمه إلا المصلحة الشخصية، وإذ تواتيه الفرصة في عهد السادات يتشبث بها ولا يفرط فيها. أستاذه القديم الدكتور رشاد رشدي، صديق السادات ومستشاره وأحد ابرز قادة الهجوم على المرحلة الناصرية وتوجهها الشعبي، صاحب الفضل الأكبر في

مسيرة تلميذه المهيأ منذ البدء للسير في درب الانتهازية: "هو الذي قدمني إلى الرئيس السادات رحمه الله، قال له كلمة طيبة عني، ففُتحت أمامي أبواب رئاسة الجمهورية".

تنفتح الأبواب فيتحول الولاء كله إلى السادات وتوجهاته، ولا يبالي كرامة إلا بالرئيس وما يريده: "مات الرئيس عاش الرئيس. هذا هو شعار الدولة المتقدمة ليستمر سير دولاب العمل والحياة دون هزات، أما ما خالف ذلك فهو تنطع. نعم. لقد تعاونت وعملت إلى جانب حاشية الرئيس السادات ومحاسيبه من خلف رؤسائي في وزارة الخارجية. كانت هذه هي أوامر الرئيس لي".

استمرار دولاب العمل بلا قلاقل هدف نبيل مشروع، لكنه لا يتطلب الازدواجية والانصياع الكامل لتعليمات الرئيس وحاشيته بمعزل عن القيادات الشرعية المحترفة المحترمة. من يلتحق بالخارجية دون وساطة في عهد عبدالناصر، مسلحا بالكفاءة دون شفيع، هو نفسه من يتحول إلى أداة طيعة في يد مؤسسة الرئاسة: "يتلقى التعليمات من السادات أو معاونيه مباشرة!".

لأنه مثقف يستطيع أن يبحث عن غطاء فكري سياسي لانتهازيته وطموحه الفردي، فإنه يقدم رؤية مراوغة مخادعة يسعى من خلالها إلى إقناع نفسه والآخرين بأنه صاحب موقف وفلسفة: "في سنوات عز السادات بعد حرب أكتوبر بقليل كان كرامة يردد لنفسه وللآخرين قائلا:

-حلم جمال عبدالناصر في الاشتراكية والقومية العربية قد فشل بسبب عوامل خارجية قوية لا قبل لمصر بها، أما حلم السادات في بناء التنمية عن طريق الرأسمالية سوف يجد دعما عالميا بعد حرب أكتوبر .. أما الوحدة العربية والقومية فلها الله"!.

المراجعة الفكرية ليست خطيئة بطبيعة الحال، وتغيير بعض القناعات والانتماءات وارد مبرر، لكن ما يفعله كرامة لا يمت بصلة إلى شيء من ذلك. إنه في خدمة المسيطر المهيمن، وبارع متمكن في ركوب الموجة الصاعدة.

بنهاية السادات يقترب الحساب والعقاب، جراء التبعية المطلقة لعهد يسقط وتتغير معالمه وملامحه بعد الاغتيال: "ربط نفسه في عجلة الرئيس الراحل، مسلحا بكلمة: حاضر. وقد حلت ساعة الحساب".

يستشعر كرامة اقتراب العقاب والمحاسبة: "حركة الترقيات سوف تعصف بأولئك الذين سخروا أنفسهم لخدمة حاشية الرئيس السادات".

في شخصية كرامة، ابن السقا وزوج الأميرة والبارع في الإفادة من مرحلتي عبدالناصر والسادات معا، ما يكشف عن ملمحين مهمين فاعلين في سياسة السادات الخارجية، التي لا تنفصل عن موقفه الاجتماعي وسياسته الداخلية: الملمح الأول يتعلق بموقف الرئيس السلبي من وزارة الخارجية ورجالها الأكفاء، والملمح الثاني عن علاقات السادات السرية المريبة مع إسرائيل.

يسمح السادات لنفسه بالالتفاف حول القيادة الشرعية لوزارة الخارجية، ولا يتورع عن تجنيد بعض رجالها للعمل تحت سيطرته المباشرة. هذه الممارسة غير السوية، ليست إلا تعبيرا عن موقف أشمل يتخذه السادات من المدرسة الدبلوماسية المصرية، التي يضيق بها ولا يتوافق معها.

السفير الدكتور نبيل العربي كفاءة متميزة، لكنه يُنقل إلى الهند بسبب "تحامل الرئيس السادات عليه في نوبة غضب".

زعامة السادات، بكل خصائصها غير التقليدية، تضيق برجال الخارجية وخبراتهم العلمية والعملية ذات الطبيعة المنضبطة. إذا كان عبدالناصر يفيد من خبرات أبناء الوزارة العريقة بقدر، فإن السادات يختلف عن سلفه: "تجاهل خبرات هذا الجيل واستند إلى معارفه وقدراته الخاصة يعاونه مجموعة من الموظفين في أمور الحرب والسلام والاقتصاد..".

هكذا يحكم أحمد السيد باشا، وثيق الصلة بعبدالناصر والسادات ورجال الخارجية المصرية.

يعتمد السادات على قدراته الخاصة ومشورة موظفيه محدودي الخبرة والإدراك، قليلي الكفاءة والعلم، ولعل في هذا التوجه ما يفسر جهود السادات السرية في التعامل مع إسرائيل بمعزل عن قيادات وزارة الخارجية، واعتمادا على أمثال كرامة الذي يستدعي ذكرياته القريبة: "على هذا المقعد في بهو الفندق أجريت اتصالات مع إسرائيليين لعقد صفقات بيع البترول بواسطة شركة وهمية مصرية في جنيف من خلف رؤسائي في وزارة الخارجية بتعليمات مباشرة من الرئيس السادات ورفضت الرشاوى والعمولات والسمسرة وقمت بواجبي كموظف ودققت في التفاصيل ووقفت حجر عثرة أمام آخرين سال لعابهم أمام الدولارات

واعتبرت نفسي محاربا في معركة. وكانت مساومات عملائهم تقرفني وتدفعني إلى التشدد لتعويض هزيمتنا في عام ١٩٦٧".

النصف الأخير من الذكريات التي يستدعيها كرامة تحتمل الكثير من الشكوك، لأنه يضفى على مواقفه بطولات لا يملك أحد التحقق من صدقها. أما المهم الخطير بحق فهو اعترافه بالاتصال المباشر مع الإسرائيليين وعقد الصفقات معهم دون علم وزارة الخارجية، كأنها جهة غريبة غير ذات شأن، لا ينبغي لها متابعة ما يتم ترتيبه مع أعداء الأمس القريب!. من حق كرامة أن يتجمل ويباهي بشرفه وتعاليه على الرشوة وسعيه للثأر من هزيمة ١٩٦٧، لكن الكارثة الحقيقية في العمل السري التآمري!.

بن هارون، المحامي المصري اليهودي اليساري، يفضح المستشار كرامة وما يدعيه من بطولات، ويكشف عن نشاطه في تجارتي النفط والسلاح، لكن كرامة يتشبث بترفعه ووطنيته مؤكدا أنه يعمل بتوجيه مباشر من السادات، وينفذ بنود اتفاقياته الخاصة مع إسرائيل: "بعد اتفاقية كامب ديفيد وتسليم آبار سيناء النفطية لمصر، سعت إسرائيل لتأمين احتياجاتها من النفط من مصر وتعهد السادات لهم بذلك لدفع عملية السلام وإتمام الانسحاب، وتشكلت شركة قطاع خاص ذات طبيعة سرية للنفط في الخارج تشتري النفط من الحكومة المصرية لتعيد بيعه إلى إسرائيل.

هذه كلها أشياء معروفة وليست سرا. فقد أدار السادات معركة مترامية الأطراف وعلى جبهات متعددة".

إدارة "شخصية" لمعركة يتحتم أن تتواجد فيها وزارة الخارجية وليس بعض العاملين فيها، من أمثال كرامة سرحان، واتفاقيات "سرية" لا يدري أحد عنها شيئا باستثناء السادات نفسه. المسألة هنا لا ترتبط بالموقف من فكرة بيع البترول المصري لإسرائيل، لكنها في المقام الأول تتعلق بمنظومة الإجراءات "الطبيعية" التي ينبغي أن تعتمد على المؤسسات وليس على أفراد مسكونين بالطموح الفردي والولاء المزدوج!.

من المنطقي أن يسقط كرامة وينهار مشروعه الشخصي الانتهازي بعد رحيل السادات، ولعل العامل الذي يعجِّل باغتيال الرئيس هو تلك الحملة البوليسية

الشعواء التي يشنها السادات على خصومه من مختلف الاتجاهات السياسية في سبتمبر ١٩٨١.

في سبتمبر ١٩٨١، يعتقل السادات عددا هائلا من أبرز رموز العمل الوطني في مصر، ولا تجد حملة سبتمبر هذه من يدافع عنها أو يبررها ويلتمس لها الأعذار. كرامة نفسه، وثيق الصلة بالسادات، يدينها بألفاظ قاسية تنم عن رفضه لها وإدراكه لخطورة الدور الذي تلعبه في التعجيل بنهاية الرئيس، صاحب المزاج الحاد والقرارات الفردية العشوائية غير المحسوبة.

اغتيال السادات صدمة هي الأكبر والأعظم في حياة كرامة سرحان: "أكبر مفاجأة لي على المستوى العام".

لا تحول المفاجأة الحزينة الصادمة دون تأكيد كرامة على مسئولية حملة الاعتقال عن عملية الاغتيال، ولذلك يأتي توصيفه للحملة بالغ القسوة:

"حملة الاعتقالات الشهيرة والمسعورة التي قام بها الرئيس السادات في سبتمبر الماضي وعجلت بمصرعه".

"حملة الاعتقالات التعيسة التي عجلت باغتيال السادات".

"حملة سبتمبر الشهيرة التي أودت بحياة السادات".

الحملة "مسعورة" و"تعيسة" و"شهيرة"، والهاجس المشترك المكرر هو تعجيلها باغتيال الرئيس. إذا كان كرامة، رجل الرئيس الأثير المقرب والمستفيد من عهده، يرى كل ذلك في قرارات سبتمبر وما يترتب عليها من نتائج، فكيف يكون الأمر بالنسبة للأعداء والضحايا ممن يتعرضون للبطش والقمع؟!.

نهاية مأسوية، لكنها منطقية متوقعة، لحياة حافلة بالعديد من الأخطاء والتجاوزات. الأخطاء التي تؤخذ على السادات كثيرة متنوعة في السياسة الداخلية والاختيار الخارجي، أما الخطيئة الكبرى فيشير إليها المحامي بن هارون: "السادات رحمه الله استحق مصيره. ليس لأنه وقع اتفاقية سلام مع إسرائيل، فكلنا يعرف أن اتفاقيات السلام غير العادلة ليست إلا هدنة حرب، لكن أخطاءه السياسية هي أنه عمل لمسح ذكريات الوطن يا باشا. ذكريات الوطن ضاعت في عهده من أذهان الناس، والوطن هو الذكريات".

لا يسخر من السادات أو يتهكم عليه عندما يقول "رحمه الله". ذلك أن العمل السياسي الحقيقي لا يعرف الشماتة والعداء الرخيص المبتذل. كل أخطاء

السادات واجتهاداته قابلة للمناقشة والاختلاف حولها تأييدا ورفضا، لكن الخطأ – الخطيئة، غير القابل للتسامح والغفران، هو تهديد فكرة الوطن وزلزلة روح الانتماء وخلق حالة روحية من الخواء والفراغ لم تعرفها مصر من قبل.

يُقتل السادات وجل خصومه ومعارضيه في المعتقل، وهم خصوم يختلفون سياسيا وفكريا فيما بينهم، ربما أكثر من اختلافهم مع السادات نفسه: الزعيم الوفدي الكبير فؤاد سراج الدين، الكاتب السياسي والمفكر الشهير محمد حسنين هيكل، المؤرخ اليساري البارز صلاح عيسى. ثلاثتهم في زنزانة واحدة، وعندما يصلهم خبر الاغتيال لا يعرف أحدهم مشاعر الشماتة والسعادة، ذلك أنهم سياسيون وطنيون راشدون ناضجون، يتقنون قواعد اللعبة السياسية الشريفة، ويدفعون بوعي ضريبة الانتماء الوطني.

لم يكن اغتيال السادات نهاية لطوفان الأزمات المعقدة التي يصنعها في سنوات حكمه، بل إن في موته ما يفجر مأزقا روحيا غير مسبوق في التاريخ المصري، يرصده الدكتور أحمد السيد باشا، أحد ضحايا حملة سبتمبر: "منذ قدم الباشا إلى جنيف وهو يعيش أحوال الوطن على نحو لم يعشه من قبل. فماذا جرى؟ هل مصر في أزمة روحية، بعد قتل أول رئيس على هذا النحو؟".

التمييز ضروري بين الذاتي والموضوعي، والخصومة مع السادات لا تعني غياب التقييم المتوازن الذي يعلي من شأن الوطن دون توقف عند الأفراد. غياب السادات على هذا النحو نذير أزمة مزعجة، واغتياله ليس عصا سحرية قادرة على إعادة تنظيم أحوال الوطن وتجاوز الهموم التي يعانيها.

إذا كانت رواية "١٩٨١" تبدأ أحداثها وتنتهي بعد شهور قليلة من حادث المنصة، فإن رواية "أوراق سكندرية" تقفز سنوات كثيرة لتصل إلى عتبات نهاية القرن العشرين، وترصد استمرار الازمة في الواقع المضطرب.

واقع جديد وأجيال مختلفة ذات انتماء مغاير لما كان سائدا من قبل: "هزيمة ٦٧ لم تلحق بها، ونصر ٧٣ لا يشبعها، وهمها لقمة العيش".

تتراجع الاهتمامات السياسية المباشرة التي تسيطر على "الثلاثية" وشخوصها، المعبرين عن المرحلة الممتدة من أوائل الخمسينيات إلى مطلع الثمانينيات، وتتقدم الهموم الاقتصادية ومصاعب الأحوال المعيشية لتحتل الصدارة.

الموقف من السادات، وعبدالناصر أيضا، يتحول إلى ذكرى قديمة تندمج في التاريخ الشخصي والوطني لبعض الشخوص الذين يعايشون العهود السابقة.

علواني، كما تقدمه الرواية، شاعر كبير وشخصية ثرية متعددة الأبعاد: "مقالبه وقفشاته ذاع صيتها وملأت العالم العربي، وقصائده التي هاجم فيها سياسات السادات في قسوة، تحولت إلى شعارات، وأصبحت علامة على مرحلة ذهبت بخيرها وشرها".

الهجاء الشعري للسادات أقرب إلى التاريخ الذي لا ينشغل به جيل جديد مهموم بأزمات مختلفة عن سابقيه. يقينهم الراسخ هو ذهاب السادات بخيره وشره، فلا معنى أو جدوى من الاهتمام به والإسراف في التوقف عنده.

يتسع واقع أوائل التسعينيات، وحتى منتصفها، لأمثال شوكت بك، الذي يعلق فوق جدران منزله الفاخر صورتين كبيرتين: "واحدة للرئيس جمال عبدالناصر معلقة بالمقلوب وأخرى للرئيس السادات في حلة بهية، ومعدولة".

الصورتان، على الوضع المعلقتين به، تجسيد دقيق لموقف واضح من شخصية لا تمارس السياسة، وتبدو أقرب إلى التنفيس النفسي المرضى، بغية تصفية الحسابات الاجتماعية والطبقية مع عصر عبدالناصر وتوجهاته، وفي سبيل ذلك يتم الإعلاء من شأن السادات، الزعيم – الضد.

الجيل الجديد الذي لم يعاصر الرئيسين المختلفين ليس معنيا بهما، ولا يهتم كثيرا بأيهما. الحرس القديم يعيد النظر في ثوابته، ويكتسب نضجا وحكمة واعتدالا، وعندئذ يقدم تلخيصا مكثفا لكل ما مضى: "جمال عبدالناصر ومعاركه مع قوى أجنبية متعددة، عن هزيمة ٦٧ المدوية. جمال عبدالناصر هزمه رجاله في حياته وبعد مماته، والسادات سعى للصلح بأي ثمن. لا شيء يُقال يا هنادي، التاريخ صفحات مغلقة، ناس ترمح، وإذاعات تنبح، وجروح مفتوحة لا تلتئم".

لأن الصفحات مغلقة والضباب مسيطر، فإن العودة إلى التاريخ ينبغي أن تتجاوز ثورة يوليو ١٩٥٢، إلى ثورة ١٩١٩ وما قبلها.

القدامى يعيدون النظر، والشباب يتسمون بالفردية التي لا تتيح اتخاذ المواقف الحاسمة، ولا تقود إلى الحكمة واليقين: "كل منهم معلق من عرقوبه، زهور برية نبتت بطريقة شيطانية".

لا ينتهي دور السادات في الحياة المصرية بطبيعة الحال، ولا يتبخر تأثير عهده الحافل بالأحداث، لكن الصراعات تتراجع، والجميع يلهثون وراء عالم جديد يودع قرنا مليئا بالأحداث الجسام، ويتهيأ لاستقبال قرن جديد لا يتسع لموروثات القرن العشرين وهمومه البائدة!.

فضلا عن "الثلاثية" و"أوراق سكندرية"، يمكن رصد وجود أقل أهمية للرئيس السادات في روايات جميل عطية الأخرى" "النزول إلى البحر – ١٩٨٦"، "خزانة الكلام -٢٠٠٠"، "نخلة على الحافة-٢٠٠٢".

في "النزول إلى البحر" ما يشير إلى طبيعة السياسة الاجتماعية والاقتصادية غير الشعبية للسادات: "الخواجة جرجس يقول انفتاح يا شطارة انفتاح. مشروعات. الأميركان يعمرون البلد بعد أن خربها الروس".

التقييم نسبي وطبقي، والأقلية من أصحاب المصلحة يشيدون بالانفتاح ويتشبثون به، أما الأغلبية فإنها تكتوي بنيران التغيير الجذري ولا ترى فيه تعميرا وعمارا.

في الرواية نفسها ما ينم عن الولع الساداتي بالإعلام وأضوائه، وهو ما يدفع العاديين من الناس إلى التهكم والسخرية ورفض السلوكيات التي لا تليق بالمنصب المهيب من منظور شعبي محافظ. "شطارة" يسأل صديقه التليفزيوني "سمعة":

"-هل حقيقة أن الرئيس يضع مكياجا على وجهه عندما يتحدث في التليفزيون؟!

قال سمعة مؤكدا:

-هذه ضرورات تصوير. أمام الكاميرا.

غضب شطارة قائلا لنفسه: عيب يا ريس".

مثل هذا النمط من النقد الساخر لم يكن مطروحا بالنسبة لعبدالناصر، لكن شخصية السادات الاستعراضية تفتح الباب واسعا أمام كارهيه ومنتقديه لتوجيه السهام اللاذعة.

لا تتوقف الرواية كثيرا أمام سياسة السادات الداخلية الانفتاحية وسمات شخصيته الاستعراضية، وأكثر ما تنشغل به هو اتجاه السادات للتصالح مع إسرائيل والسعي لإقامة علاقات طبيعية معها.

في مرحلة مبكرة، أثناء مفاوضات فض الاشتباك الثانية، يدرك سيد أن تغييرا جذريا عاصفا يدق الأبواب، ويقول للدكتور صادق فيما يشبه النبوءة: "سيأتي قريبا اليوم الذي تصبح فيه صديقا للصهاينة لما تُفتح لهم سفارة في القاهرة".

تصح النبوءة، ويتم الصلح مع إسرائيل، وتُوقع اتفاقية السلام.

تتصاعد الرغبة الحكومية الرسمية في التطبيع، ويقول الدكتور صادق للواحظ، مجسدا اتجاه السلطة الذي يصطدم مع الرغبة الشعبية المضادة: "الحكومة حساسة لكل من يسب الإسرائيليين أو يقف في طريقهم. فسبته وسبت الإسرائيليين والصهاينة والحكومة".

الاهتمام بالسادات وسياساته هامشي عابر في "النزول إلى البحر"، وهو كذلك في "خزانة الكلام"، لكنها تتضمن إشارة دالة لسياسة السادات الداخلية، تتجلى فيما يقوله أبو المحاسن المصري: "مع تصفية الحراسات في عهد الرئيس السادات، عادت ثروتنا وأُفرج عن العقارات التي كانت مجمدة".

الطبقة التي يمثلها أبوالمحاسن لا تتأثر باغتيال السادات، فتواصل صعودها ويتزايد نفوذها بعد أن ينفتح الطريق أمامها بلا عوائق. هذه الطبقة، المسيطرة اقتصاديا واجتماعيا، تتعامل مع إسرائيل ولا تثق بها، وأبو المحاسن نفسه يعاني على الصعيد الشخصي من السلام الساداتي الإسرائيلي. زوجه الأجنبية تكشف عن هويتها الحقيقية بعد السلام، وتصنع أزمة معقدة:

"-في البداية كانت تدين بالمسيحية، ويا سيدي بعد زيارة الرئيس السادات إلى القدس، انقلب حالها. صارحتني بأنها يهودية، وهذه مقبولة، لا بأس، فرنسية يهودية، يجوز الزواج منها، ولكنني عرفت فيما بعد أنها إسرائيلية يا بوشناق. حرمتَّها على نفسي.

سألته:

-ومارينا؟

قال حزينا:

-تهددني بالسفر إلى إسرائيل".

الزوجة والابنة معا، وزيارة القدس هي البداية التي تتيح فرصة لنجاح الانقلاب والمكاشفة بالحقيقة القاسية الموجعة. التعامل مع اليهود لا يمثل

مشكلة، لكن ابناء الطبقة الشرهة لا يستوعبون، لأسباب ذاتية موضوعية معقدة متداخلة. فكرة التواصل مع العدو الإسرائيلي القديم. المصلحة تحكمهم وتفرض عليهم توجها عمليا، لكن المشاعر والأحاسيس الإنسانية لا تغيب أو تتوارى. الحاجز النفسي ليس هينا يسهل عبوره، والتغلب عليه ليس متاحا بالبساطة التي كان السادات يتخيلها ويبشر بها.

مارينا أبو المحاسن المصري، مصرية إسرائيلية مسلمة يهودية، فأي ارتباك واضطراب يقود إلى عواقب وخيمة قوامها التمزق والتشتت: "أمي اليهودية كانت تحذرني في طفولتي من النداهة. تقول: مصر نداهة كبيرة، تبلع، جذورنا في أرض العسل واللبن، هناك. وبعد تولي الرئيس السادات، قالت إنها إسرائيلية ولا تقبل الحياة سوى في أرض الميعاد. وأيامنا هنا في مصر عابرة. رفضت صحبتها. ماتت مقهورة".

ولاء مزدوج وتمزق نفسي وتخبط عنيف مدمر يقود إلى هاوية سحيقة بلا قرار، والجميع خاسرون: الزوج والزوجة والابنة. التعايش والاندماج والتطبيع، مصطلحات تصطدم بواقع صلب، والنتيجة المنطقية المرعبة هي عذاب الأب المصري، وحسرة الأم اليهودية الإسرائيلية، وضياع الابنة التي لا تعرف هويتها ولا يستقر مزاجها النفسي نحو انتماء محدد. الأمر كله ليس بعيدا عن السادات وتوجهاته وتحولاته العاصفة غير المحسوبة، فهو صانع المأساة التي تتجاوز الحالات الفردية إلى المناخ العام.

في "نخلة على الحافة"، معالجة الواقع المصري المعقد في ظل جملة من المتغيرات الدولية العاتية، بعد سنوات طوال من اغتيال السادات، لكن الشخصية الرئيسة في الرواية، الأستاذ متولي عجورة، واحد من ضحايا العهد الساداتي: "كانت ظروف البلد قد تغيرت مع قدوم الرئيس السادات، وفقد الأستاذ متولي وظيفته، وأصبح من المغضوب عليهم، بسبب مقالاته ودراساته عن سياسات الإصلاح الزراعي الجديدة، وسياسات بيع القطاع العام والخصخصة والانفتاح، وربما بسبب أقواله على المقاهي".

شخصية وطنية نقية، تنتمي في مجال القيم السياسية إلى ما قبل ثورة ١٩٥٢، وتتمسك بالشعارات والإنجازات الناصرية الشعبية. التناقض حتمي مع السادات الذي يعيد رسم وتشكيل خريطة الوطن، ويستبعد منها كل ما يؤمن به

متولي: الإصلاح الزراعي والقطاع العام والانحياز الكامل للفقراء والبسطاء. كان لابد لأمثال متولي عجورة أن يدفعوا الثمن، وأن تتم تنحيتهم وإبعادهم وهم في ذروة القدرة على العطاء الوطني.

ليس من بديل أمام العاديين من الناس إلا معاداة السادات واستمرار ولائهم الفكري والعاطفي لعبدالناصر، و"أبوطرطور" مجذوب تجمع شخصيته بين الهزل والجد، ويعبر سلوكه الغرائبي عن موقف سياسي غير مباشر. هتافه الجهير تجسيد لآراء الكثيرين بعد رحيل عبدالناصر والسادات معا: "فجأة هتف أبو طرطور بصوت جهير"

-عاش جمال عبدالناصر. يسقط أنور السادات.

لا الضرب نفع ولا التهديد بقتله نفع".

إنه "هتاف الصامتين" الذين يبكون الأحلام الضائعة في العهد الناصري، ويلعنون السياسات الكابوسية التي ينتهجها السادات.

الفصل السابع

رءوف مسعد

في روايتيه "بيضة النعامة" و"مزاج التماسيح"، يقدم رءوف مسعد رؤى مختلفة عن قضايا شائكة يتملص الكثيرون من الاقتراب منها، فضلا عن اقتحامها. الدين ورجاله، الجنس بأشكاله، النظام الاجتماعي الذي يتضمن السياسي ولا يقتصر عليه؛ ساحات لمعالجة جريئة شجاعة تجتهد في التحليل بغية الوصول إلى أسباب وجذور الهموم المتراكمة، لكن الكاتب لا يزعم احتكار الحقيقة والوقوف على حافة اليقين.

رءوف مثقف ذو تاريخ سياسي، لكنه لا يتواصل مع الواقع المصري ومتغيراته وتحولاته عبر منطلقات نظرية سابقة التجهيز، بل إنه يسعى إلى الفهم والإدراك من خلال الاحتكاك المباشر والتأمل، ومن هنا يحتل السادات في عالمه الروائي مكانة تستمد مفرداتها من الآثار التي تترتب على سياسته وتوجهه. المسألة ليست فردا تتبخر آثاره وتتراجع بعد الموت، فهي نظام يبقى ويمتد بعد غياب رأسه ورمزه.

في مقدمة الطبعة الأخيرة من "بيضة النعامة"، ٢٠١٤، يكتب رءوف فقرة قصيرة دالة، تنم عن خصوصيته وتفرده، مقارنة بأبناء جيله وسابقيه ولاحقيه: "أنا قادم من "أقلية" داخل الأقلية الدينية في مصر والعالم العربي.. أعتقد أن أقليتي هذه ساعدتني كثيرا في أن أقف – كما كان كمال القلش يقول – على حذائي بمفردي".

يتجلى اختلاف رءوف في لغته التي لا تعبأ بالقواعد، وطبيعة شخوصه وأسلوبه في البناء الفني للرواية، الذي يتمرد على الأشكال التقليدية من ناحية ولا ينشغل بالبحث عن نمط ذي ملامح غير تقليدية من ناحية أخرى. في رواياته، أو لا رواياته، يختلط الذاتي بالموضوعي، وتغيب "الحسابات" التي تتعلق بما يُقال وما لا ينبغي – عند غيره – ألا يُقال، ويتجسد وعي الكاتب بموقفه هذا في الصفحات الأولى من "مزاج التماسيح"، النص الذي يتضمن روايتين في رواية: "يعرف المحاذير التي يواجهها كاتب مثله. حينما يختلط الخاص بالعام، الحقيقة بالحقيقة

الأخرى. الكاتب – مثله – الذي لم يحترف الكتابة، لكنه يمارسها أيضا بانتظام. خارج مؤسسة المحترفين، الذين لا يحبونه؛ لأنه يهدد وجودهم المستقر البليد الساكن، بتهوره ورعونته، وتبوله فوق خطوط التماس المقدسة".

رءوف ليس صانعا محترفا بالمعنى السيء السلبي لمفهومي الصناعة والاحتراف، حيث الكتابة وفق معايير وشروط. الالتزام عنده هو التعبير العفوي الصادق عن الحقيقة كما يراها، وهي نسبية مرواغة بالضرورة. في هذا السياق، يضيق بالسادات وتحولاته العاصفة الجديرة بالرفض الجذري والمعارضة وصب اللعنات، لكنه – في الوقت نفسه – لا يرى سلفه عبدالناصر نقيضا أسطوريا، ولا يتوهم عهده ورديا شعبيا ديمقراطيا. لم تكن هزيمة يونيه ١٩٦٧ إلا تعبيرا عن الأزمة التي تصل إلى ذروتها في حقبة السادات. على الصعيد الشخصي، لا يتعلق الأمر بالسجن والاعتقال والتعذيب، بل إن الكارثة العظمى تكمن في الانكسار الذي يطول الوطن والذات معا. في "بيضة النعامة"، تجسيد مباشر للثنائية المدمرة: "مسرحيتي الأولى يصادرها الوزير ... وزير الثقافة وقتها ثروت عكاشة.. وكان اسم المسرحية يا ليل يا عين وهي تعزو سبب هزيمة مصر في حربها مع إسرائيل سنة سبع وستين إلى الفساد الذي عشش في بطانة عبدالناصر وكنت أنا أبلها إذ صدقت ما كانت تقوله السلطات بضرورة تقبل النقد الشعبي والبحث عن أسباب الهزيمة. صادروها قبل العرض بيوم واحد.. إحساس مرير بعدم جدوى العمل السياسي وبأن سنين السجن ضاعت هباء".

لا شيء مما يؤخذ على السادات، ويستحق الإدانة بسببه، إلا وتمتد جذوره إلى المرحلة السابقة، والقهر سمة ناصرية تصل إلى ذروتها في انتهاك الحد الأدنى من حقوق المعتقلين والسجناء السياسيين: "هكذا يُترك السجين السياسي دون حماية من عائلته أو من القوانين أو من الرأي العام الدولي. بالطبع الرأي العام المصري والعربي مغشىً عليه.. فمن يجرؤ أن يتساءل عن مصير حفنة من "الخونة" اختفوا في ظروف غامضة... والدولة كلها تتحرك وراء قائدها الذي انهزم في حربين متتاليتين".

قد يكون صحيحا أن التماثل الكامل ليس واردا بين الرئيسين والعصرين، ولا شك أن المنهج الذي يتبعه السادات ليس امتدادا ميكانيكيا لتوجه عبدالناصر، لكن الإسراف في التمييز لا يبدو منطقيا مقنعا في عالم رءوف مسعد.

ينجح السادات في إجهاض القليل الذي يتبقى من الأحلام الناصرية، تلك التي يراهن عليها الشيوعيون وتدفعهم إلى تأييد عبدالناصر والتغني بوطنيته، في السجن وبعد الإفراج والعفو الرئاسي: "كنا نغني – ونحن في السجن – للسد العالي.. للكهرباء.. للأرض التي سيكسبها الوادي .. الأرض الزراعية الآن أصبحت بايرة وبدلا من زراعتها، تُنصب فوقها الأفران لصنع الطوب الذي يستخرجونه من التربة الخصبة ويحرقونها في القماين. بدأ ذلك في عصر السادات حيث تم تمصير الحلم الأمريكي في الحصول على الثراء السريع السهل".

الوهم الأمريكي، الذي يتبناه السادات ويدفع مصر إلى الهاوية، هو بديل الحلم الناصري الذي يتعثر ويتبخر حد التلاشى بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧. ثرثرة السادات الدعائية عن الحرية والديمقراطية وهدم السجون، ليست إلا مجموعة من الأكاذيب الملفقة، ذات الطبيعة الاستعراضية بلا محصول.

على الرغم من زهده في العمل السياسي المباشر، لا يتوانى رءوف عن المشاركة في الفاعليات الاحتجاجية ضد سياسة السادات. في بغداد، ١٩٧٧، أثناء عمله هناك، يسير في المظاهرة التي تندد بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد: "سرنا جميعا باتجاه السفارة المصرية. المصريون الذين يعملون في العراق.. والطلاب الذين يدرسون هناك".

معارضة رءوف رمزية غير مؤثرة، لا يمكن أن تسترعي انتباه الأمن وتستدعي المطاردة، لكن المخاوف لا تتبدد تماما، فهو مصنف بالضرورة في كتيبة المتمردين على النظام. عند العودة إلى مصر، بعد اغتيال السادات، تطل هواجس لا تحول دون الإصرار على العودة: "لم أكن أرغب أن أنفي نفسي مع الفلسطينيين وهم يُطردون من بيروت فأنا قررت الرجوع إلى مصر أرحم وليحدث ما يحدث. حتى الآن لم يحدث شيء.. يعني لم يطلبني البوليس أو المباحث لسؤالي عما كنت أنشره في بيروت ضد السادات الذي كان قتله برصاصات الإسلاميين الأصوليين كما يسمونهم في الغرب. موت السادات كان السبب المباشر لعودتي بالإضافة لهروبي من بيروت بعد الغزو الإسرائيلي".

اغتيال السادات نهاية فصل في حياة الروائي، لكنه ليس كذلك على صعيد الوطن، ومن يوصفون بـ" الإسلاميين الأصوليين" هم قتلة الرئيس وصنائعه وأدواته التي تنقلب عليه وتطيح به. يسعى السادات إلى الاتجار بالدين واستثماره

في صفقة قصيرة النظر لضرب المعارضة اليسارية وإضعافها، ما يفضى سريعا إلى أسلمة شكلية للمجتمع المصري وزلزلة منظومة القيم والثوابت الثقافية والسلوكية التي تمثل جوهر الهوية، المهددة بمؤثرات خطيرة لا تتراجع برحيل السادات نفسه.

يمكن القول إن السادات هو صانع قاتليه، فلم تكن أسلمة المجتمع وتنامي الأفكار المتطرفة إلا نتيجة لمجموعة القوانين التي يشرعها الرئيس، ولا يملك القدرة على التحكم في نتائجها وإيقاف تداعياتها: "على ناصية الشارع يوجد مسجد صغير أسفل عمارة. عرفت فيما بعد أن أصحاب العمارات يقيمون هذا النوع من المساجد استغلالا للقانون الذي ظهر في عهد السادات والذي يعفيهم من نسبة كبيرة من الضرائب إذا ما خصصوا جزءا ولو صغيرا من العمارة كمسجد أو حتى كزاوية للصلاة. وقد استولى المتطرفون على هذه الأماكن في غيبة الاهتمام الرسمي باحتياجات الناس.. المايكروفون تصاحبه أصوات النحنحة وإخراج البلغم والسعال بالإضافة طبعا إلى التفسيرات الخاصة بهم".

فضلا عن الإزعاج والمشهد غير الحضاري، تكمن الخطورة الحقيقية في الأفكار التي يطرحها المتطرفون وتنتشر بفعل الفقر والجهل وغياب الوعي ولامبالاة النظام بما قد يترتب على ذلك الخطاب المتعصب المتشنج من نتائج. بمثل هذه القوانين، التي قد تبدو للوهلة الأولى محدودة التأثير، يغازل السادات مشاعر دينية أصيلة كامنة في أعماق الغالبية العظمى من بسطاء المصريين، والهدف الذي يراوده هو الحد من انتشار المعارضة اليسارية والعمل على تقليص نفوذها في الشارع. تئول السيطرة إلى المتطرفين وأفكارهم المتشددة، التي تتجاوز عداء اليسار بفصائله المختلفة إلى رفض فكرة الدولة المدنية ونبذ المواطنة.

العنصر الأهم في طوفان أسلمة المجتمع هو الاحتفاء بالقشور والشكليات، ومن هنا تتحول المشروبات الروحية إلى هدف أساس للعداء كأنها القضية الخطيرة ذات الأولوية، وهي ليست كذلك بطبيعة الحال.

في الفجالة، يرصد الراوي بعض علامات التغيير والتحول: "ذلك الوقت الغابر قبل الهوس الديني حينما كانت البيرة والبوظة (ويسكي العربجية) تُقدم في مقاه الفجالة والظاهر قبل أن يعلن السادات أنه رئيس مسلم لدولة إسلامية".

تمتد الحملة الشرسة ضد الخمور من الفجالة إلى "جروبي"، العلامة التاريخية البارزة في منطقة "وسط البلد". تئول ملكية المكان ذائع الصيت إلى إسلاميين: "أتوا بنقودهم من السعودية ومنعوا شرب الخمور في جروبي".

لا يقتصر التحريم على أحياء العاصمة، الفقير منها والغني، بل إنه يصل إلى أسوان ومحافظات مصر الأخرى. في أسوان، لم يعد نادي التجديف يقدم البيرة كالعهد به في العقود السابقة: "أطلب بيرة لكن الرجل يعتذر – بصدق – ووجهه النوبي خجلان، لم يعد النادي يقدم البيرة أو المشروبات الروحية – كما أسماها – منذ زمن. أعرف السبب لكنى أسأل مُستعبطا. ينكس رأسه للأرض ولا يجيب".

تفرض الجماعات الإسلامية سطوتها وقوانينها التي يتعرض مخالفوها للعقاب الرادع السريع، ولا تتدخل الدولة للحفاظ على هيبتها وسيادتها، بل إنها تزايد على هؤلاء المتطرفين: "وبعض المحافظين أصدروا القوانين بإغلاق محلات الخمور في محافظاتهم تملقا للجماعات وإن سمحوا ببيعها من فنادق الخمس نجوم للخواجات حتى لا يُقال عنا إننا متخلفون فارتفع سعر الخمر في السوق السوداء وظهرت المعامل الأهلية السرية التي تصنعها وتغشها ومات بعض الشريبة".

لابد من التأكيد هنا على أن الموقف من تعاطي الخمور، إيجابيا كان أم سلبيا، هو أمر شخصى خالص، لا مجال فيه للإجبار والترويع. التحريم بالعنف يفضى إلى نتائج وخيمة، والاتجار بالمشاعر الدينية على هذا النحو لا يحطم اليسار كما يتوهم صانعو السياسة قصيرة النظر، لكنه يزلزل أركان النظام الذي يهرول في طريق التنازلات، ولا يفكر في التراجع وإعادة النظر.

لا تتوقف الأسلمة الشكلية للمجتمع على تشجيع تأسيس المساجد العشوائية التي يحتلها المتطرفون، والمزايدة في تحريم بيع الخمور، ذلك أن نظام السادات يتخذ موقفا عدائيا صريحا من الثقافة والركائز التي تقوم عليها أعمدة الهوية المصرية عبر عقود متتالية: "أذهب إلى الفجالة بحثا عن بيتنا القديم. أتجول في المنطقة مندهشا ففي العشرين عاما الماضية منذ سياسة الرئيس أنور السادات لمحاربة الثقافة وتشجيع المستثمرين الطفيليين، تحولت الكتب إلى محلات قبيحة لبيع الأدوات الصحية فقد كان حي الفجالة حي المكتبات والمقاهي

والبارات اللطيفة منذ أيام اليهود والأجريج. بقية المكتبات امتلأت رفوفها بالكتب المدرسية وبعضها تخصص في ما يُسمى بالكتب الإسلامية.. هكذا أسموها".

لا تنبع هيمنة المتطرفين الإسلاميين من تنامي قوتهم الذاتية فحسب، بل أيضا لأن نظام السادات يدعمهم ويبارك توجههم ويتغاضى عن التجاوزات والانتهاكات التي يمارسونها علنا بلا ردع. تدمير الفجالة ومسخها جزء من منظومة التشويه العمدي الذي يقوم به السادات، ومن ذلك أيضا تغيير اسماء الشوارع ذات الدلالات التاريخية الثقافية، وتطل مسميات غرائبية وافدة منقطعة الصلة بالعصر والحضارة: "هكذا يعيش من تبقى من أسرة أخوالي في سيدي جابر. كان شارعهم اسمه دانتيمارو تكريما لذكرى المهندس الخواجة الذي أشرف على بناء كورنيش الإسكندرية الشهير، لكن في موجة التأسلم الأخيرة غيرت المحافظة اسم الشارع باسم عربيّ نكرة لا أستطيع معرفة من هو. ولا حتى خالي الذي يسكن في الشارع منذ أكثر من عشرين سنة".

المصريون جميعا، مسلمين كانوا أم مسيحيين، يدفعون ثمنا فادحا لسياسة السادات الذي يتحالف مع التيارات الدينية المتطرفة ويدعمها، لكن المسيحيين هم الأكثر تعرضا للقهر، ذلك أن الخطاب المتشدد يستهدفهم ويراهم أعداء لا مواطنين، ومن هنا يسكنهم الذعر وتستقر المخاوف في أعماقهم.

في زيارته لمدينة الأقصر، ١٩٨٣، بحثا عن البيت القديم الذي كان يسكنه بالقرب من الكنيسة، يجسد المشهد الذي يرصده الراوي حالة الرعب وغياب الشعور بالأمان. باب الكنيسة مغلق: "يجلس على مقربة منه بعض الجنود يغالبون السأم. ينظرون إليَّ بتوجس. يتابعونني بنظراتهم وأيديهم على زناد أسلحتهم الأتوماتيكية".

في الرحلة نفسها، بالسيارة اللاندروفر صحبة الهولنديتين: إنجلينا وجوديث، ما يؤكد شيوع الذعر: "قررنا الدوران حول أسيوط نظرا لخوف البنات من الدخول إلى أسيوط بعد انتشار الأخبار في مصر وفي الخارج عن سطوة وعنف الجماعات الإسلامية ورجمهم بالأحجار أتوبيسات السواح وسياراتهم".

أسيوط، عاصمة الصعيد ومنارة التنوير في تاريخه القريب، محتلة من قوى التطرف والإرهاب، ولا يتخذ النظام المرتعش إجراءات حاسمة للحد من نفوذ الجماعات الذي يؤكد أن الحكومة المركزية لا وجود لها. في "مزاج التماسيح"،

يتوقف رءوف أمام أسيوط وما يطولها من تحول شامل: "أصبحت مدينة شديدة القذارة مضجة مزدحمة تمتلئ شوارعها بشعارات الجماعات الإسلامية واختفت بناتها خلف الخمار، ورجالها خلف ثيابهم الباكستانية ولحاهم، أو في زراعات القصب العالية ومغارات الجبل يعدون العدة ورباط الخيل".

بعد أعوام من اغتيال السادات، تبقى الآثار الكارثية لسياسته التي تنشر التطرف والإرهاب في أرجاء مصر جميعا. يسيطر الرعب على المصريين المسيحيين الذين يتابعون الأخبار والإشاعات عن تصاعد قوة الجماعات التكفيرية المتشددة، منتقلة من التنظير إلى السلوك العملي الدموي.

الخال المتقاعد، في "بيضة النعامة"، يقرأ الصحف بانتظام: "ويسألني عن الجماعات الإسلامية. يظن أني أمتلك الأجوبة. أحاول أن أقلل من شأنهم. أريد أن أطمئنه. يسرد لي أخبار الإشاعات التي سمعها في الكنيسة عن الهجوم على بعض الكنائس في الصعيد".

المخاوف مشروعة مبررة بطبيعة الحال، والخال موظف كبير متقاعد يتسلح بقدر كبير من الثقافة والوعي، لكنه لا يملك إجابات شافية تزيح الهواجس الكابوسية التي تسكنه وتزلزله، فكيف يكون الأمر عند البسطاء محدودي الوعي؟!.

في موضع آخر من الرواية: "يقرأ الجريدة ويسألني عن الجماعات الإسلامية. يسرد لي الأخبار والإشاعات عن حرق الكنائس وعن اقتحام متاجر الأقباط. لكنه ليس بخائف. يحس بالحيرة القلق. إنه لا يفهم ما يحدث. أحاول أن أخفف من توتره بل وأسخِّف من حدة الإشاعات والتي كان مُغاليا في معظمها. يتظاهر بتصديقي. فلا يريد أحد منا أن يدخل في جدل حول هذا الموضوع".

ما جدوى الحوار الذي لا يفضي إلى شيء؟!. الحالة غامضة معقدة، ولا محصول لها إلا المزيج المدمر من الحيرة والقلق وغياب القدرة على الفهم والاستيعاب. لا شيء يتغير بعد اغتيال السادات، والنظام الذي يؤسسه الرئيس القتيل يبقى بآلياته وسماته التي يصعب التخلص منها. لا إرادة سياسية للتغيير، ولا مهرب من الاستمرار على النهج نفسه: مغازلة المتطرفين، التهاون مع الإرهابيين، الإبقاء على حالة الذعر التي يتوهم النظام الجديد – القديم أنها تمنحه الشرعية ومسوغات البقاء.

يتأسلم المجتمع المصري وفق معايير وطقوس شكلية، ويصل الانهيار الأخلاقي إلى ذروته في الوقت نفسه. الأمر ليس مستغربا أو مثيرا للدهشة، ذلك أن البطولة للفقر الذي يستشري ويصل إلى معدلات غير مسبوقة، كما وكيفا. "حكاية البنتين من البوتيك في الزمالك"، تنهض دليلا عمليا ساطعا على المصير الذي يئول إليه فقراء المصريين جراء سياسة السادات التي تنحاز طبقيا للأقلية الطفيلية، وتهمل الكتلة الشعبية العريضة كأنهم ليسوا بشرا: "هذا نوع جديد من البنات لا أعرفه، ظهر في السنين العشرة الماضية. يعملن في البوتيك عشر ساعات يوميا عدا يوم الجمعة. قالت لي نادية إن أمها تعمل شغالة في نفس العمارة. والد فريال يمتلك الكشك الخشبي الصغير على الناصية أو لعله يؤجره".

نادية وفريال تكشفان عن الوجه الآخر للمناخ الذي يصنع التطرف والإرهاب، فلا شيء على الضفة الأخرى إلا بيع الجسد الذي يتحول إلى تجارة شائعة وأداة للتحايل على التحديات المادية القاسية وليدة الفقر. عالم قوامه تجارة المخدرات وزنا المحارم والشذوذ الجنسي والتفكك الأسري؛ والبطولة للعشوائيات التي تفرز وجهي العملة.

في ديسمبر ١٩٩٢، يعلن الشيخ جابر عن قيام دولة إمبابة الإسلامية، ولم يكن إعلانه هذا إلا تتويجا لمسيرة حافلة تنتهي به إلى التحكم في الحي الشعبي وفرض القوانين التي يعتنقها على الرعايا المقيمين فيه. بعد صمت طويل تتدخل السلطة لحفظ ماء الوجه، لكن الظاهرة تكشف بجلاء عن مدى الانهيار الذي يترتب على حقبة السادات وما يصاحبها من خطاب ديني متشنج، يتحرك منفردا ويطيح بالسادات نفسه، ثم يبقى ويتوغل في ظل تقاعس وسلبية ولا مبالاة السلطة.

تعود جذور العشوائية إلى نهاية الستينيات: "لكن مع تزايد أزمة السكن في القاهرة حيث لم تعد المقابر تستوعب النازحين إليها – من الأحياء بالطبع – اتجه العشوائيون إلى مناطق الخنازير السابقة. احتلوها بوضع اليد. مجرمون هاربون من السجن أو من أحكام قضائية وتجار مخدرات. أماكن للفرجة شبه السرية على أفلام "البورنو جرافي" الممنوعة رسميا، مصانع صغيرة سرية لصنع الأسلحة لمن يدفع ويرغب في حماية نفسه في غيبة الدولة، أو في تصفية حسابات دموية قديمة. هذه مناطق لا تستطيع الشرطة دخولها أو حتى التظاهر بأنها موجودة فيها".

لا يبدى السادات اهتماما بالفقراء والعشوائية التي تتوغل وتتحول إلى داء سرطاني، ذلك أنه يعيش محلقا مع عالم الأغنياء الانفتاحيين الذين يدعمهم وينحاز إليهم، دعمه وانحيازه إلى التيارات الإسلامية التي يتوهم أنها كفيلة باستئصال اليسار، مقابل تنازلات شكلية يقدمها وتتيح لهم نشر الأفكار المتطرفة بكل الطقوس المعهودة التي تصاحبها. لا تناقض بين البلطجة والإرهاب، فالمشترك الأساس بين السلوكين هو غياب الاعتراف بالدولة وفرض القوانين الخاصة التي تتداخل وتتناغم متحولة إلى قانون واحد، يجد في الدين ملاذا وأداة للانتشار والتوسع: "إلى هناك انتقل ونشط أيضا المتطرفون الإسلاميون. الشوارع والبيوت نماذج عملية لحرب الشوارع كما أثبتت الحوادث الدامية بعد ذلك. هناك أيضا يمكن تصنيع الأسلحة وإخفاؤها. هناك أيضا يشترك الجميع في العداء التقليدي والكراهية المصرية "القومية" للدولة وأجهزتها، فلن يتطوع أحد بإبلاغ الدولة عما يحدث في غيبتها. هناك الفقر الحقيقي الذي ينبت بذور "الصراع الطبقي" الذي يمكن تحويله بسهولة إلى صراع ديني. هناك من يعيش بالعنف منذ نعومة أظفاره (أو لعلها خشونتها)، حرب الشوارع بين المراهقين،
الأسلحة البيضاء في أيدي الجميع، الكبت الجنسي الذي يجد تصريفا له في حالات الخطف والاغتصاب المنتشرة هناك. استيلاء الجهلة على المساجد وتحريضهم العلني على التمرد والعنف".

تحالف مرعب بين العشوائية والفقر والتطرف، والراية التي يقف الجميع تحتها هي العداء الأصيل العميق للدولة الظالمة اللامبالية، التي لا ترى في هؤلاء جميعا مواطنين يستحقون الاهتمام، ويحق لهم التمتع بالحد الأدنى من حقوق الإنسان. العنف المنفلت غير المحسوب، في مناخ كهذا، يبدو منطقيا مبررا: "ومع اشتداد الأزمات الاقتصادية تبرز الاتجاهات العدوانية – من المسلمين والمسيحيين على السواء – ويصبح الدين هو الملاذ الوحيد في مواجهة انهيار القيم الاجتماعية والاقتصادية".

أي مستقبل تتجه إليه مصر في ظل تفاعلات كهذه؟!. التدهور المريع بلا نهاية، وكل الاحتمالات الكابوسية قائمة مطروحة، والخيال بلا أفق.

في "مزاج التماسيح"، التي تُنشر طبعتها الأولى في العام ١٩٩٨، تصور عن المصير الذي يمكن أن تئول إليه مصر سنة ٢٠١٠: "حاولت السلطة – قبل

انهيارها الأخير – أن تحارب الميليشيات الدينية، أن تحاربهم بأسلحتهم – بالمصاحف وبالبنادق السريعة الطلقات – وخصصت مساحات وأوقات، في الميديا المقروءة، وتلك المسموعة والمرئية لدحض التفسيرات الدينية للميليشيات بواسطة مشايخ السلطة، الذين رقصوا على الحبلين، تحسبا للمستقبل. ثم جاء الوقت الذي تحرك فيه "الجنرالات" وأعلنوا "أنهم لم يستطيعوا صبرا" كما جاء في بيانهم الانقلابي الأول، وقبضوا بليل على البلد، وأعلنوا تأسيس نظامهم "المؤقت"..باسم الجمهورية العسكرية الديموقراطية"!.

لا يمكن القول إن نهاية كهذه من صنع الخيال المجنح ويستحيل الوصول إليها، ذلك أن المؤشرات جميعا تنبئ بأزمة خانقة لا تتحرك السلطة التي ترث السادات وتتمسك بنهجه لإيقافها. في أوراق الراوي عناوين دالة، تستعرض المحاور الأهم الكفيلة بالوصول إلى حكم الجنرالات وتأسيس فاشية عسكرية صريحة، تتوافق مع الفوضى والاضطراب واليأس من الإصلاح: "حوار مع صديقي الإرهابي .. هل الحكومة تريد محاربة الجماعات أم ترويضها؟.. مشايخ التليفزيون.. صحة المعلومات التي تقدمها الدولة عن الصراع بينها وبين الجماعات .. إسلام سياسي أم سياسة إسلامية؟.. مأزق الخندق الواحد مع العسكر ضد الجماعات.. الكنيسة والموقف من الأحزاب الدينية .. موقف الحبر الأعظم من الإصلاح الكنسي .. ديكتاتورية الدولة وثيوقراطية الجماعات .. وعناوين أخرى كثيرة ..".

ما تعانيه مصر في الثمانينات والتسعينيات، حيث توحش التطرف والإرهاب وأنهار الدماء، بمثابة المحصلة المنطقية لما يروج له السادات ويتوهم أنه داهية محنك يتلاعب بالجميع ويقودهم إلى حيث يريد. تغيب عنه حقيقة إنه يزلزل الوطن ويطيح بأعمدته الراسخة التي تتشكل عبر آلاف السنين.

الفصل الثامن
خيرى شلبي

يحظى السادات وعقد السبعينيات الذي يقترن به باهتمام كبير متشعب الأبعاد في عدد غير قليل من روايات خيري شلبي، ويمكن التماس المحاور الأهم في رؤيته من خلال التوقف أمام عملين روائيين: "الأمالي"، "بغلة العرش". على الرغم من الاختلاف الشاسع بين النصين من حيث البناء والتشكيل واللغة، فإنهما يشتركان في تقديم شهادة عميقة متكاملة، تكشف عن موقف الروائي من السادات وحقبته التي تحفل بطوفان من التحولات.

في ثلاثية "الأمالي": "أولنا ولد"، "وثانينا الكومي"، "وثالثنا الورق"؛ يقدم الحكاء المتمكن سيرة ذاتية شعبية حافلة بالإثارة والتشويق والحكايات الغرائبية، تنعقد البطولة فيها للخال "حسن أبو ضب"، المولود في مطلع الأربعينيات لأسرة صعيدية مدقعة الفقر، لكنه يصعد عبر سلسلة من المغامرات ذات الطابع الأسطوري من القاع الاقتصادي والاجتماعي إلى القمة، ويرتقى من حياة التشرد والصعلكة والسرقة وامتهان الأعمال الوضيعة والسجن، فإذا به من التجار فاحشي الثراء، وأصحاب المكانة السياسية بحكم عضويته في مجلس الشعب والموقع القيادي الذي يحتله في حزبي السادات: "حزب مصر العربي الاشتراكي" و"الحزب الوطني".

يمكن القول إن رحلة حسن هذه، المزدحمة بكل ما هو غريب مثير يفوق الخيال، أقرب إلى تأريخ شعبي عفوي لرحلة الوطن وتحولاته بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، حيث التأرجح بين الصعود والانكسار، والانتقال الصاعق الصادم المباغت من التحليق في سموات الأحلام الوردية الوهمية، إلى السقوط في هاوية الاتجاه المضاد المغلف بالكوابيس المزعجة المرهقة للأغلبية الفقيرة، بقدر ما أنها تثري الأقلية الطفيلية، محدودة العدد والنسبة، ذات الأنشطة المريبة غير المشروعة.

مثل السواد الأعظم من الفقراء المطحونين المهمشين، مسلوبي الحقوق مهدري الكرامة، يتخذ حسن أبو ضب موقفا سلبيا كارها تجاه السلطة، أي وكل سلطة. لا وجود للثقة في الحكومة وأجهزتها المختلفة غير الجديرة بالاحترام، ووفق

التعبير الذي يمليه: "يا ولدي الناس طول عمرها تعرف أن الحكومة لا ترد لأحد حقوقه ولا تقتص من أحد لصالح أحد!. إنها لا تتدخل إلا لفض المعارك والفتك بالجميع. ولهذا تعودنا في الصعيد أن نجنب الحكومة، فما تبدأ معركة إلا وتكون أول خطوة فيها هي قطع أسلاك التليفون حتى لا تأخذ الحكومة علما، لكي تتسع الفرصة لأن يأخذ الناس حقوقهم بأيديهم يا بوى، يقتصون لأنفسهم بأنفسهم يا بوى، أمال يا بوى!".

الاتفاق الوحيد، المنطقي المبرر، بين الخصوم المتصارعين هو إدارة الظهر للحكومة وإبعادها عن ساحة الصراع، فلا أحد يعترف بجدوى قوانينها التي لا تحقق شيئا من العدل عبر المراحل المختلفة للتاريخ المصري الحديث والمعاصر. يعى الفقراء أنهم ضحايا لمظالم السلطة التي لا تنتهي، وغاية ما تنشغل به الحكومة هو حماية الأغنياء وأصحاب النفوذ، وليس من سبيل إلى ذلك إلا بقهر وإذلال الفقراء: "نعم يا بوي، فليس يسري القانون في ديارنا إلا على الغلابة والمساكين وأبناء السبيل، هي هكذا ديارنا منذ عهد آدم وحواء: حاميها حراميها".

ما جدوى المراهنة على قوانين قوامها الظلم والانحياز الصريح الفج إلى مصالح الأقلية ذات الثراء والنفوذ؟. ليكن القانون البديل من صناعة المتصارعين أنفسهم، ولا بأس أن يكون ظالما بدوره، لكنه يعلى من شأن الأقوى في صراع تُتاح فيه الفرص للجميع، ولا متسع للشعارات الكاذبة المراوغة.

في الجزء الأول من الثلاثية: "أولنا ولد"، تتناثر إشارات غير قليلة إلى العلامتين الأبرز في المرحلة الناصرية: جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر، ويطل السادات في الجزء الثاني: "وثانينا الكومي"، عضوا نشيطا في جلسات الحشيش والسهرات الصاخبة التي يشارك فيها مع غيره من قيادات الصف الثاني في السلطة. من خلال هذا الظهور، تتردد الحكايات المثيرة عن تاريخه السياسي المزدحم بالمغامرات والمطاردات قبل ثورة يوليو، حيث العمل السري والتنقل بين أعمال متواضعة تمنحه خبرات واسعة في التمثيل والمراوغة وفنون التنكر.

في الجزء الثالث: "وثالثنا الورق"، يكتسب السادات وجودا طاغيا يمنحه البطولة الموازية لـ "حسن أبو ضب"، فكلاهما يصعد إلى مكانة غير متوقعة: الثراء المادي الفاحش بالنسبة لحسن، ومقعد الرئاسة والهيمنة الشاملة على مقدرات مصر والمصريين عند السادات.

في سنوات الزعامة الناصرية، طوال حقبتي الخمسينيات والستينيات، لم يكن السادات إلا ظلا باهتا محدود الأهمية، يشغل مراكز متواضعة بلا تأثير. الحضور الكثيف المتوهج يحتكره الرئيس عبدالناصر، والرجل الثاني في الأهمية والتأثير على صناعة القرار هو المشير عبدالحكيم عامر.

وما عداهما لا يُعتد بهم أو يوضعون في الاعتبار عند رسم السياسات وتنفيذها. بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧، ينكسر عبدالناصر و"ينتحر" المشير، ومع موت عبدالناصر تتغير القواعد والمعايير التي تسود وتهيمن في السنوات التالية للثورة. الحزن الذي يسيطر على الأغلبية العظمى من المصريين، في جانب مهم منه لا يمكن إنكاره أو إهماله، ليس إلا تعبيرا عن الشعور بالخواء والخوف من المجهول، جراء الغياب المباغت للأب الذي يحتكر الإدارة وحق اتخاذ القرار منفردا. ومن البدهي أن يترك بعد رحيله فراغا موجعا مفزعا، لا يتحتم أن يقترن بالحب.

بحكم المنصب الذي يشغله عند رحيل عبدالناصر، النائب الأول لرئيس الجمهورية، تبدو الطريق ممهدة ليرث السادات الحكم، ولا منطق هنا في الحديث عن استفتاء وإرادة شعبية يحق لها أن تنتخبه رئيسا أو تنصرف عنه: "المتوقع طبعا أن الشعب سوف يوافق على رئاسة أنور السادات! الشعب الذي لم يقل لا طول تاريخه لن يقولها فجأة لأنور السادات! وحتى لو قالها فإنها لن تصل إلى أسماع القائمين على الاستفتاء!!".

الصعود إلى مقعد الرئاسة، على هذا النحو الذي يسقط فكرة الشعب، يدين عبدالناصر أكثر مما يسيء إلى السادات. الأمر في حقيقته أقرب إلى ميراث لا يقبل التنازع حوله، وما الاستفتاء إلا عملية شكلية لإضفاء الشرعية على ما يتم اعتماده وتفعيله عمليا دون نظر إلى إرادة الشعب مسلوب الحق في اختيار حكامه. تنهال برقيات التأييد والمبايعة من رجال كل العصور والأنظمة، وهم جزء من الميراث الذي يئول إلى السادات ويحسن استثماره. حسن أبوضب نفسه، عضو في المجلس التشريعي زمن عبدالناصر، والذين يبالغون في التأييد والتهليل ليسوا من صنائع السادات، بل إنهم جزء أصيل من آليات المرحلة الناصرية التي تقترب من نهايتها.

كم يبدو "بربش" حكيما بعيد النظر، كأنه من عتاة السياسيين، عندما يجزم في ثقة أن السادات، الموصوف بـ "الثعلب الماكر"، هو الاختيار المثالي للأقوياء

القدامى الذين يطولهم الضرر والأذى في العهد الناصري، فهم يجدون فيه رجل المرحلة المناسب لاستعادة المسلوب منهم، ويعرفون أن الرئيس الجديد مسكون بجملة من الأمراض النفسية المزمنة، تعينهم بالضرورة في إحكام السيطرة والمشاركة الفعالة في صناعة السياسة المختلفة: "سيقف وراءه الأغنياء القدامى! العائلات التي ضربتها الثورة ستضحى في سبيله بالكثير وهو سيستجيب من أول نظرة لمغازلتهم لأنه مصاب بعقدة العائلة! كان يتمنى أن يكون من عائلة ذات جاه وعزوة وسلطان كعائلة عبدالغفار مثلا في بلدتهم بالمنوفية!! سوف يفتح صدره لتلك العائلات الإقطاعية القديمة ويحتويها ببسط حمايته عليها لكي يشعر بالنشوة من توافق الأقدار إذ يرى هذه العائلات

الضخمة ذات التاريخ قد أصبحت تقف بأعتابه تتمسح فيه تخطب وده وأصبح منها بمثابة السيد ذي اليد العليا والقامة الأعلى!".

أمراض السادات النفسية وثيقة الصلة بأصوله العائلية المتواضعة والنشأة الفقيرة التي تشكل شخصيته، ولا ينجح في التخلص من آثارها. حلم الانتماء إلى عائلة ذات شأن يسيطر عليه إلى درجة الهوس، فلماذا لا يكون كبيرا بحكم منصبه لكل العائلات الكبيرة؟. لا فارق هنا يُذكر بين الوهم والحقيقة. فالسادات يستعين بخياله الخصيب ليصدق أكاذيبه، والصفقة التي يعقدها دون اتفاق معلن مع العائلات القديمة تبدو متوازنة تعود بالنفع على طرفيها، ولن يُضار منها إلا الفقراء من أبناء الشعب، تلك الكتلة الهائلة التي لا أهمية لها عندما يشتعل الصراع بين السادات ومناوئيه للاستحواذ على السلطة والانفراد بها.لم يمت رموز "العهد البائد" السابق لثورة يوليو في المرحلة الناصرية، ويحتفظون بالكثير من قوتهم المدعمة بالحقد والرغبة في الثأر والانتقام. يعيشون طويلا في حالة كمون، انتظارا لمن يعود بهم إلى المكانة القديمة التي تزلزلها ثورة يوليو، وكان السادات هو القائد المنتظر لعملية الصعود واستعادة الضائع.

في طريقه إلى الانفراد المطلق بالسلطة، يواجه السادات رجالا أقوياء من المحسوبين على عبدالناصر، أو من يحسبون أنفسهم عليه عبر إعلان التمسك بسياسته وشعاراته. على الرغم من قوة هؤلاء، وسيطرتهم على التنظيم السياسي الواحد والأغلب الأعم من المواقع القيادية في السلطتين التنفيذية والتشريعية،

ينتصر السادات بفضل دهائه ومكره من ناحية وبفعل سذاجة خصومه واستهتارهم به وعجزهم الفاضح عن القراءة الصحيحة للمشهد من ناحية أخرى.

يستمد الرئيس الجديد شرعيته من الانتساب لثورة ٢٣ يوليو وتوجهاتها الاجتماعية والاقتصادية، لكنه يردد شعاراتها في حماس ويشرع في الانقلاب السريع على معطياتها وثوابتها. يطيح بمن يسميهم "مراكز القوى"، وينفرد بالسلطة دون شريك أو منافس: "أجمعت الصحف على أنها ثورة على الثورة واسمها ثورة التصحيح، هي الأخرى لها أغنيات وأناشيد، ومحمد عبدالوهاب جاهز في الحال ومن ورائه حملة العيدان والآلاتية والشعراء والأصوات.

ذلك هو الشعب المصري يا بوي: اللي يتجوز أمي أقول له يا عمي، والكتاب والصحفيون ورسامو الصور المشلفطة الذين رفعوا عبدالناصر إلى السماء السابعة رفعوا أنور السادات إلى السماء الثامنة، هات مدح هات يا رقص هات يا تلسين على عبدالناصر وثورته وذمته المالية وتسلطه وتكسيره لكرامة الشعب المصري".

سريع هو الانقلاب على عبدالناصر وعهده، وقاسية هي الحملات العاتية التي يشنها السادات وأتباعه للتنديد بالرئيس السابق الذي كان الرئيس الجديد يسير تحت رايته، قانعا بالظل والمباركة والتأييد والابتعاد عن الاقتراب من غيره.

لا جديد في انتقال ولاء حملة المباخر الذين يأكلون على الموائد كافة، لكن الجديد الخطير يتمثل في السياسة الاقتصادية الجديدة التي تنتج طبقة قوية شرسة تتوافق مصالحها مع السادات، الذي يعمل بدأب وإصرار لإلغاء كل ملامح المرحلة الناصرية.

بعد حرب أكتوبر، التي تمثل الإنجاز الأعظم للسادات، يحق للرئيس المنتصر أن يتخلص من بقايا التبعية الشكلية لشعارات عبدالناصر، ذلك أنه يستمد شرعيته وزعامته من انتصار لا فضل فيه للرئيس السابق، أو هذا ما يسعى إلى تأكيده وتكريسه والإلحاح عليه: "الحرب قلبت كل الموازين يا بوي. فرحة المصريين لم تكن تُقدر بمال وفرحتهم بأنور السادات كانت لا مثيل لها.

فجأة أصبح أنور السادات بطلا من أعظم أبطال مصر".

كان انتصار أكتوبر ١٩٧٣ رد اعتبار للمصريين المسكونين بالمرارة والحسرة بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧، لكن الإجهاض السريع لثمار الحرب يبدأ بالتحالف قصير

النظر مع الإخوان المسلمين والجماعات الدينية، والهرولة غير المحسوبة إلى السلام الذي يعني علاقات إيجابية غير مسبوقة مع أعداء الأمس القريب، الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، فضلا عن التقارب الدال مع الأنظمة العربية المحافظة المعروفة بعدائها المتطرف المتشنج لعبدالناصر وتجربته ومجمل الرؤى والأفكار التي يتبناها ويبشر بها.

طوفان التغيير، على الصعيدين الداخلي والخارجي، يفضى سريعا إلى تشكيل خريطة اجتماعية جديدة، رموزها وعلاماتها هم أولئك الذين يحققون ثراء أسطوريا لا جهد فيه أو عمل، ومن المنطقي أن يكون تأييدهم للسادات بلا ضفاف: "المهلباتية وتجار المخدرات وثعالب الأسواق والحرامية كلهم كانوا مبسوطين من السادات آخر انبساط، يقولونها لبعضهم البعض صراحة: من لا يعمل ثروة كبيرة في عهد أنور السادات سيحكم على عياله بالجوع مدى الحياة وهذا صحيح يا بوي: عصر أنور السادات عصر سهللة، عصر يا بخت من نفع واستنفع. انهب واسرق وكوم ثروة كما تشاء بأي شكل تشاء، فلن تجد من يحاسبك ما دمت تلحلحت وفتحت مخك فأعطيت للجميع من "الحب" جانبا...". الانفتاح الاقتصادي المنفلت بلا قيود، التحالف المريب المشين مع التيارات الدينية المتطرفة، الارتماء في أحضان الولايات المتحدة وإسرائيل والقوى الاقليمية الرجعية المحافظة؛ عناوين رئيسة ومفردات تطغى في حقبة السادات وتمثل العناصر الأهم في التحول الانقلابي الجذري الذي يمهد في الوقت نفسه للقضاء على السادات واغتياله في حادث المنصة. قد يكون صحيحا أن صفقات السادات وتحالفاته ذات مكاسب سريعة تدعم سلطته وانفراده بالقيادة دون شريك، لكنها خطوات قصيرة النظر جراء التفاعلات المعقدة التي تصل به إلى محطة النهاية المأسوية.

من ناحية أخرى، لا تفلح عودة الأحزاب في تحقيق الحد الأدنى من التوازن الاجتماعي والسياسي، ذلك أن الديمقراطية التي يباهى بها السادات هزيلة هزلية لا جدية فيه ولا متسع للحراك الصحي الصحيح. لأن جماعة الإخوان المسلمين هي الأقوى والأكثر تنظيما وفاعلية، فإنها تتهيأ للانقضاض على السلطة والإطاحة بحليفها المؤقت المحاصر بأكوام من الأزمات والتحديات، ولم يكن الاغتيال في حادث المنصة إلا تتويجا لهذا كله.

يشارك حسن أبوضب في احتفال السادات الأخير بذكرى انتصار أكتوبر، وتُتاح له فرصة أن يكون شاهدا على الواقعة الإرهابية غير المسبوقة: "صكت أذني أصوات جلبة العرض العسكري فأفقت، فتحت عيني، فإذا بي جالس في المنصة في مدينة نصر ثالث صف وراء الرئيس السادات. تحلف اليمين يا خال ما إن فتحت عيني حتى رأيت إحدى السيارات المصفحة تمر أمامنا في العرض ثم تتوقف؛ ومن فوقها جنود يصوبون المدافع نحونا. ظننت ذلك من ضمن العرض يا بوي؛ لكنني فوجئت بالرصاص ينطلق في وجوهنا، مصوبا على رقبة الرئيس السادات نفسه".

يُقتل السادات بأيدي أدواته وصنائعه ممن يدعمهم ويستعين بهم متوهما في نفسه الذكاء الخارق والمكر والقدرة على التلاعب بالجميع وخداعهم، ولم تكن نهايته هذه إلا تتويجا منطقيا لعقد حافل بالخلل والتخبط والاضطراب.

الشهادة التي تقدمها "الأمالي"، بأجزائها الثلاثة وصفحاتها التي تتجاوز الألف ومئة صفحة، ذات طابع شعبي مغلف بسحر الأساطير، وقوامه حكايات شتى متداخلة متشابكة، تجمع في طياتها بين السياسي والاجتماعي والنفسي تحت مظلة إنسانية رحيبة، تنعقد البطولة فيها للمهمشين والمنبوذين.

في "بغلة العرش"، تستمر الشهادة التي يقدمها خيري شلبي عبر شكل روائي مختلف. يحظى السادات بموقع مهم في عالم الرواية التي ينهض بناؤها على حكاية شعبية أسطورية عن هبوط الثراء بشكل قدري، يصعد بالفقراء من القاع إلى القمة بلا تمهيد. ما أكثر الفقراء في المرحلة التاريخية التالية للسادات، لكنه المسئول بسياسته عن تضاعف أعدادهم. إنه من يهدر الآمال المعقودة على انتصار أكتوبر، والمسئول عن التحول المدمر الذي يطول المجتمع المصري بفعل الانفتاح الاقتصادي وهيمنة رموزه من الفاسدين المسلحين بقيم النهب والسلب. البطولة في عصره لأغنياء يستمرون بعد اغتياله، وما ثرواتهم الطائلة إلا ثمار تجارة الحشيش وتبوير الأراضي الزراعية وأعمال التهريب وكل ما هو غير مشروع من الأنشطة. تتعرض القيم التقليدية الموروثة لزلزال يطيح بكل ثابت مستقر في العهود السابقة، وتطل منظومة أخلاقية جديدة تتوافق مفرداتها مع الانهيار الشامل والامتهان الذي يتعرض له الإنسان المصري فيفقد كل ولاء وانتماء.

يفقد الضابط المهندس عدلي بقوش ساقيه في حرب أكتوبر، الملحمة البطولية الجديرة بالفخر والمباهاة، لكن النتائج السياسية والاجتماعية المترتبة

عليها لا تنسجم مع حجم التضحيات والأحلام. يعتز عدلي ببطولته فادحة الثمن، ولا تسكنه مشاعر الغبن والتعاسة، لكن الأمر يختلف بعد سنوات قلائل، تشهد تحولات خطيرة موجعة: "لم أشعر بأنني قد خسرت حياتي، وأنني قد غُرر بي إلا في هذه السنين الأخيرة منذ أن باعنا أنور السادات لأمريكا، لكي تجعل منا جوالا قديما تفرشه تحت مؤخرة إسرائيل، ثم سلمنا للصوص والوكلاء والسماسرة. لقد حاربت وبُترت ساقاى لكي يغتني توفيق عبدالحي من إطعامي بالفراخ الفاسدة وبولوبيف الكلاب، ويغتني الحاج على داود، وصبيحة، والريان، وكل تجار الرقيق الأبيض. مصر كلها كانت خرجا مليئا بالذهب محمولا فوق ظهر السادات الذي توجه به إلى الموعود الأمريكي الإسرائيلي ومن فوقه رءوس قتلانا الأبطال".

المصريون البسطاء من الجنود والضباط هم صانعو إنجاز أكتوبر الذي لا يمكن التشكيك فيه والاستهانة به، وإدارة السادات السياسية تحول المسار وتقود الوطن وأبناءه إلى هاوية السقوط: سلام وهمي يرادف التسليم والتبعية، طبقة طفيلية تفيد من فوضى الانفتاح وتثري عبر إفقار الأغلبية الفقيرة منذ البدء، زراعة المرارة والإحباط واليأس، المغلف بالزهد واللامبالاة والانصراف عن الشأن العام، ما يمنح الحياة مذاقا ماسخا.

في ظل هذا المناخ المسكون بالخلل والاضطراب، يتراجع الإحساس العام ببطولة عدلى وعظيم تضحيته، ولا شيء يبقى سوى الجسد العاجز وصدمة التحول الذي يطول الجميع ولا يسهل استيعابه والتعايش معه. الأزمة ليست ذاتية خالصة بطبيعة الحال، والمحنة لا تقتصر على عدلي أو أفراد بعينهم، ذلك أن الانقلاب الشامل موضوعي في المقام الأول، تمتد آثاره إلى عموم الوطن ومنظومة القيم التي تحكمه وتتحكم في إيقاعه: "بل سرعان ما تحولت حرب أكتوبر نفسها إلى تمثيليات ساذجة تبثها الإذاعات مرة في كل عام! تحولت إلى ذكرى باهتة غير مستحبة وإن بالغت أجهزة البث في زفها بسخافات من الأغنيات السمجة والخطب الجوفاء والبزات العسكرية الحافلة بالرتب والنياشين!".

لا شك أن السادات هو المسئول الأول عن عملية الإجهاض المؤلمة التي تطيح بالأحلام الوردية بعد ملحمة العبور، ولا شك أيضا في مسئوليته عن تشكيل الخريطة الجديدة بفعل توجهاته الاقتصادية وانحيازه الاجتماعي الذي يدير الظهر للكتلة الشعبية الفقيرة، متوحدا مع كتيبة الفاسدين المستغلين الذين يحظون

برعاية النظام وتشجيعه. ليس مثل كلمات الراوي في التعبير عن الإطار العام الذي يحكم سنوات رئاسة السادات، ويسهم في بناء المستقبل القريب الشبيه في اضطرابه وكآبته لملامح العصر الساداتي: "ينتابني الضيق.. أي مستقبل يمكن أن نتوقعه.. لأي عمل جاد في هذا الزمن المليء بالانحطاط والفساد، وكائنات حمقاء لا هم لها سوى الأكل والشرب والنكاح والتكاثر بصورة جنونية مخيفة؟".

ينتمي الراوي إلى جيل يعاصر الحرب وما قبلها، وبفعل ثقافته ووعيه يملك القدرة على الرصد والتحليل الذي لا يجنح إلى الإسراف الانفعالي غير المحسوب، أما الجيل الأصغر والأقل خبرة وإدراكا، ممثلا في باهر ابن شقيق عدلي، فيندفع أفراده في درب مختلف، يعبر عن طبيعة المناخ السلبي المترتب على سياسة السادات وجملة التحولات التي يقودها في اندفاع يطيح باستقرار المجتمع: "كيف يصدق أي كلام عن القيم يسمعه أو يقرؤه؟!..

ها هو ذا يرى البلاد تفتح أحضانها لكل لص ونشال ونصاب وأفاك!!..

ها هي ذي البلاد قد نكلت بعمه وبأمثاله أشد التنكيل حينما صعقتهم بصلحها مع العدو!.

أسوأ جيل هو ذلك الجيل الذي انشرخ بين زمانين متناقضين أشد التناقض لا تفصل بينهما سوى برهة قصيرة كتلك التي يهوى فيها نجم أو يحترق كوكب أو تتزلزل الأرض!..

في الصبح كان هذا الجيل يتأهب لملاقاة فاصلة مع العدو الأثيم، ذلك اللقاء الذي ظل يكرس له طول حياته يستعد لاسترداد دم أبائه الذين استلبتهم رصاصاته! في المساء فوجئوا بالعدو يمشى في شوارع بلدتهم آمنا تحت حراسة الجند، يجلس في الحانات يستبيح ما كان محرما على أبنائها!

كيف بالله عليكم ننتظر من مثل هذا الجيل التعيس أي استقامة أو رجاء؟! بله أن نلومه أو نسخط عليه؟!".

باهر، على الصعيد الفردي، جدير بالإدانة والازدراء جراء سلوكه المستهتر وانتهازيته المقيتة، لكن الجانب الآخر الذي لا ينبغي إهماله يتعلق بالأجواء الاجتماعية الموضوعية التي ينشأ فيها، حيث هيمنة اللصوص على مقدرات الوطن، وتصالح النظام مع أعداء الأمس القريب، والسيطرة الطاغية للازدواجية

صانعة الخلل والاضطراب. ليست المسألة في تبرئة الفرد أو إدانته، لكنها في ضرورة الوعي بجملة المؤثرات الضاغطة التي تسهم بالضرورة في تشكيل شخصيته.

يؤسس السادات لانهيار شامل يتجاوز سنوات حكمه، ويشكل قواعد نظام دعائمه الفساد والجشع والأنانية، وهو نظام لا ينتهي باغتياله. نجار السواقي عبده الجحشة، يرسم لوحة بالغة الدقة والعمق عن طبيعة التحول العاصف وأثاره الكارثية: "ناس كثار في بلدتنا أصبحوا أغنياء فجأة من دون أسباب معلومة أو مفهومة. على أيامنا كان المرء يغتني بعد عمر طويل من الكفاح والشقاء في التجارة أو الحرفة، أما اليوم فإن المرء يغتني في غمضة عين. فجأة ترى الشخص قد ظهرت عليه النعمة بشكل يغيظ. والمضروب على عينه أنور السادات يقول لنا لا تحقدوا! فكيف لا نحقد يا ابن الل ..؟! الحمد لله أن الولد الإسلامبولي نشَّه وأراحنا منه، لكن جرثومته بقيت عملت لنا مزرعة حرامية..".

اغتيال الإرهابيين للسادات ليس حلا بطبيعة الحال، وما يمثله البديل الإسلامي القاتل أعظم خطورة من السادات. الكلمات التي يقولها النجار المأزوم بمثابة التنفيس عن الغضب العارم الذي يسكنه، ووسيلة للاحتجاج العفوي على تصاعد نفوذ الفاسدين الذين يصعدون إلى القمة الاقتصادية والاجتماعية بلا عناء، وعبر أعمال مريبة مشينة غير مشروعة، لا يتصدى لها النظام ويعاقب القائمين بها، بل إنه يدعمهم ويشجعهم ويباركهم كأنه شريك في النهب والإفساد.

الانفتاح الاقتصادي، على النحو الذي يتم العمل به في السبعينيات، هو الآفة الكبرى في منظومة السياسة الداخلية للسادات. قاطع الطريق عبدالسلام، الذي تطارده الأجهزة الأمنية، يشعر بالدونية وقلة الحيلة عندما يقارن نفسه بقطاع الطرق الجدد الذين ينتشرون ويسيطرون مسلحين بآليات مختلفة في عمليات السرقة والنهب العلني، دون تفكير في الاختباء والتستر: "قاطع طريق انا كما يصفونني.. والله إني لطفل يلعب أمام اللصوص الذين انتشروا بيننا هذه الأيام يمصون دمنا يقطعون رقابنا".

التقليديون من قطاع الطرق، مثل عبدالسلام، لا خطورة لهم ولا يمثلون النماذج المرعبة الأكثر أهمية في التمرد على القانون. اليقين الراسخ في أعماق عبدالسلام هو تفوق رجال الانفتاح أصحاب القدرة على النهب والبطش بأدوات تحقق أرباحا طائلة ولا تعرضهم لشيء من المساءلة والمطاردة.

راضى أفندي العسلى مواطن مثالي بكل ما تعنيه الكلمة، فهو إنسان شريف جاد، ومعلم ملتزم ينفق عمره في خدمة مجتمعه المحلي والعمل على تنميته والنهوض به، لكن طوفان التغيير يدفعه إلى طرح تساؤلات مبررة تنم عن خطورة الأزمة: "لو كنت أعلم أن الزمان سينقلب على دماغنا هكذا بمجيء وجه الشؤم أنور السادات لامتنعت عن شقاء الدراسة واشتغلت زبالا، ولأصبحت الآن مليونيرا مثله..

دعك من الزبال فهو ليس أسوأ من غيره. المصيبة أننا أنفسنا قد صرنا قمامة؛ وغدت ديدان الأرض تأكلنا ممتعضة من طعم لحمنا المزز الفج".

الطبقة الطفيلية الشرسة، التي تنمو وتترعرع في ظل السادات وبرعايته، لا تنتهي أو يتراجع نفوذها بعد اغتياله، وكذلك الأمر بالنسبة لمنظومة القيم التي تفرض إيقاعا متوحشا لا يسهل التصدي له وإزاحته في العقود التالية: "كم عدد الذين نهبوا الملايين وهربوها ثم هربوا هم أنفسهم وراءها إلى الخارج؟ إنهم بعدد أوراق الصحف منذ قيام حكومة الانفتاح إلى اليوم..".

انقلاب السادات ذو آثار كارثية وخيمة، ولا تقتصر تداعيات الزلزال المدمر على الجوانب المادية وحدها، ذلك أنها تمتد ايضا إلى الساحتين الأخلاقية والنفسية، ما يفضى إلى ظهور أجيال لا تملك القدرة على القراءة الصحيحة لمعطيات الواقع، ولا تعرف تفسيرا لما تكابده وتتعذب به، فضلا عن أنها لا تراود بديلا تتشبث به في مواجهة الانهيار الشامل الذي يطول التعليم والثقافة والإعلام.

بكري خليفة من أعلام وعلامات مرحلة الانفتاح الاقتصادي في القرية، وليس مثل صعوده السريع المريب لتجسيد الأزمة التي تصنع المرارة في نفوس عارفي رحلته ومسيرته. لم يكن إلا مساعدا كسولا للبنا محمد داود، الذي يتخلص منه يائسا: "فلما خلصت حرب اكتوبر وانتهى محمد أفندي من رفع العلم انقلبت الأحوال في البر المصري كله؛ إذ قال الرئيس السادات: لا حرب بعد اليوم، واصطلح مع إسرائيل وحده، وجعل مدينة بورسعيد الباسلة مفتوحة لتجار العالم؛ فكل العاطلين في بلدتنا أصبحوا يسافرون إلى بورسعيد لتهريب البضائع وبيعها في السوق السوداء. صرت أسمع كل يوم أن بكري خليفة يبيع كذا وكذا: الملابس المستوردة، أطقم الصيني للعرائس، المسجلات، شرائط الفيديو.. أصبح اسمه على

كل لسان في كل دار؛ فهو يجيئك بالبضاعة لحد الدار فيأخذ ما معك والباقي تدفعه على مهلك".

ينتقل بكري من خندق العاطلين المعدمين غير الجديرين بالثقة في مجتمع القرية، إلى واحد من القادة الأعظم نشاطا في كتيبة المهربين المتاجرين في السوق السوداء. يبيع أي وكل شيء، ويقدم إغراءات مزروعة بالألغام والفخاخ لمن لا يملكون إلا القليل. ينتصر لفلسفة الاستهلاك الجنوني غير الرشيد، ويجعل اقتناء ما لا يلزم ويمكن الاستغناء عنه هدفا يسعى إليه الجميع ويضحون في سبيله. أغنياء الانفتاح هؤلاء طفيليون ينشطون بلا كلل في ساحات العمل غير المشروع، وتمتد جذورهم إلى ما قبل السادات.

يتحايل بعض أثرياء عهد ما قبل ثورة يوليو على سياسات المرحلة الناصرية، ويحتفظون بجانب كبير من ثرواتهم، ثم يعودون بعد غياب قصير متمتعين بكل ما تمنحه قوانين الانفتاح من مزايا، وفي الطليعة منها تحويل عمليات النهب والسرقة والخداع إلى أعمال مشروعة: "لفَّت الأيام وعاد في عصر الانفتاح ليخدم بلاده – أي يستنزف دمها المستباح – بمشروعات استثمارية معفاة من الضرائب عبارة عن مصانع للبسكويت وتعبئة المياه الغازية والشاي المضروب .. يشتري ثلاثة أرباع وقت الإرسال التلفزيوني بمذيعيه ومذيعاته، يلفق الجوائز الخيالية في شقق سكنية وسيارات وأجهزة وسفر للحج والعمرة..".

هل يتحامل خيري شلبي على السادات ويتطرف في عداء عهده والتشهير به؟. الإجابة بالنفي، والرؤية التي يقدمها تتجاوز السادات – الفرد إلى السياسة التي ينتهجها وتقود إلى الهلاك والسقوط في هاوية الضياع: "الفلاح المصري في هذا العصر قد أُصيب بأخطر مرض في حياته؛ فلأول مرة في التاريخ تهون الأرض على الفلاح المصري فيفرط فيها بسهولة إما بالبيع وإما بالتجريف كأنما قد انتهى عصر الفلاحة".

تفريط الفلاح في الأرض، بيعا وتجريفا وإهمالا، وهو المعروف تاريخيا بالتشبث بها، علامة دالة على تراجع الانتماء وانهيار الأعمدة الرئيسة التي تتشكل منها الهوية المصرية عبر قرون متصلة. يتحول الثراء، دون نظر إلى مصدره ومدى شرعيته، إلى القيمة الأسمى، وتسود ثقافة الاستهلاك السفيه والاستسهال واللامبالاة، ما يفضي إلى تدمير الزراعة والصناعة معا: "الكارثة أن الصناعة التي

فرضها علينا نظام السادات المتهرئ لا تدخل مطلقا في باب الصناعة بقدر ما تدخل في نطاق المشروعات الاستثمارية؟ كل رأسمالى لص هرَّب دماء الشعب المصري إلى الخارج في زمن مضى جاء يستأنف السلب والنهب باسم الاستثمار؛ يشجع المصريين على الاستهلاك في رفاهية لا أساس لها من الواقع".

في القاع السحيق الذي يشبه الجحيم، يقبع الفقراء الذين تتضاعف أعدادهم وأوجاعهم كل يوم، ويجاورهم من كانوا إلى عهد قريب محسوبين على المستورين من أبناء الطبقة الوسطى. في دوامة السقوط هذه، لا يبدو مستغربا يثير الدهشة أن يشيع التطلع إلى ظهور "بغلة العرش"، حيث الثراء المباغت بلا عمل إلا انتظار المعجزات الخارقة!.

الفصل التاسع

علاء الديب

في كتابه "وقفة قبل المنحدر .. من أوراق مثقف مصري ١٩٥٢-١٩٨٢"، يكشف علاء الديب، في نبرة هادئة محايدة، عن موقفه من الرئيسين اللذين يعاصرهما في السنوات الثلاثين، عبدالناصر والسادات: "كانا معا من الضباط الأحرار، وأراد كل منهما أن يحقق وجها مختلفا لمصر، كان لكل منهما تاريخ وتواريخ مختلفة. وكان لكل منا موقف مختلف منهما معا. موقف معلن،أو موقف جبان".

الصياغة الموضوعية لا تكشف عن انحياز أو تحامل، لكن الاهتمام الأكبر في شهادة علاء ينصب على الحقبة الناصرية، صعودها السريع وأحلامها الوردية وأخطاؤها التي لا يمكن إنكارها، وصولا إلى الانكسار الذي يجهض كل شيء في الخامس من يونيه ١٩٦٧، المحطة الأهم التي تقصم ظهر الوطن وتضفى على المصريين ملامح جديدة لا يسهل التخلص منها، ويستحيل بعدها استعادة الضائع. على الصعيد الشخصي، يعلن علاء عن موته جراء الكارثة المدوية: "قتلتني .. من يومها وأنا ميت. لم أعش – بعدها – يوما حقيقيا كاملا".

إلى الهزيمة الكابوسية الصادمة تعود بدايات مآسى وتحولات مصر، وما السادات بكل نقائص وسلبيات عهده إلا الامتداد المنطقي لكوابيس المرحلة الناصرية دون أحلامها، والهزيمة هي الكابوس الأعظم. معها يبدأ طوفان الهجرة والهروب، ويتراجع الانتماء الوطنى، وتهيمن أشباح التشيؤ والخواء، وتتشكل منظومة القيم الجديدة المشوهة.

لا يخفى علاء الديب في شهادته مشاعر الاستياء والذهول التي تسكنه بعد زيارة السادات للقدس: "كانت صدمة كهربائية – حقا – تلك التي وقعت لي عندما زار الرئيس السادات القدس.. وأقام علاقة مع إسرائيل .. أول صدمة كهربائية في حياتي.

كانت شوارع القاهرة خالية يوم وقفة عيد الأضحى. عندما ذهب إلى هناك وكانت مليئة بالبشر عندما عاد. راقبت خطواته مذاعة بالأقمار الصناعية في التليفزيون وأحسست أن عصرا مضى وعصرا يجيء...؟.

هزيمة يونيه ١٩٦٧، السابقة بأكثر من ثلاث سنوات لرئاسة السادات، محطة فارقة ذات شأن في التاريخ المصري، والتحول الصادم إلى السلام محطة أخرى لا تقل خطورة وتأثيرا. بين هاتين المحطتين تتشكل مرحلة الانقلاب العظمى، التي تتبدل فيها القيم والأفكار والسلوكيات. الأمر في العالم الروائي لعلاء الديب ليس سياسيا تقليديا خالصا، ذلك أن البطولة عنده للانعكاسات الاجتماعية التي تصنع ايقاعا جديدا قوامه النشاز للحياة المصرية، والأخطر في هذه الانعكاسات يتمثل في حمى السفر والهجرة، وهيمنة الخطاب الديني الشكلي، المتشدد المتشنج، الذي يمثل بدوره محاولة هروبية من واقع غير محتمل.

اغتيال السادات لا يمثل خلاصا ونهاية للأزمة، وحادث المنصة في كتابه – شهادته يشبه المآسي الإغريقية، لا شيء يترتب عليه إلا المزيد من الارتباك والغموض الثقيل. لا ينتهي العهد بسقوط رأس النظام، والامتداد بعد رحيله ينهض دليلا عمليا على أن شيئا لا يتغير.

في رواية "زهر الليمون"، التي تدور أحداثها في السبعينيات، يبدو المناخ العام الذي يقدمه علاء الديب مغلفا بالانكسار والإحباط وروح الهزيمة. يقنع عبدالخالق المسيري، الشخصية المحورية في الرواية، بحياة الهامش والظل، موظفا صغيرا متقوقعا على نفسه في قصر ثقافة السويس، لكنه يرصد عبر جزئيات متناثرة شيوع ظاهرة السفر إلى بلدان الخليج العربي، وما يترتب عليها من آثار وتداعيات، تتحالف مع القيم التي يشيعها الانفتاح الاقتصادي لتتشكل لوحة كئيبة ذات أبعاد سلبية منفرة.

زميله مصطفى الكردي، المعار للعمل في المملكة العربية السعودية، يمثل نموذجا مهما في الكشف عن طبيعة التغيير الذي يطول المجتمع المصري، ويعيد رسم خريطة الواقع وفق معايير مختلفة عن تلك التي كانت شائعة في المراحل السابقة: "سمع عنه حكايات كثيرة: سمع أنه اشترى شقتين بواسطة كبيرة في المحافظة، للبنتين اللتين يعدهما معا لزواج قريب، وسمع عن الهدايا التي

يحضرها من السعودية، كما سمع أيضا أنه إلى جانب ذلك كله سوف ينشر مجموعة قصص على حسابه، قصص كتبها في السعودية".

ما الذي يمكن أن يكتبه الكردي في قصصه هذه؟!. لا شك أنها ستكون إعادة إنتاج للأفكار التي يتحمس لها ويبوح ببعضها في رحلته مع المسيري من السويس إلى القاهرة، في التاكسي "البيجو" الذي يضم الزوجة والابنتين والخطيبين الخائفين التابعين: "يرى أن البلد في أحسن حال. العمارات الجديدة والمباني في كل مكان والناس أحوالهم عال. ما ينقص البلد هو بعض الحرية والتجارة والأعمال، والقضاء على الروتين، وميراث التخلف والفقر، وآثار سنوات الارتباك والعك. إننا لم نعرف بعد كيف نستفيد من علاقتنا مع أمريكا والغرب. المواني مثلا ما زالت متأخرة جدا. لا شيء يُقارن بمواني السعودية والخليج".

مفردات الحياة الجديدة، كما يراها الكردي، تتمثل في المزيد من حرية التجارة، والتخلص من الميراث الناصري الذي يقترن عند الطبقة الجديدة بالتخلف والفقر و"العك". البطولة في الحقبة الساداتية، حيث يسود رجال مرحلته المشبعين بما يبشر به، للانفتاح على الولايات المتحدة والغرب، والمثل الأعلى الجدير بالاقتداء هو تجارب البلدان الخليجية!.

الشيخ سعيد، شقيق عبدالخالق الأكبر، أستاذ جامعي يدرس الشريعة، ومن المنتمين في شبابه المبكر لجماعة الإخوان المسلمين. لا ينجو من طوفان السفر، ويحشو حياة عائلته بالنقود: "بعد أن تغرب في البلاد العربية لخمس سنوات".

يسافر للعمل في دولة الإمارات هروبا برأيه ودينه من القمع الناصري وأحلام الاشتراكية "البلهاء" كما يقول، لكن حصيلة التجربة تبدو موجعة مؤلمة: هناك في الغربة شاخ سعيد. أوغلت به الأيام في أرض يقف فيها وحده. لم يعد يجد معنى للكلام أو الجدل. أصبح يراقب، تراكم الوقت والنقود، وعشرات التفاصيل المتعلقة بمصروفات البيت وسعر التحويل، والمدخرات والودائع".

يعود الشيخ فاقد الشهية للحياة، عاجزا عن الاندماج في إيقاع منفر لا يروقه. يرصد الانقلاب الشامل الذي يتجاوزه إلى كل ما يحيط به في العمل الجامعي، وينم عن التحول الجذري في منظومة الحياة المصرية: "يحكى له عن الكلية، وعن الدائرة الراكدة التي يتحرك فيها. حتى البحث والمناقشات في الفقه

والشريعة، أصبحت من رابع المستحيلات. إنهم يتحدثون فقط عن الملازم، وعن الدروس، وعن الإعارات والإضافي".

الأمر لا يتعلق بأفراد محدودين لهم خصوصيتهم وتفردهم، مصطفى الكردي وسعيد المسيري، ذلك أن الانكسار شائع في ظل حياة حافلة بالمصاعب والتحديات. الشيوعي القديم فتحي نور الدين يقترب بدوره من السفر إلى الكويت، لكن زوجه الطيبة الراضية فريال تعارض الفكرة في إصرار عنيد، وتعرقل تنفيذها.

موقفها هذا، بمثابة الاستثناء الذي لا يُقاس عليه ولا يُعتد به.

يرى عبدالخالق المسيري نفسه، وهو الزاهد في كل شيء إلى درجة اللامبالاة، أن "الحياة الشريفة أصبحت تحتاج إلى أنبياء، فهل يملك العاديون من الناس شجاعة الصمود ومقاومة الضغوط العاتية التي تحاصرهم؟.

يفكر المسيري: "تلك الرغبة الفاسدة المفسدة في السفر بحثا عن المال. من زرعها، وكيف تنمو هكذا في كل مكان. من الذي سيبقى إذن؟ الكل يرغب في السفر ويتحايل عليه، ومع ذلك ما زالت الشوارع مزدحمة، وما زالت المدارس تقذف بالأولاد في الفسح وفي نهاية الدورات وكأنهم قطعان غير مهذبة وغير مرعية، أين البيت؟ وأين الوطن؟.

كان يخترق تلالا من التراب ومن أكوام الزبالة، ويخوض في خرابات كانت حدائق أُقيمت فيها بيوت خشبية للإيواء السريع".

حمى السفر، بحثا عن المال وتحقيق الحد الأدنى من التوازن، مبررة بالنظر إلى الأزمة الشاملة التي تطول المجتمع المصري وتزلزل المفاهيم والقيم القديمة عن الوطن والحياة البسيطة المشبعة. لا متسع لاستمرار النمط المندثر الذي يعلى من شأن الاعتزاز بالهوية والفخر بالانتماء، والإيقاع الجديد عشوائي مضطرب قوامه تراكيب مشوهة مقززة، يروج لها التليفزيون كأنها الحقيقة المطلقة: "يخطف الأبصار والعقل بتداعيات الصور ووميض الألوان. يتكلمون فيه عن مصر غريبة، مصنوعة من ديكورات ملونة وأنوار كاشفة وصبية وفتيات يتمايلون في خلاعة ويرددون اسم مصر في أناشيد وطنية تتميز بالرقاعة".

مصر السادات، في السبعينيات، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، تختلف عن العقود السابقة. التحول العنيف يهيمن، ويفرز أفكارا وقيما مشوهة، لا تسهل مقاومتها والصمود أمام خطابها الذي ينسف القديم كله.

الحاجة زينب، في رواية "أيام وردية"، نموذج مختلف عن مصطفى الكردي وسعيد المسيري. تعود إلى المنصورة بعد سنوات من العمل الخليجي فاحشة الثراء، وتقتصر رسالتها بعد الاستقرار في الوطن على السعي الدءوب لأسلمة المجتمع وفق منهج ينتصر لكل ما هو شكلي سطحي، ولا تتورع في الوقت نفسه عن التعايش مع الفساد والانحراف، في ساحة التعليم حيث تعمل. تعبر شخصيتها عن اتجاه قوى يُولد وينمو ويترعرع في عهد السادات، ويستمر بعد اغتياله.

على الرغم من أن أمين الألفي، المثقف اليساري المأزوم والعنصر المحوري في البناء الروائي، يصل إلى ذروة المأساة الشخصية في تسعينيات القرن العشرين، فإن جذور النهاية المؤلمة تعود إلى مرحلة التحولات التي يقودها السادات، ويبقى رموز عصره فاعلين في المراحل التالية، كما يتمثل في زينب.

فقدان الألفي لزوجه، شادن البيلي، عامل مهم في صناعة الأزمة التي يعانيها، ويتحقق الفقد عبر حصار شرس تقوده زينب باسم الدين: "تمت محاصرتها منذ عامين بقيادة "أبله الحاجة زينب" وعدد من المدرسات المحجبات والمنقبات، حتى ابتعدت زوجته عنه تماما".

"أبله الحاجة زينب"، والتابعات لها من المدرسات السائرات في فلكها، ثمرة توجه السادات الذي يتحالف مع التيارات الدينية ويسمح بانتشار أفكارهم ورؤاهم. امرأة ذات نفوذ مؤثر في المجتمع المحلي، والفضل لأسلحتها النافذة: "كتاب الله، وحجابها الأنيق وذكاؤها الخارق".

لم تكن قبل الإعارة الخليجية إلا امرأة عادية لا تختلف عن غيرها من المدرسات، ويظهر وجهها الجديد بعد العودة: "كل سنواتها بعد أن عادت من الخليج كرستها لإعلاء كلمة الله وهداية عباده وفعل الخير. عرفها أمين الألفي قبل الإعارة، قبل الحجاب، وكان شعرها أحد مفاتنها".

لا شيء يثير الدهشة في حكاية زينب، فهي نموذج شائع مكرر يبدأ تشكله في السبعينيات، ويصل إلى قمة القوة والسيطرة في العقدين التاليين: "وقع عليها زوجها في صفقة سريعة صاحبت إجراءات الإعارة. هناك أنجبا – بفضل الله – رجلين، في آخر سنوات التعليم الآن. صنعا معا ثروة وعقارا. قاما معا بالحج مرات، وفعلا معا كثيرا من أعمال الخير، وأعمال الشر التي تجبرك عليها الحياة العصرية".

"رسالة الهداية" التي تتفرغ لها، قوامها الدعوة إلى الحجاب وترديد الشعارات الفضفاضة ذات البريق الديني الخلاب، ولا يتناقض سلوكها هذا مع العلاقات النفعية التي تجمعها بأباطرة الدروس الخصوصية، كأن نشاطهم التجاري الاستغلالي مما يرضى عنه الدين ويباركه!.

"تحرير" شادن و"هدايتها" يعبر عن الانتصار للتدين الشكلي والانشغال بقشور تتوافق مع سطحية الرسالة، التي تتخذ من الدين مظلة لمباركة نظام اجتماعي وتعليمي وثقافي حافل بالخلل والفساد، ولا توقف أمام معطيات التفسخ هذه.

شادن، بعد تحولها الجذري، تصطدم مع زوجها أمين الألفي، وتملأ بيت الزوجية بما ينم عن طبيعة الخطاب الذي تروج له زينب ومثيلاتها: "توغلت في أركان شقته كتب عذاب القبر بما فيها من ثعابين ومرزبات حديد مشتعلة، ومخاوف أبدية لها رائحة شواء البشر".

تنتمي زينب إلى طليعة التيار الإسلامي – الخليجي الذي يدعمه السادات، ويعمل على تغيير ملامح الهوية المصرية، بما يتوافق مع مجمل توجهات الرئيس الذي يضيق نظامه بأمين الألفي وأبناء جيله من الجادين المهمومين بالوطن وقضاياه الحقيقية، ويتم تصنيفهم في دائرة الأعداء المحسوبين على الحقبة الناصرية. الإحباط الذي يسيطر على الألفي، بعد سنوات غير قليلة من اغتيال السادات، ليس إلا تتويجا منطقيا لما يتبناه الرئيس ذو التوجه المختلف عن سلفه، وعندئذ يصل المثقف المأزوم المحاصر إلى محطة اليأس والاستسلام: "الدروس الخائبة التي يعطيها لنفسه كل يوم عن حال البلد والمجتمع والناس، تصلح للعرض في متاحف للأفكار الهزلية"!.

في الفصل الأخير من حياته، حيث المرض المزعج الذي يستوطن الجسد والروح، يقر أمين بالعجز عن الفعل والفهم معا: "لم يفهم أبدا لماذا انتصر الانتهازيون والضباع في كل مكان. لماذا انزوى كل وجه نبيل وكل قيمة شريفة؟".

مثل هذه التساؤلات المرهقة، البسيطة المعقدة، لا تنتظر إجابة نهائية حاسمة، ذلك أن الأمر من الاختلاط والغموض بحيث يستعصي على معانقة التفسير الحاسم. الصراع بين أمين وزينب، وبينهما شادن، ليس فرديا شخصيا خالصا، بل إنه ترجمة لأزمة موضوعية تتجاوز الأفراد، وكل محاولة للقراءة

الصحيحة ينبغي أن تعود إلى عقد السبعينيات؛ بداية تأسيس المنظومة القيمية الجديدة.

يرفع أمين الألفي وأبناء جيله، مضطرين مقهورين، راية الاستسلام في الحرب غير المتكافئة، ويسقطون في هاوية الضياع. تختلف المصائر بقدر ما أنها تتفق في النهاية المأسوية الموجعة. ناجي فريد، صديق أمين المقرب، يجسد مرارة الهزيمة بطريقة مغايرة: "كان ناجي فريد مهندسا وضابطا احتياطيا، اشتغل بنشاط وتفوق في إصلاح دبابات الوطن. وبعد العبور خرج من الجيش، واشتغل بنفس النشاط والتفوق في التجارة في الخليج. حقق نجاحا ماديا كبيرا، لكنه عاد بعد سنوات في صندوق داخل ثلاجة وقد تجمد شعر ذقنه الأبيض".

ابطال العبور لا يواصلون مسيرة الحلم الوطني بعد نهاية الحرب، ويسخر ناجي في رسائله من كلمة "السلام"، التي تُبتذل فيشعر بها أحجارا ثقيلة على قلبه، وصولا إلى الموت في الغربة وحيدا لا يجد للحياة معنى ومذاقا.

في ثلاثيته "أطفال بلا دموع"، "قمر على المستنقع"، "عيون البنفسج"؛ يقدم علاء الديب شهادة عميقة واعية شاملة عن تحولات الحياة المصرية، المادية والنفسية، بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧، وهي في عالمه بمثابة المفتاح الأساس لفهم واستيعاب الانقلاب الجذري الذي يتغير معه المسار وتتبدل المصائر، وصولا إلى ذروة الانكسار والانهيار في حقبة السادات وما يليها من عقود.

الدكتور منير عبدالحميد فكار، أستاذ الأدب العربي، وزوجه وطليقته الدكتورة سناء فرج، الأستاذة في كلية التجارة، هما الشاهدان اللذان يستعين بهما الروائي لتقديم إضاءة ساطعة متوجهة، صادقة مؤلمة، تتجاوز الإطار الذاتي الضيق إلى الساحة الموضوعية الرحيبة، التي تتشكل عبر هموم الأفراد ولا تقتصر عليهم.

قبل أن يلتقيا ويتزوجا، في إطار أقرب إلى الصفقة التي لا تنهض على أساس من العاطفة الأصيلة، كانا يدفعان – كل بطريقته – ثمن الاضطراب والارتباك المسيطر على مصر. لم تكن صدفة أن يقترن اللقاء الأول بينهما بالحضور السلبي للسادات، وتكتب سناء في أوراقها: "قابلت زوجي المرعب منير فكار في يوم من تلك الأيام الغريبة التي كان السادات يقوم فيها بصدمة من صدماته الكهربائية: طرد خبراء، أو حملة اعتقالات، أو خطبة من خطبه العصماء المضحكة، لم أعد أذكر..

قابلته في الجامعة، كان قد جاء في إجازة من الإعارة، أخذ يقلد السادات وأضحكني كثيرا حتى دمعت عيناي. أغلق باب الحجرة، وأخذ يقلد صوته، وحركاته، ويسمعنا بعض الأبيات التي قالها نجم ويغنيها الشيخ إمام".

السادات موضوع أثير للترفيه بالسخرية والتهكم، والثنائي أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام تعبير عن المعارضة العنيفة لسياسته التي تعتمد على الصدمات والاعتقالات والخطب العصماء. المناخ في جملته أقرب إلى الكوميديا السوداء، لكن الوصول إلى المحنة لا ينبع من فراغ، والبداية الحقيقية تولد مع هزيمة ١٩٦٧ وما يترتب عليها من تداعيات كارثية.

مع تنامي الشعور بالانكسار والإحباط وتبخر الأحلام الوردية جراء الهزيمة، يبدأ طوفان الفرار والهروب من السفينة الغارقة، وصولا إلى الذروة غير المسبوقة في حقبة السادات، حيث استفحال الأزمة الاقتصادية وتراجع الشعور بالانتماء وهيمنة الشيخوخة الروحية التي يتلاشى معها كل أمل في مستقبل أفضل. هذا ما يرصده منير وهو على عتبات السفر، مهزوما مأزوما مسكونا بالخواء: "كان طابور النمل قد بدأ يزحف خارجا من مصر، في كل يوم أسمع عن زميل هاجر، أو صديق خرج في إعارة، أو مجموعة قفزت على ظهر طائرة".

ينتشر طاعون الفرار الجماعي في أرجاء الوطن جميعا، ويتجاوز العاصمة والمثقفين إلى القرى والفلاحين، أصحاب العلاقة القديمة الوثيقة مع الأرض: "ما حدث في القاهرة كان قد امتد إلى "كفر شوق" وإلى كل مكان. طوابير النمل تفر خارجة بعد أن نكشت أعشاشها، وتصارعت بما فيه الكفاية على الفتات. كانت هناك أغان جديدة وأقوال جديدة وطعم للحياة جديد. كأن الناس صاروا يسيرون على رءوسهم".

هؤلاء الذين "يسيرون على رءوسهم"، يفرون في حقيقة الأمر من الجحيم إلى الجحيم، وفي غربتهم الاضطرارية المريرة يتخذون من ذواتهم أوطانا بديلة. تهيمن الأنانية البغيضة على أفكارهم وسلوكهم، ويزداد انفصالهم عن فكرة الوطن. ليس مثل تجربة الدكتور منير في التعبير عن قسوة المحنة الروحية التي تمثل ملمحا سائدا عن الآخرين، ويسقط الوطن جثة هامدة لا يلتفت إليها أبناؤه المستعمرون باللامبالاة: "صرت وطن نفسى. أنا مالى وأرضى وعقارى. وكل ما عدا ذلك أحبار فوق أوراق، وكلمات مضغومة في فم أدرد عجوز. شاخت بلادي وهي لم تعش

صباها بعد. أما أنا فظاهرة كونية. قوتى في وحدتي وفي تلك المسافة المستحيلة التي صارت تفصل بيني وبين الناس. صرت أراهم كنقوش جدارية ذات بعد واحد أو بعدين. هم صفحة في كتاب أقلبها وقتما أريد".

في شخصية الدكتور منير جوانب سلبية شتى تدعو إلى الاستياء والنفور والإدانة، وربما التقزز أيضا، لكنه في التقييم الأخير ضحية لتفاعلات معقدة تطول الجميع وتطيح باتزانهم وتصيبهم بأمراض مهلكة في الجسد والروح معا. قد يؤخذ عليه الكثير، وتأتي النهاية المأسوية الكابوسية لتكشف عمليا عن الثمن الفادح الذي يدفعه بعد رحلة طويلة مضنية من البحث عن اللاشيء. السعار المادي يسلب إنسانيته وينتهى به وحيدا مهمشا، يعيش حياة خاوية شبه بدائية تناقض كل ما كان يحلم به ويراهن عليه في بواكير الشباب.

لا يختلف الأمر كثيرا عند سناء فرج، دون نظر إلى اختلافها الجذري عن منير. في رحلتها متعددة الفصول، تجسيد للكارثة التي تبدأ مع هزيمة الوطن في يونيه ١٩٦٧.

مطلع عهد السادات، تعود سناء من بعثتها الدراسية في انجلترا. تصطدم بواقع جديد متجهم ذي مفردات غير مألوفة، تكشف في جملتها عن عمق الانقلاب والتحولات الصادمة: "مصر التي عدت إليها لم تعد مصر التي غادرتها، أشياء غريبة وقوية انطلقت من الحواري والشوارع والبيوت، لكي تمسح كل شيء، وتغير كل شيء. ذلك القرار الجماعي الذي اتخذته الأمة كلها بأن تهجر البلد، وتهاجر، وتذهب إلى بلاد النفط تبحث عن المال، أو عن الحل، أو تلقى بنفسها في بحار الضياع، بعيداً عن الفقر والزحام والتراب، بعيدا عن المأساة، عن العشيقة التي خانت والحبيبة التي تحولت إلى بغى".

تمتد جذور التحول إلى صدمة الهزيمة المروعة في يونيه ١٩٦٧، أما سياسة السادات فتتكفل بالإسراع في إعادة تشكيل خريطة الحياة المصرية بما يسلب من الوطن القديم كل سماته، تلك التي كانت تبدو راسخة مستقرة غير قابلة للذبول والسقوط. لا تنجو الجامعة من الوباء الذي يزلزل الأركان جميعا، وبعد زواجها وطلاقها وعودتها إلى العمل، تبدو الجامعة في عيني سناء كابوسا ضاغطا لا تطيق الاستمرار فيه ولا تحتمل التعايش معه: "الذين ذهبوا مثلنا في إعارات كانوا قد تحولوا إلى كائنات غريبة. "أسماك قرش" مفترسة، لا تعرف زمالة ولا صداقة،

علمتهم سنوات الغربة كيف يفترسون لحم إخوانهم حيا، وكيف يصعدون على أكتاف أقرب الناس إليهم، أما من لم يذهبوا فقد خنقهم الفقر والهزال، وأصبحوا يحدقون في الملابس والسيارات التي عاد بها الآخرون في بلاهة وتلمظ، كأن كل شيء في ذلك الكيان الذي كان قد انفجر في لحظة واحدة وتحول إلى أشلاء بلا منطق ولا سياق".

التوحش المتطرف سمة الحياة المصرية الجديدة، الخالية من كل قيمة إيجابية. لا متسع في المناخ غير الإنساني لمفاهيم الزمالة والصداقة ومشاعر المودة البسيطة الدافئة. لا شيء إلا الاختناق والضيق والحقد والحسد والنهم والتطلع إلى الثراء وامتلاك المال؛ المال الذي يمتلك الحالمين به ويحيلهم في قسوة إلى كائنات ماسخة مشوهة بلا هوية.

تبرهن المصائر التي يئول إليها أفراد أسرة سناء على قوة الطوفان الذي لا سبيل إلى مقاومته، والسقوط هنا ليس فرديا بقدر ما هو ترجمة أمينة دقيقة لانعكاسات الظاهرة الموضوعية التي تفرض على الجميع قانونها المدمر.

نورا، شقيقة سناء الصغرى، تتزوج تاجرا خليجيا فاحش الثراء، ولا تتردد في اتخاذ القرار المصيري الذي يقودها إلى نمط مختلف من الحياة: "خطفها من الجامعة، بعد أن سحره منظرها شبه الأجنبي. اتخذت قرارها بسرعة غريبة، وقررت أن تترك الجامعة، وتتركنا، وتترك البلد إلى حياة لا تعرف عنها شيئا، سوى أن بها كميات هائلة من النقود".

لا يختلف الشقيق الأكبر أمين عن نورا، فهو يتحول من طبيب ذي رسالة، تسيطر عليه أحلام خدمة الفقراء وعلاجهم والنهوض بهم، إلى مهاجر يفر وينجو بنفسه: "متى وكيف انسحب؟ كيف أخذ الجنسية الكندية، وأنجب أولادا شقرا لا يتحدثون العربية؟ يطلبني على التليفون مرة كل عام، يسأل عن أحوالي في خطاب نصفه استفسارات وطلبات".

الأب نفسه، المهندس المثقف الملتزم متعدد الاهتمامات، لا يفلت من المصير الذي يطول الجميع، ويتخلى عن كل ثوابته القديمة مندمجا في المناخ الجديد وفق إمكاناته المحدودة: "أخذ يتابع الأخبار في الجريدة، المال والاقتصاد، ويدرس أسعار الإسترليني والدولار بشغف واهتمام كأنه من كبار المستثمرين.

عندما تأتي نورا أختي وزوجها التاجر الخليجي كان يبدو في أحسن حالاته، لا يكف عن السؤال عن الأحوال المادية، وتقديم الاستشارات المالية المضحكة.

حلت شهوته الغريبة للمال حتى بمجرد الحديث عنه محل كل ما كان في نفسه من اهتمامات بالفنون أو بالعمارة او أبيات الشعر القديمة. ما حدث له كان يؤلمني ويزعجني كأنني أراقب إنسانا يتحول إلى قرد".

ليس الأب وحده من يتحول إلى قرد، ذلك أن المجتمع كله يشبه حديقة الحيوان، يتقافز فيها بشر مشوهون أسرى أزمة روحية طاحنة في أقفاص متباينة المساحة. التحولات المزعجة للأسرة الصغيرة لا تمثل نشازا استثنائيا، والمشترك الراسخ بين المتحولين جميعا هو إهمال الوطن وتناسيه كأنه لم يعد موجودا. الذات هي الوطن الجديد، ولا شيء ينشغل به أفراد القطيع المذعور إلا محاولة الهروب من واقع الفقر المحبط والخواء الذي يفسد الروح ويرهقها ويعكر صفوها.

يتوافق هذا كله مع هيمنة الخطاب الديني الشكلي المتشدد المتشنج، حيث مخاصمة الحياة والتنكر لها. عزة البارودي، صديقة الصبا والشباب في حياة سناء، تتحول إلى كومة من السواد لا يمكن التعرف عليها إلا من صوتها. زوجها مسئول عن عمل إسلامي خطير في الخليج، والنقاب يغطيها حتى أطراف أصابعها: "لم أعِ من كلماتها سوى كلمات الجحيم، والحريق، والعذاب. بحثت في كيانها أو كلامها عن ضحكة او ابتسامة أو نسمة حب وود قديم، لم أجد شيئا. كل شيء حولها أسود محترق، كأنها تعيش في دار خشبية تفحمت في حريق قديم".

هل يستطيع الفرد الأعزل المحاصر بأطنان من الهموم أن يتمرد على قوانين الردة الشاملة، وينجو من الحرائق المدمرة؟.

تأبى سناء فرج أن تنخرط في القطيع المشوه، وتحاول التشبث بإنسانيتها المهددة بفعل التحولات العاصفة. ترفض الاستمرار في الإعارة صحبة زوجها منير، وتصر على النجاة بنفسها من دوامة الانكسار الشائع، لكنها تكابد الفقر بمرتبها الهزيل من الجامعة، ولا تتوافق على الصعيد النفسي مع الانقلاب الذي يجعل العملية التعليمية بلا مضمون مشبع. لا بديل إلا العمل في شركة انفتاحية يملكها ويديرها الحاروني، الرأسمالي العجوز الذي ينتمي إلى جيل قديم يقدس قيمة العمل، مختلفا بفلسفته هذه عن الغالبية الساحقة من رموز الانفتاح: "الحمد لله على الانفتاح وشركات الاستثمار، والمكاتب والبنوك الأجنبية، لولاها لما وجدت

مثل هذه الوظيفة في مكتب "الحاروني" للاستيراد والتصدير، أو كان عليَّ أن أحشر نفسي في أحد المكاتب الحكومية القذرة المزدحمة، أو ألقى بنفسى في شركة قطاع عام خاسرة تبعث الحزن والكآبة. هنا مكاتب نظيفة، وأجهزة تكييف تعمل، وعلى الأقل بعض الاحترام لنظام عمل".

الحاروني استثناء لا يقاس عليه، والإعجاب الذي تكنه سناء لشخصيته الجادة تأكيد على تفرده وخصوصيته: "كأنه معجزة متحركة، أو أثر من الآثار التي تبعث الفخر في المصريين".

سياسة الانفتاح الاقتصادي، التي يتبعها السادات ويدفع المصريون ثمنها فادحا، تتويج للانهيار الذي يطيح بكل جميل أصيل في الإيقاع التقليدي للحياة المصرية. تدرك سناء أن العجوز الذي تحترمه وتحبه لا يمثل القاعدة، ولا تملك في الوقت نفسه إلا الرضا بالمتاح لها من نجاة وخلاص: "عالم المكتب كان بعيدا عن واقع البلد والشارع، كأننا في جزيرة نلعب لعبة "أتاري" مسلية، والحاروني يبدو دائما نظيف اليد عادلا، لكن لابد أن عزيز حبيبي كان سيسميه "الرأسمالي المستغل.. سارق الأحلام". أظن أن هذا لم يعد مهما الآن، كلنا نسرق أحلام بعض.. أو على الأصح لم تعد لنا أحلام".

هل من كارثة تفوق غياب القدرة على الحلم؟!.

قد تكون السياسة التي ينتهجها السادات مسئولة عن غياب الأحلام، لكنه ليس المسئول الوحيد. الجذور الكابوسية تمتد إلى سنوات سابقة لرئاسته، وغاية ما يفعله هو إزاحة أطلال الأحلام التي تذبل وتموت بعد انكسار الهزيمة.

الفصل العاشر
يوسف القعيد

"شكاوى المصري الفصيح"، أضخم روايات يوسف القعيد من حيث الحجم، ١٠٦٦ صفحة، والأكثر أهمية وجرأة في الكشف عن جوهر موقف الروائي من السادات وعصره.

توشك الرواية، في مجملها، أن تكون هجائية فنية مقذعة للسادات وما يسود حقبة السبعينيات من فساد وخلل وتفريط، وهي هجائية مباشرة صريحة على الرغم من أن اسم السادات لا يُذكر فيها مرة واحدة، لكنه حاضر بقوة عبر ألقاب ونعوت متعددة لا تعني أحدا سواه، ويحظى بالاهتمام الأكبر في المعالجة لأنه محرك الأحداث وصانع المآسي التي تكتوى بها مصر.

عند يوسف القعيد، لا تصمد حقبة السادات للمقارنة مع العهود التي تمر بها مصر جميعا، ليس لأن الأنظمة السابقة خالية من الأخطاء والعيوب والمثالب، بل لأن مرحلة السادات تفوق في سلبياتها والكوارث المقترنة بها كل حد!.

يقول "الأستاذ" للدليل المتحرك: "أنا صغير السن نسبيا. جيلك عاصر ثلاثة عهود. الملك والثورة وهذه الأيام. من السهل الحديث عن العهد الأول والثاني. كانت الأمور واضحة والمسائل محددة ودوائر الصراع مرسومة بخيوط يراها الكل. أما في هذه الأيام. فأنا أطلب منك النزول.. أن تلف أركان مصر الأربعة.. تبحث عمن يفهم حدود الصراع الدائر.. إنك لن تجد هذا الشخص.. وإن عثرت عليه.. سيكون ذلك إحدى المعجزات"!.

الصراع الطبقي يحتدم في عصر السادات، والفساد يتضاعف. لا يمكن الزعم بغياب الصراع والفساد في العهدين الملكي والناصري، حيث السلبيات والمشاكل والمآخذ التي لا يمكن إنكارها، لكن قراءة الخريطة السياسية والاجتماعية عملية ميسورة ممكنة، ورصد أوجه الصراع والقوى الفاعلة فيه متاح ممكن، أما

مصر الساداتية فأخطر ما تتسم به هو "الهلامية" التي تستعصي على التحديد والفهم. الاختلاط والاضطراب والضبابية أبرز السمات المميزة لسنوات حكم السادات، والعشوائية لا ينصرف معناها إلى سكنى المقابر وتأسيس الأحياء غير الآدمية المصنوعة على عجل، لكنها أيضا في جملة القرارات السياسية والتوجهات الاجتماعية والقوانين الاقتصادية التي تطيح بالثوابت الموروثة التي تنحاز إلى الفقراء، وتقتحم المجهول الغامض بلا حسابات أو معايير.

الذين يفيدون من عصر السادات، وهم الأقلية ضئيلة العدد والنسبة، يدافعون عن الرئيس بلا منطق، والأغلبية التي تكتوي وتتعذب بنيران الضبابية والتخبط، تدين السادات بقسوة وتجعل من عهده عصرا متفردا بمجموعة من الخصائص غير المسبوقة.

ما الذي يدفع الأسرة موضوع الرواية إلى مصيرها الغرائبي الشاذ؟. من يتحمل المسئولية: عصر السادات بتحولاته الجذرية السلبية التي تزلزل كل راسخ مستقر، أم عهد عبدالناصر الذي يرثه السادات فيغير الاتجاه والتوجه؟.

ثمة حوار بين المؤلف والناشر، ينحاز فيه الناشر إلى السادات، ويحمل عبدالناصر مسئولية التدهور المريع الذي تعانيه مصر بعد رحيله:

"- أليس عبدالناصر هو الذي أوصل العائلة إلى البيع في ميدان عام؟

- عبدالناصر؟ مستحيل.

- أليس الانقلاب العسكري الذي سُمي خطأ بثورة يوليو هو الذي قاد خطى العائلة إلى سوق النخاسة؟

- ثورة يوليو أم انقلاب مايو؟".

الرئيس الراحل عبدالناصر، بعد رحيله، هو المتهم والمسئول عن ضياع مصر وهوان العائلة المصرية المعدمة التي تعرض نفسها للبيع في ميدان عام، ولا دليل عنده على صحة الاتهام وثبوت الإدانة. فليكن ما حدث في يوليو ١٩٥٢ انقلابا أو ثورة، فما علاقة الاختلاف حول المصطلح بما يحدث في السبعينيات؟.

لا يملك الناشر موهبة الكلام والقدرة على الانطلاق السلس في حديث منطقي مقنع، والذين يملكون الموهبة لا يستطيعون الدفاع عن السادات وتجميل صورته وتبرير سياساته صانعة الإفقار، وغاية ما يجيدونه هو الانهيال على عبدالناصر وزمنه سبا ولوما وتوبيخا، مسلحين بشعارات غير مقنعة.

ثنائية عبدالناصر والسادات، الثورة والانقلاب، تفرض نفسها بالضرورة، والمسألة ليست اختلافا نظريا حول المصطلح الأكثر دقة: ثورة أم انقلاب عسكري، لكنها في معطيات الواقع وتفاعلاته المعقدة التي تقف بمصر والمصريين على حافة الانهيار والسقوط الكارثي المدوى.

المقارنة، عند الأغلبية، مستحيلة وغير واردة بين العهدين المتتاليين، والروائي نفسه يرى في المناخ الأدبي والثقافي خلال المرحلتين خير شاهد على التفاوت الشاسع: "إنها عصور الظلام والإظلام التام والعتمة. ولن يوجد في هذه العصور سوى الخفافيش الذين لم يقدروا على التواجد في نور الخمسينيات والستينيات الباهر. ثم تألقوا وفي كل منهم مدرسة متكاملة في نقد الأدب وتفسيره. وسنوات الظلام هي الموقع الخصب للخفافيش التي لا تعرف العمل في الضوء. ستكثر في مصر المذاهب والاتجاهات الخفاشية في نقد الأدب".

واقع الأدب والنقد والثقافة بمثابة "عينة" تنم عن طبيعة رجال المرحلتين وتوجهاتهم واهتماماتهم. نجوم وكهنة السنوات الساداتية هم الفاشلون الساقطون في العهد الناصري، وهم لا يقدرون على شيء، من منظور القعيد، سوى الإظلام والتعتيم، وكل ما يقترن بالخفافيش من مفردات!.

التقييم هنا لا يخلو من خلل وتطرف، مرده إلى الإسراف الانفعالي غير المحسوب، ومعه تتبخر الموضوعية ويضيع الحياد. لكنه يفيد في الكشف عن رؤية قطاع لا يُستهان به، أولئك الذين يرون في حكم السادات كابوسا يطيح بالأحلام الوردية الناصرية، ويفشل في تقديم بديل مشبع يحقق الحد الأدنى من التوازن.

في دراسة تقوم بها الجامعة الأمريكية عن ظاهرة سكان القبور، تؤكد الباحثة أن "الزحف المقدس نحو مدينة الموتى بدأ في السنة الأولى من عقد السبعينيات. عقد الازدهار والحرية. بعد عقد الستينيات اللعين".

على من تقع مسئولية الزحف: ثورة – انقلاب يوليو ١٩٥٢ بقيادة جمال عبدالناصر، أم ثورة – انقلاب مايو ١٩٧١ بزعامة السادات؟. السنة التي يبدأ فيها "الزحف" ليست شهادة ميكانيكية بطبيعة الحال، ولا شك أن هؤلاء الزاحفين يعانون قبل سنوات من ١٩٧١، لكن المفارقة الغريبة تكمن في طبيعة الشعارات التي تسود في مرحلة السادات، حيث تقف الممارسة العملية اليومية على النقيض تماما مما يُردد ويُقال!.

للسادات قاموسه الخاص ومصطلحاته الأثيرة ولغته المتفردة الكاشفة عن نمط تفكيره وملامح شخصيته: "والرئيس لا يمل الحديث عن الأمن والأمان والحرية والحياة الجديدة. ويهاجم كافة الرؤساء المحيطين به لأنه لا أمان عندهم. وينتقد الرئيس السابق. انتفى الأمان في زمانه والأمان لديَّ. والحرية في عهدي. والأمان الذي يتحدث عنه ينسحب إلى المستقبل والزمن البعيد القادم. ويتعهد بأمان الأحفاد وباب العمل. وجدار البيت والقلب والعين".

شعارات جذابة وكلمات براقة بقدر ما هي فضفاضة، لكن: هل تتفق الممارسة اليومية مع كل ما يُقال؟. هل يشعر العاديون من الناس بالأمن والأمان، ويمارسون الحرية قولا وفعلا؟. هل ينتصرون للسادات على حساب الأنظمة المجاورة وعبدالناصر الذي ينتفي الأمان في زمانه؟. لا يملك السادات نفسه أن يزعم وجود حياة أفضل في ظل رئاسته على الصعيد المادي، ولا يعد بثمار قريبة يقطفها المعاصرون المعذبون بطعنات التحول المفضي إلى أهوال الفقر والحرمان. غاية ما يبشر به هو المستقبل الأفضل للأجيال التالية، وهي وعود لا يوجد دليل عملي على صدقها، ومن الذي يحاسبه بعد عقود، عندما ينكشف الكذب والخداع؟!.

للسادات أن يقول ما يمليه عليه الخيال والوهم، ويحق لمعاصريه المعارضين أن يردوا ويفندوا ويسخروا: "أين الأمان وفي كل مكان مخبر والشوارع تبدو مرعوشة تنادي الأمان، الأمان، الأمان. وأسير في الشوارع المرعوشة على يساري مخبر وعلى يميني مخبر. أمامي مخبر وورائي مخبر وفوقي مخبر وتحتي مخبر. وأمام العين لافتات تغطي الشوارع وتتكلم عن الحريات والديمقراطية والأمان. أمان من؟ أمان القلة الجالسة فوق القمة العالية".

على الصعيدين النظري والدعائي، تطل الديمقراطية شعارا خلابا لا يمل السادات من ترديده والإلحاح عليه، وتحت مظلة المصطلح الجذاب الساحر يمنح السادات نفسه حق إفقار الكتلة الشعبية العريضة من الفقراء ومتوسطى الحال، ويطيح بمكتسباتهم الموروثة عن العهد الناصري. المحصلة النهائية مرعبة، فلا شيء في الواقع إلا القهر: المادي والسياسي معا!.

ازدواجية مزمنة مدمرة، وتناقض يدفع إلى الجنون. إزاء هذا كله، لا يملك المؤلف الحائر بروايته إلا أن يتقمص شخصية السادات ويردد مقولاته، بعد

تجربة مريرة تبرهن بشكل قاطع على زيف ما يتم إعلانه والترويج له عن حرية النشر والتعبير: "خرج المؤلف من المكتب وهو يردد بصوت عالٍ، وبطريقة لفتت نظر الكل:

- حرية الرأي والعقيدة مكفولة. أتعهد أن لا يُكبت رأي أو فكر. إن جو الحرية الموجود في هذه الأيام في مصر لم يحدث من قبل. أخيرا تحقق البند السادس من بنود أهداف ثورة يوليو الخاص بإقامة حياة ديمقراطية سليمة في البلاد..

وهو البند الذي تأخر تحقيقه ربع قرن من الزمان. لأن الذين حكموا البلاد من قبل، كانوا يخافون الرأي الآخر. ولكننا لا نخاف هذا الرأي الآخر.

هذه السنوات ستدخل التاريخ باعتبارها العصر الذهبي للديمقراطية والحرية في كل تاريخ مصر الحديث والوسيط والقديم".

الكلمات والشعارات التي يرددها المؤلف هي نفسها كلمات وشعارات السادات، والتجربة العملية التي يخوضها تكشف عن زيف وفساد كل ما يُقال: الحرية غائبة، والكبت مهيمن، والديمقراطية أكذوبة، والمعارضون المختلفون مع النظام محاصرون مقهورون يقفون على حافة الجنون واليأس معا. السخرية جلية في التقمص والتكرار، ذلك أن التجربة التي تسبق ما يُقال تضفى على المشهد كله ظلالا مأسوية سوداوية.

للسادات رؤيته الغرائبية غير السوية عن الديمقراطية "ذات الأنياب"، وهي تعنى عنده السمح والطاعة والولاء المطلق بلا تذمر أو احتجاج، أما حرية الرأي والنشر فليست إلا وهما يدرك الجميع زيفه بالنظر إلى المعاناة اليومية والحصار الذي يشتد ويفضى إلى إقصاء بلا رحمة لكل من يختلف ويعارض.

للسادات شعاراته، ولأبناء المرحلة من رافضي توجهاته شعاراتهم المضادة. أقوال الرئيس واهية لا تنهض على أساس، وما يقوله المعذبون بنيران حكمه الديكتاتوري المتسلط يتداخل ويختلط مع الخطاب الساداتي المعلن ليتشكل مزيج غرائبي، يقدم شهادة مزعجة قاتمة عن حقبة السبعينيات وما تحفل به من الأزمات الطاحنة والمآسى غير المسبوقة: "عقد الستينيات اللعين. الأحداث التالية جرت في زمن الهزيمة. وراء الشمس. أخلاق القرية. أخلاق مصر. الحب. المحبة. العائلة المصرية. شقة للإيجار بالساعة. العمل المكثف. رجل للإيجار بأي ثمن. سكان القبور. سكان القصور. عودة اسم مصر وعلم مصر. القناعة كنز لا يفنى.

"العقد اللعين" و"زمن الهزيمة" و"الحب الضائع" و"وراء الشمس"، مفردات أثيرة عند السادات، يفرط في استخدامها لإدانة عبدالناصر وحكمه الشمولي، حيث الديكتاتورية والطغيان وهيمنة الفرد ونفي الآخر المعارض، يمينيا كان أم يساريا، أما "أخلاق القرية" و"العائلة المصرية" و"المحبة"، فإنها المفردات المضادة التي يتجمل بها زمن الانفتاح الساداتي. من حصيلة الشعارات المتداخلة المتناقضة تطل المفردات المعبرة عن الواقع المعيش بتفاعلاته المعقدة: "سكان القبور" و"رجل للإيجار"، وتسود الأمثال الداعية إلى القناعة والاستسلام.

"سكان القبور" في مواجهة "سكان القصور"، والصراع الطبقي هنا ليس مقولة يسارية تتكئ على رؤى نظرية، بل إنها ترجمة دقيقة صريحة لما يحفل به الواقع الجديد من تناقضات لا تغيب أبعادها عن العاديين من الناس، أولئك الذين لا يعرفون اليسار ولا يعتنقون أفكاره، وينبع وعيهم من المعايشة التي تبرهن على انحياز النظام للأقلية وتفننه في قهر الكتلة الشعبية العريضة.

لا يملك السادات إلا أن يعادي عبدالناصر ومرحلته، ولا يجد معاصرو العهدين إلا التأمل واكتشاف ما بين الرئيسين من اختلاف. عقدان متتاليان متناقضان، وانحياز طبقي سافر للأغنياء يمارسه السادات فيثير غضب الأغلبية الفقيرة التي تعاديه بضراوة، ولا ترى في "أخلاق القرية" إلا المعاناة والقهر.

لا يستطيع السادات أن ينجو من شبح عبدالناصر وزمنه ذي التوجه المختلف. العهدان متتاليان، وتأمل الفوارق بينهما يبرر ويفسر انحياز الفقراء والعاديين من الناس إلى الحقبة الناصرية ذات الانحياز الشعبي. الأغنياء وحدهم يتعصبون لمصالحهم فيبايعون السادات، والصراع الطبقي الطاحن ينبثق منه صراع فكري يكشف عن سهولة تغيير المواقف مع تبدل العهود: "إن تعاقب الأحداث يبدو مثل الأحلام. من كان يصدق؟.. تأميم وحراسات وثورة. وإلغاء تأميم وتصفية حراسات. وإدانة نفس الثورة في أقل من ربع قرن من صفى الحراسات يدين من فرضها. والجوقة التي أحرقت البخور في مجامر من فرض الحراسة، هي نفسها التي تحرق البخور في مجامر من صفاها. كل الفارق أنهم يديرون الأسطوانة المحفوظة بالعكس. من قبل كانت تُدار من اليسار ناحية اليمين. والآن نفس الأسطوانة يديرها كذابو الزفة من اليمين ناحية اليسار. ياه. ما زالت وستبقى مصر بلد العجائب والغرائب التي لم يحوها كتاب من قبل أبدا".

رجال كل العصور يهللون لقرارات عبدالناصر "الثورية" بالحماس نفسه الذي يهتفون به لثورة "التصحيح"، ذلك أنهم لا يفكرون إلا في مصالحهم ومكاسبهم. يبررون الشيء ونقيضه، ويصفقون للحفاظ على مناصبهم وكراسيهم ونفوذهم، دون اهتمام بالأغلبية التي تعاني وتكابد وتتعذب.

السادات الفرد لا يملك وحده القدرة على الانقلاب الشامل الذي يحيل حيوات المصريين إلى جحيم لا يُطاق. يتلقى الدعم من محترفي النفاق ومدمنى الانتصار لذواتهم دون انشغال بفكر أو بمبدأ.

إنهم شركاء في صناعة الجريمة، وبراعتهم مسلوبة المنطق في التهليل والتبرير تضفي على الأجواء هزلا يفجر السخرية، ولا شيء يملكه المعارضون قليلو الحيلة إلا الرصد المغلف بمزيج من التهكم والألم والعجز.

اختيارات السادات واضحة معروفة، والقيم التي تحكم حقبته تتجسد بشكل مباشر في مقولة بسيطة الصياغة عميقة السخرية، في إطار غرائبي كاريكاتوري: "إن أسوأ خطأ يقع فيه الفقير أن يحاول أن يكون غنيا. دعوا الناس تكسب بلا حدود. صالح الفرد وصالح المجتمع. دعونا نسرق في هدوء.. دعونا نسرق في هدوء.. دعونا نسرق في هدوء.. دعونا نسرق في هدوء. العيب. القيم. مصر مصرية لا شرقية ولا غربية. لن نسمح بأي عائق يمنع تدفق السياح إلى بلادنا.

القاعدة هي الانفتاح.. وأي استثناء يعد خروجا عليها.. الرخاء قادم. بعد عامين فقط من الآن. الحرية. الحرية. الحرية. الديمقراطية. الرخاء. العدل

التام. السلطة الأولى. الثانية. الثالثة. الرابعة. الخامسة. السادسة. اكسب كما تحب وبأي وسيلة ترى. ولكن لا تقع تحت سيادة القانون".

تأميم الصراع الطبقي لصالح الأغنياء، ورفع الشعارات والمبادئ الأخلاقية الفضفاضة لتكريس الأمر الواقع وقهر الفقراء وترويضهم وإجبارهم على الخضوع لطوفان الانفتاح الذي يزيدهم فقرا. وعود كاذبة براقة، وانعزال كامل عن معاناة الأغلبية، وتدشين لذات رئاسية مقدسة هي مرادف لمصر ورمز مصون لا يجوز المساس به. وفق هذه المنطلقات، تتجلى فلسفة المرحلة وقوامها مباركة الفساد وحمايته والدفاع عنه.

فلسفة حكم السادات، كما يجسدها القعيد في روايته، تنهض على أسس مغايرة تماما لما يتم الإعلان عنه والتبشير به. النظام الحاكم هو الوطن، ومصر لا

تنفصل عن زعيمها، وهذا الزعيم فوق القانون. الحرية له وحده، ولا حرية لأعداء النظام – الوطن – الرئيس!.

الرواية المعارضة لتوجهات المرحلة لن تجد ناشرا، ذلك أنها بمثل هذا الاختلاف تهاجم نظام الحكم ورموزه: "ومن لا يقف مع النظام فهو ضده. حتى لو كان الهجوم بسيطا. ومن يقف ضد النظام لا مستقبل له على أرض الوطن. فالنظام هو الوطن. والوقوف معه يعني تأييده بالحق والباطل معا. والهجوم على سلفه والتركيز على سلبيات يوليو هو المدخل السليم للنظام الحالي.

لا توجد هوامش حقيقية للاختلاف والخلاف، ولا بديل عن الانطواء الكامل تحت المظلة التي لا تتسع إلا لمن يوافقون ويؤيدون دون تفكير أو تحفظ. "النظام هو الوطن"، والتأييد لابد أن يكون مطلقا كاملا غير مشروط، ولا يكتمل بمعزل عن رفض عبدالناصر والهجوم عليه والتشهير به.

"النظام هو الوطن"، و"الوطن هو الرئيس": "وما دامت مصر هي القائد، والقائد هو مصر، فمن يهاجم القائد فقد هاجم مصر"!.

معادلة بسيطة قدر ما هي مليئة بالمغالطات، والدمج بين مصر والسادات يصل إلى نتيجة مرعبة: الاختلاف مع الزعيم كبير العائلة يعني الهجوم على مصر وخيانة الوطن!. الوطنية الصحيحة هي الانصياع التام والطاعة العمياء والولاء الكامل الذي لا تخالطه الشكوك. من المنطقي إذا أن يكون الرئيس فوق القانون وفوق الجميع: "الرئيس فوق الجميع. في مصر شرعية وحيدة، وهي شرعية الرجل الواحد".

ولأنه فوق الجميع، فالحرية له وحده؛ حرية أن يقول ويصدر الأحكام ويصك الشعارات، ولا حرية لغيره إلا في حق الاستماع والإعجاب والتصديق والتصفيق والخضوع بلا شروط: "الحرية الوحيدة المتاحة هي حرية السيد الرئيس في ان يقول ما يريد. وحريته في ان يفرض على الناس حتمية تصديق كل حرف يقوله مهما كان. ومن لا يصدقه لابد من معاقبته بتهمة عدم تصديق الرئيس".

حرية السادات مطلقة في أن "يرسل" ما يشاء متى شاء دون انقطاع، وليس من حرية لغيره إلا في الاستقبال والتلقي، محروما من التفكير وإعمال العقل وممارسة الحق المشروع في الاختلاف وطرح البدائل.

السادات حاكم إله لا يُسأل عما يفعل، وحكيم مقدس لا يعرف ما يعرفه البشر من أخطاء وخطايا. ديمقراطية عهده لا شبيه لها أو مثيل، والحرية لا تتجاوز الشعارات الفضفاضة التي لا تتم ترجمتها إلى سلوك يمنح المعارضين حق التعبير. النتيجة الموضوعية المنطقية هي الغياب الكامل للحرية، ما يستدعي السخرية والتهكم: "لأنها حرية الحاكم في أن يضع القيود في يدى المحكوم وجعل المشنقة حول رقبته".

هذه هي فلسفة نظام السادات كما يراها يوسف القعيد، أما الوسيلة الأكثر انتشارا ومدعاة للسخرية في نشر فلسفته فهي الخطب التي لا تتوقف، وتطارد المصريين ليلا ونهارا.

في "شكاوى المصري الفصيح" إلحاح على ولع السادات بإلقاء الخطب، وتكشف الرواية أيضا عن تفنن وسائل الإعلام الرسمية في إعادة البث بحيث يتحول صوت السادات إلى "عادة" يومية و"قدر" لا مهرب منه ولا فرار: "كان الرئيس يتحدث يوميا. ولأنهم كانوا يعيدون إذاعة ما يقوله، كان يسمعه أكثر من مرة واحدة في اليوم. ابتداء من نشرة الثانية والنصف بعد الظهر، وحتى موجز الثانية من بعد منتصف الليل. والرئيس يتحدث عقب كل نشرة أخبار.

في هذا الوقت الليلي، والمؤلف يحاول أن ينام. كان الرئيس يتحدث. وكماهي العادة كان الحديث عن الحرية. حرية المواطن، حرية المواطنين، وحرية الوطن، وحرية الحرية نفسها. وكان الرئيس كالعادة به، سعيدا في غاية السعادة وإلى أبعد حدود السعادة. لأن الناس جميعا سعداء، ولا توجد في البلاد كلها مشكلة واحدة".

الخطب الإنشائية يومية لا تتوقف، والمضمون واحد لا يتغير، والموقف الشعبي سلبي ساخر يضيق بالشكل والمضمون معا. ليست هذه الخطب تعبيرا عن التواصل مع الشعب والإحساس بمشاكله والسعى إلى التصدي لعلاجها، ذلك أنها، على النقيض من ذلك تماما، تكرس فكرة الاغتراب بين الحاكم والمحكوم. يزهو السادات ويمن بإنجازات لا وجود لها في الواقع، ويسمع الشعب ويتأمل ويرصد التناقض بين القول والفعل: "كان الرئيس الذي لا مفر منه أبدا يتكلم، كعادته كل يوم. كان يقول إن البلاد في حالة من السعادة، لم تحدث من قبل، ولن تحدث بعد هذا".

سعادة وهمية لا وجود لها خارج خطب السادات المكرورة المكررة، ذلك أن الواقع الذي يعاني فيه المستمعون يقدم شهادة عكسية لا حرية فيها ولا سعادة: "كان الرئيس يتكلم في كل الليالي تقريبا عن الحرية. إما أنه يتكلم لأول مرة، أو أن الخطاب تُعاد إذاعته مرة أخرى بناء على طلب الجماهير التي أرسلت كلها تناشد وتطلب وترجو وتلح في إعادة إذاعة الخطاب مرات ومرات.

يقول ويكرر، إنه سعيد لأنه يحكم شعبا حرا. وأن الحرية المتوفرة الآن قد تعب منها المصريون. وقف المؤلف. استمع إلى الرئيس وهو يتكلم عن الحرية. قال المؤلف لنفسه: إن كلمة الحرية لم تتكرر من قبل بهذه الصورة أبدا".

"الجماهير"، بطبيعة الحال، لا تناشد وتطلب وترجو وتلح، لكن إعلام السادات يأبى إلا أن يجعل الرئيس طقسا يوميا مكروها مثيرا للغضب والاستياء، مفجرا للسخرية والتهكم.

ما أسهل اكتشاف أن الإلحاح في الحديث عن الحرية والتغني بها، بمثابة التأكيد على أنه لا وجود لهذه الحرية في الواقع.

الحرية، في الأنظمة الديمقراطية الحقيقية، حق مستقر مألوف لا تبرير للإلحاح على وجوده، ولا متسع للمن. فكيف عندما تغيب الحرية عمليا وتتحول إلى طقس كلامي إنشائي؟.

في مشهد كاريكاتوري، تكتمل لوحة السخرية الموجعة التي تكشف عن وعي الشعب بشخصية السادات المولع بإلقاء الخطب التي لا تجد استجابة وتفاعلا إلا من المؤسسات الرسمية التي تتواصل مع السادات بهزلية تؤكد عبثية الدور الذي تلعبه كديكور ديمقراطي زائف في الحياة السياسية المصرية: "أتاهم صوت الرئيس، كان يخطب. لم يتبين أحد مصدر الصوت الذي كان عاليا جدا. سأل نفسه: صوت ميكرفون أم راديو هذا؟. كان التساؤل في محله لأن الصوت كان من ميكروفون معلق فوق مجلس القرية.

كان الوقت صباحا. قال الأستاذ: هل يخطب الرئيس صباحا؟ لقد تعودنا على سماعه في أوقات الأماسى فقط. قال لنفسه: أينما تكونوا يدرككم صوت الرئيس أبدا.

قال أحد الضباط إنه يخطب في مجلس الشعب.

قال الأستاذ معلقا:

-إذن لابد من التصفيق بعد قليل.

خاف الضابط وأكمل الأستاذ:

-الرجال يصفقون والنساء يزغردون. تلك هي المهمة الأساسية".

أينما يكون المواطن يدركه صوت الرئيس، فلا مهرب منه ولا نجاة!. وعندما يُذكر "مجلس الشعب"، فإنه يستدعي على الفور وبلا تردد المبادرة بالتصفيق والزغاريد!. لا وظيفة للمؤسسة التشريعية الشعبية إلا المباركة والتأييد والهتاف والتهليل!. مجلس "الشعب" هذا لا يعبر عن "الشعب"، وتنحصر المهمة الأسمى للأغلب الأعم من أعضائه في التهليل ومبايعة الحاكم الفرد الذي يمنحهم ما يبرر مواقفهم الهزلية الهزيلة.

يستشرى النفاق الرخيص في عصر السادات، متجاوزا كل ما تعرفه مصر من نفاق في عهودها كافة.

لا يقتصر الأمر على الإعلام الرسمي الذي يفرض صوت الرئيس بلا توقف، ولا يتوقف أيضا عند أعضاء مجلس الشعب الذين يمارسون مهام التصفيق والزغاريد، ذلك أن النفاق يصل إلى ذرى وآفاق غير معهودة.

من آيات النفاق المبتذل، ذلك الاقتراح الغرائبي الذي يتقدم به واحد من أعضاء المجلس: "يطالب بتغيير اسم شهر أكتوبر ليحل مكانه اسم حقق إحدى المعجزات فيه منذ سنوات. إن الشهر يحمل اسم أحد القادة الرومان، قال العضو في حماسة بالغة، وقد تجمعت بعض نقاط العرق على جبهته. وتساءل: لماذا نستعير اسم بطل من مكان آخر؟ هل أجدبت مصر؟ هل عرف العقم طريقه إليها؟ إن هذا خطأ. يجب استبدال الاسم. لا يوجد قانون يقول إن أكتوبر يجب أن يظل أكتوبر. هناك الكثير من الأبطال. ولن يبقى اسم هذا الشهر كما هو. وقيل إن الرجل قدم اقتراحا رسميا بذلك، في إطار محاولة لتغيير كافة الأسماء في البلاد. سواء كانت أسماء أيام أو أشهر أو أماكن".

لماذا لا يحمل الشهر اسم الرئيس السادات؟!. ألم يحقق فيه معجزة حرب أكتوبر، وهي معجزة ينبغي أن تُنسب إلى جنود الجيش المصري وليس إلى فرد واحد.

لا حدود للعبث الذي يجتهد المنافقون في الترويج له بنبرة حماسية مرعبة، تكشف عن التدهور والانهيار والسقوط المريع الذي تمتد آثاره لعقود تالية.

الاقتراح الغرائبي المتطرف بتغيير اسم شهر أكتوبر ليس الوحيد الاستثنائي في منظومة النفاق، لكن فيه من الدلالة السافرة ما يغني عن غيره من الاجتهادات التي تؤكد سيادة وهيمنة الابتذال. يمتد الخوف إلى شهور العام وإلى الأماكن والمعالم راسخة الأسماء، فلا ضمانة لاستمرار الأسماء كما هي، وكتائب المنافقين تتربص في حماس منقطع النظير، ويزيد من حماسهم واندفاعهم وجود من يسمع وغياب من يردع!.

السادات مولع بإلقاء الخطب التي يردد فيها شعاراته الرنانة، وهو مستمع جيد لآيات النفاق الرخيص. كيف يمكن تفسير الظاهرة؟.

واحد "من إياهم"، يؤكد في ثقة أن "ساكن الباب العالى أديب أصلا، ويحب الأدباء ويكرمهم"!.

هل يكون حب الأدب والحرمان من ممارسته هو المفسر لإقبال السادات على الكلام الذي لا ينتهي، والخطب التي لا تتوقف؟.

ثمة تفسير آخر تقدمه الزعيمة الصهيونية جولدامائير، فهي من ترشح السادات، بعد مقابلته، للحصول على "جائزة الأوسكار في التمثيل"!.

هل يكون إدمان التمثيل هو المبرر للكثير من ممارسات السادات وسياساته؟!.

أهو أديب أم ممثل؟!.

ربما تسيطر عليه نزعة تمثيلية مغلفة بموهبة أدبية ناقصة، يتم التنفيس عنها بالكلام دون الكتابة. عندما تجتمع هوايتا الأدب والتمثيل، تبدو تصرفاته وأفعاله قابلة للفهم، ويكون عداؤه الأصيل للمثقفين وضيقه بهم منطقيا، ذلك أن هؤلاء المثقفين "الأراذل" هم حاملو لواء المعارضة والأعلى صوتا في التعبير عن الرفض لسياسته.

يتلقف المنافقون المحترفون عداء السادات لـ "أفنديات" القاهرة من المثقفين المعارضين، فتتحول الثقافة إلى "تهمة" بالغة الخطورة، ويصبح المثقفون من أعداء الوطن المستهدفين عند أجهزة الأمن: "قال المحقق إنه واحد من المثقفين. تلك الفئة التي يهاجمها الرئيس في كل خطبة من خطبه. وهي الفئة التي يقول الوزير دائما إن كل أنشطة الوزارة يجب أن تُوجه ضدها. أليس الواقف أمامه واحدا من الأفنديات. إنه الذي يقصده الرئيس. أفنديات المدن. إنه يرتدي بدلة

ويضع على العينين نظارة. وجلده ناعم. ويده لم تعرف العمل اليدوي. وهو يعيش في القاهرة، ولكن هل يستعمل التكييف؟. إن الرئيس عندما يهاجم المثقفين يتكلم عن التكييف".

الثقافة، بالمعنى الشامل للكلمة، أداة رئيسة في الحفاظ على قيم المجتمع ومنظومته الأخلاقية، وعداء السادات الأصيل للثقافة والمثقفين لا ينفصل عن مجمل سياسته الاقتصادية وتوجهه الاجتماعي. يرى في "الأفندية" الذين يعارضونه أعداء له وللوطن بالتبعية، ولا شيء تنشغل به وزارة الداخلية إلا نشاط من يشَّهر بهم السادات دائما، فهم فئة مرذولة لا تعترف بأخلاق القرية. ينتمون إلى المدن، ويرتدون البدل، ويستخدمون النظارات، وينعمون بأجهزة التكييف التي تفصلهم عن الانتماء الأصيل والولاء المطلق للزعيم الذي يتمتع ويحظى بشعبية جارفة تقترب من الإجماع، ولا ينغصها إلا معارضة المثقفين!.

السادات، في سياسته الداخلية، ذو توجه طبقي يقود إلى مزيد من الفقر والمعاناة، وهو على الصعيد الشخصي ذو نزعة نرجسية وولع بالإعلام والدعاية وميل إلى تصديق المنافقين والفخر بنفاقهم، أما الخطيئة الكبرى، من منظور القعيد،

فهي سياسته الخارجية التي تسفر عن مبادرته بزيارة القدس وتوقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل، وهذا السلام بمثابة الجريمة التي لا تقبل الغفران وتستدعي صب اللعنات بلا هوادة!.

تحظى زيارة السادات للقدس باهتمام عالمي لافت، وفتور داخلي لا يخفى.

على الصعيد العالمي، يهتم الغربيون والأمريكيون بالزيارة، وتتسابق وسائل الإعلام لمتابعة الحدث غير التقليدي، ويتحمس الرئيس الأمريكي جيمي كارتر بلا حدود: "وقيل إن ثلاثة آلاف صحفي حضروا إلى البلاد لتغطية هذه الزيارة. وإن حادث نزول الإنسان على القمر لأول مرة لم يحظ بهذا القدر من الاهتمام غير العادي من العالم كله.

وألغى الرئيس الأمريكي كارتر برنامجه اليومي لكي يشاهد الرئيس المؤمن بالأقمار الصناعية وهو يخطب في كنيست الأعداء".

تنم لغة القعيد عن موقفه المعادي، فعلى سبيل السخرية اللاذعة يوصف السادات بالرئيس المؤمن، أما الكنيست الإسرائيلي فهو مقر الأعداء الذين يزورهم.

يتسابق الصحفيون لتغطية ومتابعة الحدث الفريد، ويتفرغ كارتر للمشاهدة دليلا على إعجابه وتقديره، والشعب المصري - كما تقدمه الرواية - يعارض الزيارة أو لا يبالي بها: "وتساءل شاب في الشارع: القدس؟ هل تم تحريرها بالجيش المصري ثم رفعوا العلم المصري عليها؟ هل فعلوا هذا دون الإعلان عنه. إنه واحد من أهم عجائب هذا الزمان. فأخذوه واختفى الشاب إلى الأبد.

وفي الشوارع كانت الناس تتكلم وكان يسيل من ملامح أصواتها الخوف. وكان في حناجر الناس جرح يسيل منه الدم مع الكلمات".

هل يعبر الشاب، الذي يختفي إلى الأبد!، عن النبض الحقيقي للحياة المصرية بعد المبادرة؟، وهل تسيطر مشاعر الخوف والرفض على الشارع الذي لا يملك الفعل ويتحصن بالسلبية؟.

تصطدم رؤية القعيد هذه مع التأييد الشعبي "الرسمي" الجارف الذي يتمثل في مسيرات متدفقة لاستقبال الرئيس بعد عودته، ولا يجد القعيد إلا إشهار الأجهزة لسلاح القمع وما يترتب على ذلك من خوف، تبريرا وحيدا لمظاهر التأييد والموافقة!.

التفسير على هذا النحو ليس دقيقا مقنعا، والعامل الأكثر أهمية هو الوهم الذي يروج له الإعلام، مبشرا بالآثار الإيجابية المتوقعة من عملية السلام،

حيث يعم الرخاء والازدهار. الأغلبية المحرومة المعذبة لا تملك إلا المراهنة على ما يُقال كأنه الحقيقة اليقينية، ولا يتغير الموقف ناحية الرفض إلا بعد اكتشاف الخديعة، وازدياد الأحوال سوءا وتدهورا.

يذهب القعيد إلى أن القمع، بقسوة لا هوادة فيها، يطول كل من يعترض ويعارض: "لديهم تعليمات بإلقاء القبض على كل من قد يتسبب في حدوث أية متاعب. في هذه الأيام أو الأيام القادمة".

تعود الرواية لتلح على فكرة القبضة البوليسية التي تحول دون ظهور معارضة شعبية صريحة: "منذ سفر الرئيس وكل من هو ضد السفر ألقى به في السجون. والبلد الآن نظيفة منهم".

الأجهزة الأمنية، عند القعيد، هي المسئولة عن "تنظيف" الشارع المصري من مظاهر المعارضة والرفض، والأجهزة الحكومية المختلفة من تحشد الجماهير لاستقبال السادات. معارضة مقهورة، واحتفال مصنوع لا شيء فيه من الصدق!:

"التعليمات الواردة أنه لابد من وجود عشرة ملايين على الأقل في الاستقبال. هذا هو الحد المعقول. ولكن الحد الأدنى الذي لا يجب أن يقل العدد عنه بأي حال هو خمسة ملايين نسمة. لأن خطاب الرئيس الذي سيلقيه بعد العودة من الرحلة – والمعد من الآن – سيقول وهو يتكلم عن إنجازات الرحلة، إن الرئيس سعيد غاية السعادة لأن خمسة ملايين مصري كانوا في استقباله لحظة العودة، وإن الموكب بهذا الحجم والقدر لم يحدث من قبل في تاريخ مصر أبدا".

ألا يوجد سبب آخر لحرارة الاستقبال الذي يلقاه السادات بعد العودة من القدس؟. هل يكفى الشحن الحكومي والحشد المنظم الذي تقوم به الأجهزة الرسمية؟. كيف ينتمي المستقبلون جميعا، وهم ملايين من البشر، إلى طائفة الرافضين السلبيين المؤيدين بالإكراه دون اقتناع؟!. ترتيبات الاستقبال حقيقة لا شك فيها، وجهود الأجهزة قد تكون وراء وجود أعداء فلكية من البشر، لكن الذي لا يمكن إنكاره أن الكثيرين من هؤلاء يؤيدون المبادرة عن اقتناع، ذلك أنهم يضيقون بحيواتهم وتراودهم أحلام الانتعاش عندما يحل السلام وتنتهي الحروب والصراعات.

لا تهتم الرواية بالقطاع العريض المؤيد دون ضغط، المسكون بالأحلام دون سند من الواقع، المتحمس في براءة لما قد يترتب على الاستقرار والسلام من تغيير إيجابي يخلصهم من الأعباء.

كل ما يسعى إليه الروائي هو التأكيد على الصناعة الرسمية للاحتفال دون إيمان شعبي حقيقي بالمبادرة وصاحبها: "كانت الطبول تدق والراقصات يرقصن. المزمار البلدي، الدفوف، رجال الطرق الصوفية في حلقات كبيرة، الموسيقات العسكرية عزفت لتحية الرئيس المؤمن ومسيرات الفلاحين من كل المحافظات. وهذه المرة كان كل محافظ حريصا على الحضور مع وفد محافظته".

"مولد" مصنوع تحتشد فيه كل المؤسسات القادرة على الحشد، والمحافظون يتولون القيادة بأنفسهم، والنتيجة التي يلح عليها القعيد هي أن مظاهر التأييد والموافقة كاذبة، والرفض هو الكامن في أعماق القلوب: "وهكذا تبدو القاعدة التي تحكم كل من يعيش في بر مصر" أينما كنتم لابد وأن يدرككم موكب العائد من القدس المحتلة. كل ماضى البلاد أصبح جزءا من الموكب. حتى الهواء الذي يصل إلى الصدور أصبح مشبعا بالموكب. وشهادة الجنسية المصرية وشهادة الميلاد

وشهادة حسن السير والسلوك وتصريح البقاء في بر مصر. لا تُمنح سوى من خلال حضور الموكب".

يرفض القعيد مبادرة السادات، ويأبى إلا أن يجعل الجميع رافضين، وليس من مؤيد إلا وهو مجبر مدفوع بلا إرادة. مثل هذا المنطق لا يستقيم ولا يتوافق مع معطيات الواقع.

كانت المبادرة قرارا فرديا للسادات، الذي لم يستشر أحدا ولم يفكر في الاستئناس بآراء الرؤساء والملوك العرب!.. المذيع الأمريكي يسأل الرئيس السادات بصورة مباغتة:

"- وهل استشرت يا سيادة الرئيس شعبك قبل السفر إلى فلسطين التي يحتلها الأعداء؟

وقال المؤمن إنه لم يفكر في ذلك من الأساس. ليس لأنه دكتاتور لا يعود إلى الشعب في قراراته المصيرية والهامة، ولكن لأنه ملهم. يعرف بحسه الخاص أن هذا القرار لابد وأن يرضى به الشعب. كل الشعب.

تساءل المذيع:

- كل الشعب؟

قال المؤمن:

- تمام، كل الشعب المصري فردا فردا.

قال إنه ملهم، وقدرة الملهمين من الزعماء أن يعرفوا على البعد ماذا تريد شعوبهم ثم يحققوا ذلك على الفور".

ليست بالممارسة الجديدة على "الزعيم" الذي يتغنى بالحرية، فهو "ملهم" يعرف مصلحة "شعبه"، ويثق في تأييد الجميع "فردا فردا"!. ولأن الأمر كذلك، فما جدوى العودة إلى الشعب قبل القرارات التاريخية التي تغير المسار؟. الاستشارة ميسورة، والاستفتاء وارد، والموافقة مضمونة بإجماع يثير الدهشة!.

في دوامة حماس القعيد للإدانة، يطرح سؤالا مستحيل الصياغة عندما يُنسب إلي مذيع أمريكي، فهو يستخدم كلمة "فلسطين" بدلا من "إسرائيل"، الموصوفة بدولة الاحتلال!.

رأى الشعب في المبادرة خارج حسابات السادات، والتشاور مع العرب خارج حساباته أيضا كما يصرح في حوار مع مذيعة أمريكية: "لم أتداول في هذا القرار مع

أي من زملائي الملوك والرؤساء العرب لأن حالة الشك وفقدان الثقة لا تزال قائمة بين إسرائيل والعرب".

الشعب المصري يثق في زعيمه، والقادة العرب فاقدو الثقة في كل شيء وغير مؤهلين لإبداء الرأي، والنتيجة هي المبادرة الفردية التي يرفضها القعيد ويطرح أسبابا وجيهة للاعتراض عليها.

يقدم "الأستاذ" مبررات رفض هي الأقرب لرأي القعيد ومنطقه: "ولكن يا سيادة الرئيس بدلا من الذهاب إلى آخر العالم. نحن هنا. رعاياك يا مؤمن. لسنا أعداءك. نحن نحمل الجنسية التي تحملها. لماذا لا تفكر في إقامة سلام معنا نحن أولا. ألسنا أولى؟. كيف تقيم سلاما مع أعداء الوطن وجيوشك مصطفة على حدود الأخوة. والحرب معلنة على رعاياك. ونصف أسلحة الدولة موجهة للداخل. هل تسمعني يا سيادة الرئيس أم أن صوتي لن يصل إليك مطلقا".

ينطلق "الأستاذ" مذكرا بصوت الفلاح المصري الفصيح، والسلام المنشود عنده ينبغي أن يتحقق في الداخل أولا. إذا كان السادات "فرعونا"، فليكن الفلاح المصري الفصيح المعاصر مندوبا عن "الرعية". الاختلاف الوحيد أن وصول الصوت إلى السادات لن يغير شيئا، فهو يرفض "وصاية" المثقفين ويأبى الاستماع إليهم.

السؤال الصعب الخطير، المطروح بمعرفة أحد الضباط!، يفجِّر قضية السلام مع إسرائيل من منظور مهم: "هل يأتي الحل لمشاكل الداخل من رحلة تمت في الخارج؟".

الإجابة المنطقية لابد أن تكون بالنفي، ذلك أن مشاكل الداخل يكمن علاجها في الداخل. يدفع السادات، ومصر كلها، ثمنا باهظا للفشل في الإجابة على سؤال لا ينبغي أن تختلف حوله الإجابات!.

الفصل الحادي عشر

جمال الغيطاني

صلات وثيقة تربط بين رواية جمال الغيطاني: "رسالة البصائر في المصائر" ومجموعته "ذكر ما جرى"، التي كُتبت قصصها بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٧، معبرة عن رؤية عميقة لمرحلة الانفتاح الاقتصادي، ومتنبئة بالمصير الذي ستقود إليه هذه الحقبة بكل ما فيها من تفريط ومعاناة.

في مجموعته، يجسد الغيطاني أبعاد الكارثة التي تنتظر مصر مع استمرار التدهور والانهيار، والتهديد قائم بأن تُباع مصر بمن فيها وما فيها، وتتحول إلى مستعمرة للغزاة المستثمرين كما في قصة "ما جرى لأرض الوادي". يرصد الغيطاني أيضا مؤامرة تزييف الوعى وإلهاء الشعب باختلاق هموم جانبية مفتعلة في قصة "الترام"، ولاستكمال المؤامرة وضمان نجاحها تتعرض قيادات ورموز الحركة الوطنية لحملة ضارية من التشهير المبتذل في قصة "الزهور تتفتح"، التي تتوقف أمام ظاهرة الهجوم على عبدالناصر والإساءة إليه، حتى يتحول الافتراء المتطرف إلى عمل من لا عمل له، ومن المنطقي أن تتجاوز الحملة شخص عبدالناصر إلى مصر التي تهبه محبتها ويسكن قلوب أبنائها.

يتم هذا كله ليولد عصر "الفندق"، حيث الدولة داخل الدولة، وهيمنة الطبقة الجديدة الطفيلية المتوحشة، الزاحفة على جثث وأنقاض الفقراء الكادحين الذين لا يملكون إلا رغيف الذرة والجبن القديم والبصل الأخضر.

بفعل سياسة الانفتاح الاقتصادي التي يتبناها السادات، يتحقق الاستقطاب الطبقي الحاد، الذي ينقسم معه المجتمع المصري إلى أقلية طبقية ذات قيم استهلاكية استفزازية في قصة "الكريستال"، وأغلبية موغلة في الفقر يطيح بها الطوفان: "الغرق في البئر".

تأتي رواية "رسالة البصائر في المصائر" امتدادا لما يستشرفه الغيطاني في مجموعته القصصية من مخاطر وأهوال، والسبعينيات في روايته: "عقد انقلاب أحوال، وأمور غريبة، وبلايا ثقيلة، وتحولات شملت جل القوم".

في العقد الساداتي، تسود وتهيمن قيم التبعية والإذعان، وتتراجع إلى درجة التلاشي مبادئ وشعارات المرحلة الناصرية، وقوامها الانتماء ومراودة المشروع القومي والتشبث بالأرض والدفاع عن الكرامة والاستقلال: "صارت القيمة الإنسانية تُقاس بما لدى المرء من مال جمعه واكتنزه، وليس مهما كيف أتى به، ولا بأى وسيلة".

الانقلاب الجذري في منظومة القيم والمبادئ الحاكمة لإيقاع المجتمع، وثيق الصلة برئاسة السادات وسياساته الجديدة، الداخلية والخارجية، المغايرة لموروث العهد الناصري وسنوات الصعود والأحلام الوردية. عندما تُختصر القيم وتُختزل في المفاهيم المادية الضيقة وحدها، دون نظر إلى مصدر الثراء وكيفيته، يبدو منطقيا مبررا أن تتعرض الشخصية المصرية لزلزال مدمر يهدد الوجود ويشوه الهوية.

الرواية بمثابة الرحلة المتشعبة متعددة الأبعاد، لرصد انعكاس القيم الجديدة على مجمل الزمن الردئ القبيح، من خلال العاديين من الناس، أولئك الذين يكتوون بالمتغيرات السلبية التي تميز المرحلة: "إنما أردت الإخبار عن بعض من عرفت، ليس بينهم ملك أو رئيس أو صاحب سلطان".

البطولة المطلقة للعاديين والبسطاء من الناس، فهم الأغلبية التي يُعتد بها ولا يستقيم التقييم والقياس إلا من خلالهم. يستمد الغيطاني أحداث روايته وشخوصها من واقع الحياة اليومية، ومن النثريات العادية المألوفة، ومما تنشره الصحف دون تفصيل أو تحليل: "تلك السطور البعيدة عن العناوين الرئيسية والصفحة الأولى وما فيها. رب خبر من سطرين يثير مخيلتي، وتساؤلاتي، ويأتي إليَّ بتداعيات شتى، أو يدفعني إلى تقصي أسباب أو جلاء أمر".

اقتحام الشائع المعروف، المسكوت عنه في الوقت نفسه، هو المدخل الذي يتبناه الغيطاني لتقديم رؤيته وشهادته. لا شيء مما يتوقف أمامه ويعيد إنتاجه، من الخوارق المثيرة للدهشة. كل ما يقدمه معروف مقروء، تواظب الصحف على متابعته في سياق خبري محايد كأنه لا يستوجب ما يدفع إلى الدهشة.

أهي رواية خالصة، أم مجموعة من القصص القصيرة التي يمكن أن تُقرأ منفصلة، وتحقق الهدف المرجو منها في اكتمال شكلي مشبع مقنع، يقترب من المفهوم التقليدي للقصة القصيرة، قدر ابتعاده عن البناء الروائي؟.

للوهلة الأولى، تبدو "رسالة البصائر في المصائر" مجموعة من القصص القصيرة المنفصلة، لكن ثمة اعتبارات أربعة تجعل القراءة القصصية مشروعا ناقصا، وتشير إلى أن القراءة الروائية هي الأساس للوصول إلى الشهادة الحقيقية الشاملة على عصر السادات والانفتاح والفساد والتفريط، في إطار فني صحيح.

يتمثل الاعتبار الأول في أن التواصل مع الفصول التي يقدمها الغيطاني كقصص قصيرة لا يستقيم، بسبب التكوين القصصى الناقص فنيا، وهو نقص ينبع من كون هذه الفصول جزءا من نص روائي وليست قصصا مستقلة. الفصل في ذاته ليس قصة متكاملة، وقد نجد له تمهيدا في فصل سابق، واستكمالا في فصل لاحق. على سبيل المثال، فإن حكاية "حارس الأثر"، التي يبدأ بها الغيطاني روايته، لا تصلح قصة قصيرة مستقلة، ولا يمكن فهمها واستيعاب مختلف أبعادها إلا بالتعامل معها كجزء من النسيج الروائي العام.

تنتهي الحكاية ويبقى السؤال معلقا بلا إجابة: لماذا يتحول عاشور مهدى النعماني، حارس قبة قلاوون وخفيرها، من مثال فذ للتفاني في العمل والتمسك بالنزاهة والشرف والاستقامة، إلى "تاجر دولارات" يغض بصره بلا مبالاة عما كان يثيره ويفجر غضبه من قبل؟.

السؤال بلا إجابة مباشرة واضحة، وبعد صفحات عديدة يظهر "مشروع الإجابة" في حكاية مختلفة: "لماذا نظر المحارب الذي تقاعد إلى الصغيرات أثناء لعبهن". في الحكاية، يرى المحارب المأزوم أجنبيا وأجنبية متضامين متعانقين في عتمة المحراب، فيصيح في الحارس الذي يتغير بفعل وباء الانفتاح:

"- ما يجرى بالداخل عيب".

لا يرد عاشور، مكتفيا برفع عينيه كأنه لا يرى المتكلم، الذي يتساءل مجددا:

"-هل رأيت ما يجرى في داخل القبة؟"

وتأتي الإجابة على السؤال في صيغة سؤال مضاد:

"- وهل رأيت ما يجرى خارج القبة؟".

"مشروع إجابة" يكشف عن الجذور الحقيقية للتغيير العاصف الذي يطرأ على حارس الأثر، ويطيح بسلوكه القديم المندثر. تتغير القيم وتتبدل، فإذا بالمنظومة الأخلاقية القديمة بعيدة عن التوافق مع معطيات العصر الجديد.

الإجابة الصحيحة الدقيقة عن سؤال: لماذا يتغير عاشور؟، تتمثل في الرواية بأكملها. حكاية "حارس الأثر" ليست قصة مكتملة، بل هي فصل من رواية؛ فصل لا يمكن فهمه واستيعابه إلا بالتأمل في مجمل النص الروائي، وهو ما ينطبق على الفصول جميعا، التي قد تبدو للوهلة الأولى قصصا قصيرة، لكنها في حقيقة الأمر ليست إلا حكايات غير مكتملة النمو، ولا يتحقق وجودها الفني إلا بالنظر إليها كجزء من النسيج الروائي العام.

العامل الثاني الذي يبرهن على روائية العمل، هو قضية البحث عن بطل.

لمن البطولة في النص الذي يقدمه الغيطاني؟.

العم عاشور الذي تتبدل قيمه وأخلاقه، والطبيب الذي يترك الطب ويحترف أعمال المقاولات، وخريج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية الذي يعمل في فندق ويتحتم عليه أن يفعل كل شيء حتى المتاجرة بجسده وجماله، ومجموعة المحاربين القدماء الذين يتوهون ويغتربون في زمن السلام، والخطاط الذي يسافر ويختفي في بلاد الغربة، والمدرسة التي ينتهي بها الأمر إلى المتاجرة في الهيروين؛ كل هؤلاء ليسوا أبطالا منفردين ولا تنطبق عليهم مواصفات شخصية البطل. الغيطاني لا يبدو معنيا بواحد من هؤلاء ليجعل منه بطلا رئيسا، فهم يظهرون ويختفون، ويبقى الواقع الذي يعيد تشكيلهم مستمرا ومسيطرا على المناخ العام السائد في الرواية. المشترك الوحيد بين كل هؤلاء هو كونهم "ضحايا" زمن ذي قيم ومفاهيم مختلفة عن تلك التي تسود في عقود سابقة.

البطولة ليست من نصيب الأفراد ولا ينبغي لها أن تكون، ذلك أنها للواقع الذي يقهر هؤلاء ويحدد مصائرهم، والبطولة أيضا للوطن الذي يشتتهم ويطردهم ويغيرهم في طاحونة الغربة والنفي. عند التعامل مع النص كقصص منفصلة، ستبدو بالضرورة قصصا خالية من البطل قدر خلوها من الملامح التقليدية للبناء القصصي، وتتحول المعالجة عندئذ إلى استعراض لمجموعة من الهموم الفردية والمصادفات التعيسة التي يصنعها القدر. المناخ الموضوعي الذي تتحرك فيه

الأحداث هو البطل، أما الأفراد الذين يتناثرون ويدورون في فلك المناخ الضاغط فهم "عينات" تعكس التأثير السلبي المدمر للمكان على البشر.

كل فرد في العينة التي يقدمها الغيطاني أقرب إلى "اللابطل"، حيث السقوط المدوي الذي يمكن القول إنه تراجيدي من طراز مختلف. العلة المفضية إلى النهاية المأسوية ليست ذاتية، بل هي موضوعية تنبع من تفاعلات الواقع الذي يقسو على العاديين البسطاء من الناس ويسلب منهم حلم أن يستمروا أسوياء عاديين كالعهد بهم.

تتأكد روائية العمل، وهذا هو الاعتبار الثالث، عند البحث عن الدور الذي يلعبه المكان في تشكيل العالم الذي يقدمه الغيطاني. "الوطن" هو مكانه الأثير، واقعيا وتاريخيا، في أعماله السابقة. قد يكون المكان الذي يختزل فكرة الوطن هو الحارة أو جبهة القتال أو شوارع مصر القديمة في العصر الحديث أو الحقبة المملوكية، لكن "الوطن" موجود حاضر دائما، ورائحته سائدة مسيطرة.

يتغير الغيطاني في حكاياته المنفصلة المتصلة، ويجعل الغربة عن الوطن، للمقيمين فيه والنازحين عنه هي "المكان" أو اللا مكان، الجديد. اللاوطن هو المسيطر، واللامكان بديل المكان القديم. يتراجع الوطن ويعايشه أبناؤه التعساء المعذبون في إطار أقرب إلى الذكرى، ولا متسع فيه للحاضر. المغتربون عنه يحنون إليه ويموتون بعيدا عنه، والمقيمون فيه لا ينظرون إليه كمكان دائم، لأنه لا يرحب بهم، ولأنهم يعيشون على هامشه ولا يملكون إلا بقايا الذكريات عن الوطن الذي كان.

الشهود الذين يقدمهم الغيطاني بعيدون عن الانسجام مع المكان، ولا ينتمون إليه إلا في إطار الذكرى التاريخية الباهتة، أما الواقع الفعلي المعيش فإنه اغتراب دائم ووقوف في اللامكان. شهود الغيطاني مخلصون صادقون في التعبير الموجع عن أزمة الوطن، فهم مهزومون مأزومون مترددون مقهورون، لا يقفون على أرض ثابتة، ولا يشعرون بالانتماء والولاء. تمتلئ الحكايات بالغربة المكانية الطاغية، وهي غربة لا يمكن استشعارها من فصل واحد، بل إنها تتحقق ويكتمل الإحساس بها عبر اجتماع الفصول، ما يفضى إلى صورة المكان المشوش المضطرب، الغائب الحاضر: حاضر كذكرى، وغائب كواقع مادي ومستقبل منتظر غائم.

الاعتبار الرابع الذي يؤكد روائية النص، يمكن التماسه في بطولة الزمن المعقودة لسنوات السبعينيات. كل ما قبل هذه الحقبة يبدو مختلفا، غير مؤثر في مصير الشهود. إنهم ينتمون إلى أجيال مختلفة، بدءا من العم عاشور الذي يبلغ سن التقاعد في العام ١٩٧٦، ما يعني أنه من مواليد ١٩١٦، وصولا إلى الخطاط الشاب الذي يروج أمره في الغربة، ويُشار إلى أنه قد ولد: "في عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين".

الفارق الزمني بينهما يقترب من نصف القرن، لكن هذا البون الشاسع لا يخلق خصوصية كالتي تشيع بين أبناء الأجيال المتباينة، ويفرض زمن السبعينيات إيقاعه على الجميع. الزمن الموضوعي العابر للأفراد هو البطل، وليس زمن الشخوص الذين ينتمي كثيرون منهم إلى حقب زمنية أخرى.

حياة عاشور، في العقود السابقة، تخلو من الانقلابات المؤثرة، ثم يأتي زمن الانفتاح فيهوى به من قمة الأمانة والشرف إلى حضيض اللامبالاة والتفريط. قبل السبعينيات أيضا، كان حلم الأب أن يرى ابنه الوحيد ممثلا لبلاده في الخارج، عضوا في السلك الدبلوماسي، وتأبى قيم الزمن الجديد إلا أن تحول مندوب الوطن المأمول إلى تابع تدوسه كوابيس الاحتكار والتبعية. في الزمن القريب، الذي يبدو بعيدا، كان المحاربون المدافعون عن كرامة الوطن هم الأبطال المرموقون، وهم أنفسهم مهزومي مرحلة السلام: "من شطح به الخيال وقت اضطرام الحرب؟ ليرى من هتك الأرض ودهس بجنازير دباباته الأطفال الصغار، ساعيا آمنا، يجوس الديار. أما الذين بذلوا أعمارهم أثناء حربه، فقد أتى حين من الدهر، مُنع فيه ذكرهم، حرصا على الوئام الذي بدأ، والصكوك التي وُقعت".

في فترة بالغة القصر، عندما تُقاس بتاريخ الشعوب أو أعمار الأفراد، يبدأ التحول الانقلابي غير المتوقع، عند من يعايشون زمن الحرب وحلم الثأر ورد الاعتبار، ويدفعون الثمن تضحية وجلدا وانتظارا يسكنهم ويوجعهم ويهيمن على مشاعرهم وسلوكهم. لا متسع لرموز وعلامات العهد القريب في ظل التحول السريع العاصف الذي يقوده السادات بلا ضوابط، فإذا بالأعداء الألداء هم الأصدقاء المقربون، أما الذين يحاربون في سبيل الوطن فهم في قائمة المنبوذين المهملين الذين يتم إقصاؤهم وإزاحتهم عن المشهد بلا رحمة.

تأتي حقبة السبعينيات حاملة هما رئيسا يلغى هموم الزمن القديم، وينفى تناقضات الأجيال وتباينات المنتمين إلى أزمنة مختلفة. تتوحد الأجيال فإذا بها الجيل السبعيني، الذي يكتوى بنيران الانفتاح والغربة والقلق، وتستعمره كتائب الفساد والغلاء واندثار منظومة القيم الموروثة.

لن يقدم نص الغيطاني شهادته الحقيقية، ولن يكتمل التواصل الفني والفكري معه، إلا في إطار النظر إليه كنص روائي، لا تربطه بالقصة القصيرة غير هوامش ومشتركات ضئيلة.

الزمن: السبعينيات.

المكان: لا مكان السبعينيات.

الشخوص: ضحايا السبعينيات.

تكشف الرواية عن متغيرات وملامح الحقبة الساداتية من خلال القيمة الأساس المسيطرة، والتي تنبثق منها وترتد إليها كل القيم الأخرى: أنت بقدر ما تملك. يرتفع الشعار المدمر في ظل واقع مضطرب تسيطر عليه البطالة والأزمة الاقتصادية الشاملة، التي تمثل عامل طرد يفرغ الوطن من أبنائه.

في إطار التناقض بين من يملكون كل شيء، ومن يفتقدون الحد الأدنى من الضروريات، يظهر الإنفاق الترفي الاستهلاكي الاستفزازي، إفرازا حتميا منطقيا ممن يملكون، وتندرج المشاعر الإنسانية كافة في دائرة الحسابات والقيمة المادية عند الذين يغادرون الوطن لجمع المال بثمن باهظ قد يصل إلى الموت.

لم يعد النظام الذي يحكم، بانحيازه الطبقي السافر، قادرا على إشباع الحاجات الضرورية للفقراء ومتوسطي الحال. الشكوى من استشراء البطالة منتشرة، والذين يعملون يشكون متذمرين من تهافت المرتبات التي لا تفي بالحد الأدنى للاستمرار في الحياة. قد يجد بعض الذين لا يسافرون، بمشقة ووساطة، عملا يمنح راتبا مجزيا شريطة الرضوخ لقيم الانفتاح ومبادئه التي لا تعترف بمفردات الكرامة والشرف والانتماء، وتعلى من شأن مهارات النهب والسلب والتهليب والخداع والسرقة. إنه زمن البنوك الأجنبية والفنادق الكبرى وشركات المقاولات والسياحة، وفيه تختفي العواطف الإنسانية السوية وتسيطر حسابات الربح والخسارة على كل شيء، حتى الحب والزواج!.

المدرسة، التي تتورط في تجارة الهيروين، تنفق من عمرها "سبع سنوات، وستة شهور، وأحد عشر يوما". في تلك الدويلة الصغيرة. في سنوات الاغتراب الطويلة هذه، تدمن الحساب والتفكير بالأرقام. في هذا الإطار، ترسم ملامح الزوج المناسب بمدخراتها لا بعواطفها: "الآن، تضمن الشقة، ورصيدا يمكنها أن تحجز منه عربة، أن تدفع قيمتها بالدولار، أن تشتري ما تريد، من ملابس، ومطبخ يريحها يضم ثلاجة ضخمة ذات بابين وفرنا كهربائيا، وغسالة حديثة، وخلاطا كبيرا، بمجرد نزولها مصر ستشتري هذا كله بالدولار من السوق الحرة. أما الأثاث فمن مسئولية العريس الذي ستختاره من بين المتقدمين إليها. ستختار وهي مستندة إلى رصيد مالي يقوى مركزها".

الزواج عند المدرسة لا شأن له بالحب والانسجام والعواطف الإنسانية السوية التي تفضى إلى التقارب والاندماج وتكوين أسرة قوامها السعادة والاستقرار. الأمر كله بمثابة العملية الحسابية الميكانيكية التي تتكئ على معادلات جافة متجهمة، ولأنها تملك المال الوفير، فإنها تضع شروطا للزوج المنشود: "لن ترضى بأحد خريجي الكليات النظرية، لا آداب، ولا حقوق، ولا كلية العلوم حتى .. لن تقبل أقل من مهندس أو طبيب، إنها تنوى حجز سيارة نصر بمجرد عودتها، ستدفع بالدولار حتى تتسلمها بسرعة، إذن .. لابد أن يكون لديه عربة أيضا، يستحسن من طراز مختلف".

الزواج عندها مشروع تجاري محسوب بدقة، وشركة مادية ينبغي أن يتساوى الشريكان في تكاليفها دون موضع للعواطف: "لم تكن تفكر في شخص معين، في ملامح بذاتها، بقدر ما تردد الرقم: ثلاثون ألفا وستمائة دولار، تفرد أصابعها، تثنيها، تنغم صوتها، تتمدد فوق الفراش وإلى جوارها كشف الحساب السحب، الإيداع، المدين، الدائن، فكأنها خصصت الليلة لمضاجعة رصيدها".

عندما تُسلب إنسانية الإنسان إلى هذا الحد، وتعلو نغمة التشيؤ التي تعنى الانسلاخ من قبيلة البشر، يبدو كل خطأ مبررا مقبولا طالما أنه يدر عائدا مجزيا!. تتلقى عرضا بتهريب الهيروين مقابل خمسين ألف دولار، ولا تفكير في الرفض من منظور وطني أو إنساني أخلاقي، فالبطولة للحساب البنكي والربح المتوقع: "خمسون ألف دولار، لو أودعت في بنك، لو أن متوسط الفائدة عشرة في المائة، خمسة آلاف

دولار في السنة، بسعر السوق، مهما أنفقت في مصر، هل ستنفق مثل هذا الدخل؟".

من ناحية أخرى، يؤثر الرصيد البنكي المتوقع على حسابات الزواج الذي تراوده بمعايير نفعية: "من الممكن التفكير في أستاذ جامعي، طبيب كبير عنده عيادة".

لا تفكير في العقاب الرادع الذي يطولها بالضرورة عند السقوط، ذلك أن "نداهة" الثراء من القوة بحيث تزيح كل الاعتبارات الجديرة بالمراعاة في مغامرة غير مأمونة العواقب. كل وأى شيء، بفعل هيمنة القيم الانفتاحية، قابل للبيع والشراء، وكل وأي شيء معرض ومعروض للبيع والشراء، بدءا من تجارة العملة، وصولا إلى تجارة الروح والجسد، مرورا بالأعمال غير المشروعة كافة.

توشك تجارة العملة أن تكون علامة العصر الانفتاحي، والشعار الأكثر انتشارا في المرحلة.

الحارس عاشور، الذي يفني عمره متمسكا إلى درجة التعنت بالنزاهة والشرف ومنظومة القيم المثالية، ينقلب إلى واحد من تجار العملة!: "يقترب على مهل من الأجانب الذين كثر ترددهم على القبة في السنوات الأخيرة، ويقول هامسا بالإنجليزية:

- تغير دولار؟".

المدير المصري للفندق الانفتاحي الكبير، يتاجر بدوره في العملة. بمجرد وصول مجموعة من السائحين، يجتمع بأحدهم ليفاوضه ويعرض عليه تغيير ما معهم من الدولارات بمعرفته" "يشرح مضار التغيير الرسمي، يوضح الفرق بين السعر الرسمي والحر. إنه يقيم علاقات وثيقة مع عدد من تجار التحف في خان الخليلي، أحيانا يصحب بعض الأجانب الذين يفيضون بثرائهم، وفي الأغلب الأعم يرسل مجموعات السائحين مع من يثق به، وله في كل جهة مقدار معلوم".

ينتمي حارس البوابة الأثرية والمدير الفندقي إلى عالمين مختلفين، طبقيا وثقافيا، لكنهما يتفقان في النزعة الشرهة المدمرة للثراء غير المشروع، ولا انشغال عندهما بالأخلاق والقيم التي تتراجع وتقف على حافة الاندثار، ما يهيئ المجتمع المصري لمزيد من التدهور والسقوط والانهيار.

في ظل أجواء كهذه، لا غرابة أن يتجاوز الأمر دائرة الاتجار بالعملة إلى الاتجار بالجسد.

يتاجر عاشور بصمته وتغاضيه وغض بصره عن المشين الذي يرى، وهو نفسه الذي كان في الزمن القديم شديد القسوة على ممارسى مثل هذه التجاوزات، والشاب الفندقي يتلقى من رئيسه نصيحة الاعتناء بهندامه، ويتطوع المدير باختيار ألوان ملابسه الداخلية: "حتى يتحقق التناسق بين ما يخفى وما يظهر!".

جسد الشاب جزء من رأسمال الفندق، ويستدعيه المدير ليطلب منه الصعود إلى رقم أربعمائة وأربعة عشر، وفي الغرفة يجد الأمريكية العجوز الشمطاء، التي يتقزز من مجرد تخيل نفسه إلى جوارها، لكنه يضاجعها كأنه يؤدى عملا.

يتطور الاتجار بالجسد فيحظى الشاب بإعجاب شيخ من شيوخ النفط فاحشى الثراء، ويتساءل حائرا: "هل من الشغل أن يقرص الشيخ خده ويبدى الرضا؟ هل من العمل أن يغمز له بعينيه، هل يقبل على نفسه مثل هذا؟".

يقدم المدير تبريرا غرائبيا للاتجار بالجسد، وفي كلماته تفسير لطبيعة المرحلة كلها، حيث الابتذال والزيف وإدمان التفريط، دون تفكير في منطقية المبررات التي لا يمكن أن تكون مقنعة: "أنت لا تدري مصلحتك، لا تدري مصلحة الفندق، ستة عشر مليونا أنفقها أصحاب هذا المبنى، ويوميا يتصلون به، يضغطون عليه، بل كل ساعة، يجب عليه أن يضحى، إذا لم يكن من أجل الفندق فمن أجل البلد. إن إغضاب معاليه ربما يسئ إلى العلاقات، ثم... لماذا يخاف؟ هل يأخذ منه ما لا يريد أن يعطيه غصبا؟ أبدا، ثم لماذا يفترض ما يفترض، ربما يكتفي معاليه بالمحاورة والملاطفة، ها.. ومن يدري، ربما يُفاجأ عند طلوعه إليه بالرجل مرتديا قميصا نسائيا"!.

الطموح كله أن يكون الشاب إيجابيا فاعلا في العملية الجنسية الشاذة، أما فعل الشذوذ نفسه فلا معنى للتردد في ممارسته، فضلا عن إدانته!.

كل شيء معروض للبيع والشراء حتى الجسد. في الوطن وخارجه، يتعرض جسد الإنسان المصري، رجلا كان أم امرأة، لمخاطر البيع والاغتصاب والهوان والشذوذ.

خارج الوطن، يتعرض المواطن المصري لطوفان عارم من الإهانات، ويقبل من الأعمال ما لا يمكن قبوله، ويلتزم الصمت قانعا بالخوف عاجزا عن الرفض والمعارضة. لا كرامة خارج الوطن ولا أمان، و قد يتعرض المصري المغترب فجأة لاتهام أحمق يقضى عليه بالإعدام أو السجن المؤبد.

في القهوة، يتقدم أحدهم من خبير الطباعة المصري المسالم الوديع.. ويسأله في أعقاب مبادرة السادات:

"-أنت مصري؟

- نعم..

- زين والله زين.. عندي منكم اتنين.. خدم.. والله أنتم ماتنفعوا غير خدم".

الإهانة السادية سابقة لمبادرة السلام ومواكبة لها ومستمرة بعدها. والتفريط في الكرامة سمة مألوفة مستقرة بعد صعود السادات إلى قمة السلطة. النزوح الجماعي للمصريين، جراء الأزمة الطاردة، يغير قواعد المعادلة القديمة، فهم يلهثون وراء تلبية الاحتياجات المادية الملحة، فكيف يتمردون على أدوار الخدم الأذلاء التابعين الخانعين؟.

الخبير الطباعي نفسه من يحدث شقيقته عما يتعرض له من مهانة وإذلال في المطار: "حدثها عن تجريدهم ثيابه، عن إبدائهم الغلظة، دفعه إلى الصدر، وخزه في الجنب، حتى بقائه بالقطعة الأخيرة، إصرارهم، تجرده منها، وعدم مجاوبته لما طلبوه، دخول ثلاثة حفاة، غلاظ الأكباد، فشخه قسرا، تمرير آلات كهربائية، التنقيب داخله عن نقود يمكن أن يكون قد أخفاها في أنابيب من البلاستيك".

المصري البسيط، في ظل الانقلاب الذي يقوده السادات، متهم مدان منذ البدء، ويعي من يعبثون به أنهم ناجون من المساءلة والحساب والعقاب في ظل التدهور المريع لكرامة الدولة المصرية ومواطنيها.

داخل الوطن، ينتشر الفساد بلا ضفاف في الأعمال التي تمنح الرواتب العالية.

تسيطر الدهشة على الضابط الكبير المتقاعد، عندما يعرف الراتب الذي ينتظره في عمله الانفتاحي: "القرار صادر بخمسمائة جنيه! فأي جهد سيقدمه مقابل هذا المبلغ الضخم؟. طبقا لما دُون في العقود التأسيسية فإنه مسئول عن شركة للمقاولات والتجارة، لكن.. أي مقاولات؟ لم يجد أعمال تشييد أو بناء أو

هدم، فقط مجرد عمليات استيراد لمواد لا رابط بينها أو علاقة، فمن أحجار رخامية إلى ألواح معدنية، إلى أسياخ حديدية، إلى أجهزة ألكترونية ومواد غذائية. وهذه المواد الغذائية قد تكون فاسدة. مواد انتهت في بلادها، غير مسموح بتداولها هناك، ومقتبل باشا يحصل بشطارة على كميات كان يمكن أن تُلقى في البحر، لكن القوم عندنا يمضغون الحديد".

ما الانفتاح الاقتصادي الذي يرفع السادات رايته إلا أنشطة عشوائية غير إنتاجية، وعمليات استيراد قوامها الغش والخداع وتعريض المستهلك المصري للموت، واستهانة صارخة بالحد الأدنى من القيم الإنسانية والضوابط الأخلاقية والقانونية. لا هدف إلا الربح السريع السهل، ولا قانون يفرض هيبته ويتكفل بردع المتلاعبين المدلسين، بل إن العقاب الصارم يطول المتمردين على قواعد اللعبة الفاسدة.

يدرك الضابط ذو الضمير الحي أبعاد الجريمة المنظمة، ويكتشف سريعا أنه يعمل مع تاجر يحترف تهريب الأنواع الأشد خطرا من المخدرات: "وبعضها دخل البلاد أول مرة على يديه"!.

ثمة ضابط آخر من ضباط الصاعقة، يقتحم عالم التجارة بعد تقاعده، وسرعان ما يدرك رداءة السوق: "وأن معظم الشركات الجديدة تعمل في التهريب، تهريب كل شيء".

إنه عالم من الفساد، والتمرد عليه، فضلا عن السعي إلى مقاومته، عملية صعبة محفوفة بالمخاطر. فما أسهل أن يتحول البرئ الشريف إلى متهم مدان يتم التنكيل به.

الضابط المتقاعد، الذي يقرر الاستقالة احتجاجا على الفساد المحيط به، يتعرض لضغوط شتى تقترب من التهديد، والشاب الفندقي الذي يرفض الشذوذ الجنسي ويقرر الاستقالة أيضا، يواجه تهمة ملفقة محكمة. يقول له الضابط وهو يفتش منزله في الفجر:

"-بصماتك تملأ الغرفة رقم مائة وسبعة وسبعين.. هناك شهود أيضا"!.

ليس أمام الشاب المتمرد إلا الرضوخ للشذوذ، أو التعرض لعقوبة قاسية مدانا بجريمة لم يرتكبها.

لا شك أن الفساد ظاهرة إنسانية قائمة في المجتمعات كافة، لا يخلو منها زمان أو مكان، منذ فجر التاريخ إلى الواقع المعاصر شرقا وغربا. لا ينفرد عصر السادات بالتجاوزات والكوارث، لكنه يختلف عن غيره من المراحل التاريخية، السابقة واللاحقة، باستفحال الفساد وشيوعه السرطاني كأنه القاعدة لا الاستثناء، وسياسة الانفتاح الاقتصادي التي يتبعها تلعب دورا خطيرا في الإطاحة بالقيم وتهديد الهوية وتكريس هوان وإذلال الإنسان المصري، مقيما في الوطن أم نازحا منه.

الفصل الثانى عشر

إبراهيم عبد المجيد

النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين، منذ صيف العام ١٩٧٤ إلى قرب نهاية العقد، هو الإطار الزمني لرواية إبراهيم عبدالمجيد، أما المسرح المكاني الذي تتحرك فوقه الأحداث فيشير إليه العنوان: "هنا القاهرة".

بعد أن يشارك في حرب أكتوبر وتنتهي سنوات تجنيده، ينتقل صابر سعيد من دمياط إلى القاهرة. لا شيء مما يؤمله ويتطلع إلى تحقيقه، متاح في مدينته الصغيرة: "في القاهرة أسباب للفشل، وأسباب للنجاح. في دمياط ليس ثمة غير الفشل. لقد جعلتني السنوات الخمس التي قضيتها في الجيش أنسى دمياط رغم زياراتى لها، لأنه كان لنا هم واحد وهو تحرير الوطن".

تنوب شخصية صابر عن جيل كامل، ولطموح الاستقرار في القاهرة أسباب سياسية وأدبية، ذلك أن الشاب المثقف ينخرط في عضوية حزب شيوعي سرى، ويبحث في العاصمة أيضا عن فرصة للانطلاق الإبداعي الذي يعز في الأقاليم.

بالنظر إلى هذين الإطارين المتكاملين، الزمني والمكاني، يبدو منطقيا أن يقدم إبراهيم في روايته شهادة مهمة عن السادات، لا تقتصر بطبيعة الحال على الرئيس – الفرد وما تتسم به شخصيته من ملامح، لكنها تمتد أيضا إلى طبيعة العصر وتحولاته الجذرية العاصفة، وخطوط الخريطة الجديدة التي تتشكل وتفرض على المجتمع المصري إيقاعا مختلفا.

مع نهاية حرب أكتوبر، يُسدل الستار سريعا على مرحلة تمثل امتدادا للحقبة الناصرية على نحو ما. مع محادثات الكيلو ١٠١ وتوقيع اتفاقية الفصل بين القوات، تبدأ تحولات السادات التي يوجه لها اليساريون انتقادات مبكرة عنيفة، تتمثل فيما يقوله عمر إبراهيم، المدير العام في الثقافة الجماهيرية، الذي يخاطب صابر سعيد، في حضور سعيد صابر:

"-يساري ومقاتل من حرب أكتوبر خذله السادات كما خذلنا جميعا يستحق أن يكون معنا.

ابتسمت. قال سعيد:

-لا أحد يعرف إلى أين سيذهب السادات بالبلاد.

اندفع عمر يقول:

-اتفاق الفصل الذي تم بين مصر وإسرائيل يجعل القوات الإسرائيلية كما هي في سيناء وكل يوم يجعل الإخوان المسلمين في مقدمة المشهد. الحرب تزداد على اليسار.

كدت أقول إن هذا الاتفاق الذي تم في مارس الماضي هو الذي أتاح لي الخروج من الخدمة العسكرية. لكنى قلت:

-سيجعل من حرب أكتوبر ملاذا له باعتباره قائدها ويهدم كل شيء".

بعد شهور من حرب العبور التي تنعقد عليها الآمال العظيمة، يتجلى واضحا أن السادات شارع في اتخاذ مسار جديد يمثل خذلانا للقوى الوطنية واليسارية. تنبئ المؤشرات عن نيته في استثمار الحرب بطريقة مغايرة للمأمول، ويكشف الحوار القصير عن ثلاثة محاور جديرة بالتأمل والتحليل والمتابعة: التحالف مع الإخوان المسلمين والتيارات الدينية، الضيق باليسار والسعي إلى ضربه وتحجيمه، البحث عن منهج جديد في التعاطي مع الصراع ضد إسرائيل والولايات المتحدة.

في مترو مصر الجديدة، الذي يركبه للمرة الأولى بصحبة سعيد صابر، ينتبه صابر سعيد إلى مشهد لافت: "أثارنى صعود بعض الباعة يلقون على الجالسين مطبوعات صغيرة بها آيات قرآنية، ثم يعودون لجمعها ممن لم يشتروا، ويتركون العربة في المحطة التالية. قلت:

-هذا المترو رغم نظافته وجماله بهؤلاء الباعة يذكرني بقطار الدرجة الثالثة.

هز رأسه مبتسما وقال:

-هذا لم يكن يحدث من قبل. صار ظاهرة هذه الأيام. رئيسنا الآن اسمه الرئيس المؤمن!".

"الرئيس المؤمن" لقب شهير يقترن بالسادات في السنوات الأولى بعد الصعود إلى مقعد الرئاسة، ويتناغم مع الشعار الذي يروج خلال المرحلة نفسها عن دولة "العلم والإيمان". السعى إلى استثمار الشعارات الدينية سمة مميزة للرئيس المختلف، يراود من خلالها الإشارة السلبية غير المباشرة إلى العهد الناصري، فضلا

عن مغازلة المشاعر الدينية المتغلغلة في أعماق الكتلة الجماهيرية العريضة، ما يعني اكتساب شعبية سريعة تتكئ على معطيات غير سياسية.

توزيع الآيات القرآنية على ركاب المترو، جزء من منظومة متعددة الملامح، تستهدف تغيير الهوية المصرية وزلزلة ثوابتها. بتعبير سعيد، الذي يرصد التشويه العمدي لشخصية القاهرة وشوارعها القديمة: "هذا الرجل السادات بدأ سياسة الحرية للجهل ليربك الشعب نفسه".

"حرية الجهل" هذه سياسة مخططة ذات أهداف محددة، ومراهنة السادات على القوى الدينية، التي يتم إقصاؤها وقمعها في العهد الناصري، عمل سياسي يُترجم إلى ممارسات شتى يسهل رصدها، والخطير المزعج فيها هو الإيقاع السريع الذي يتجسد في غزو شامل يزلزل الثوابت التقليدية للحياة المصرية.

يتطلع السادات إلى إضعاف اليسار والحد من تأثيره عبر "أسلمة" المجتمع، ولا يفكر في توابع الخطوة التي تتجاوز بالضرورة ما يهدف إليه من استثمار فج: "النظام الآن يزداد تحالفه كل يوم مع الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية التي صارت نشطة في الجامعات تهاجم اليساريين والناصريين. وتعمل على السيطرة على الشارع المصري من خلال المساجد التي ترتفع فيها صيحات غريبة بالعودة إلى الإسلام بالحجاب واللحية، وتهاجم القوى الاخرى من اليساريين الكفار! لقد ظهرت الشعارات عن الحجاب كفريضة إسلامية على كثير من جدران المدن خاصة في الأحياء الشعبية. ظهرت كتب رخيصة عن عذاب القبر ونعيمه. عن يوم القيامة ونهاية العالم. حكيت لهم عن الشيخ كشك الذي يملأ الجامع القريب منى في شارع الملك بالهجوم على المثقفين والممثلين والمطربين والمطربات. السادات فتح أبواب الجحيم على مصر".

لا ينطلق السادات في توجهه هذا عن ورع ومشاعر دينية أصيلة، ذلك أن الحرية الممنوحة لجماعة الإخوان والجماعات الإسلامية الأخرى، تبدو لصانعيها في اجهزة السلطة ذكاء سياسيا لمحاصرة وتدمير اليسار، لكن الإسلاميين لا يقنعون بدور الأداة، ويتحركون في مسار مختلف مستقل، ويقودون تحولات جذرية تعصف بمنظومة القيم التي تحكم المجتمع وسلوك أفراده وطبيعة ثقافته القائمة على البساطة والتسامح. الترويج للحجاب والجلباب، والإلحاح على عذاب القبر

ونعيمه، والهجوم الشرس على الفن والثقافة، يفتح بحق أبواب الجحيم، وتبرهن الأحداث التالية على أن رأس النظام نفسه لا ينجو من زبانية الجحيم هؤلاء!.

الإعلاء من شأن مظاهر التدين الشكلي، المنفصل عن واقع الحياة وتحدياتها وهمومها، سمة بارزة في عصر السادات، ولا تتناقض أو تتعارض مع هيمنة الفساد الذي ينتشر ويستشري بالسرعة نفسها.

يقول سعيد: "إن الفساد صار للركب والرشوة تُقدم لموظفي الأحياء والسادات يقول إن من لن يغتنى في عهدي لن يغتني أبدا. ثم سألني:

-هل تعرف أن السادات أصدر قانونا يسمح لمن يبني جامعا تحت بيته أن يخالف البناء؟

-لا.

-هذا ما حدث. الآن بدأت تظهر عمارات في أزقة لا تزيد على ثلاثة أمتار وعلى العمارة لافتة تحمل اسمها، وهو غالبا اسم إسلامي مثل عباد الرحمن والصفا والمروة والحرمين وهكذا.

-هناك محلات بدأت تحمل هذه الأسماء أيضا.

-تزداد يوما بعد يوم. أكثرها تقدم الأطعمة الفاسدة احتماء في الأسماء الدينية".

التوافق بين الفساد والتدين الشكلي ليس مستغربا مثيرا للدهشة، والتناغم قائم بلا نشاز بين الانفتاح الاقتصادي العشوائي، صانع الطبقة الطفيلية، وتشجيع القوى الدينية المتطرفة التي تقوم بمهمة الأسلمة الشكلية للمجتمع وفق مصالحها، وتفيد من هوس السادات المتشنج بمحاربة اليسار والإصرار على إقصائه عن الساحتين السياسية والفكرية.

من المنطقي ألا يقنع الحليف الإسلامي بالتبعية والطاعة العمياء والخنوع للنظام، ومع تنامي نفوذه يتحرك في استقلالية يروم تحقيق أهداف لا شأن لها بما يفكر فيه السادات ويخطط له ويراهن عليه. ليس أدل على ذلك من إدراك جهاز أمن الدولة لخطورة الإخوان، وحرصهم على صناعة قضايا وهمية تؤكد دفاع النظام عن الدين وتصديه للخارجين عليه، ووفق تعبير واحد من هؤلاء الضباط في الأقصر: "لأنهم تعبوا من القبض على اليساريين ويريدون قضية ردة أو إلحاد

كبيرة يلهون فيها الإخوان المسلمين عن الحديث في السياسة التي بدءوا يخوضون فيها بعد أن صاروا أقوياء الآن".

النظام يزايد على الإخوان المسلمين وينافسهم بالإعلان الاستعراضي عن التشبث بالدفاع عن الدين ومحاربة خصومه، ولا يدرك أنه بمثل هذا المنهج الساذج يضفى مزيدا من القوة على من يتوهم أنهم جماعة قابلة للترويض!.

لا يتحقق شيء من الآمال العريضة المعقودة على حرب أكتوبر، ويحقق السادات فشلا ذريعا في استثمار انتصار العبور سياسيا. مع الجمود والعودة التدريجية إلى حالة اللاسلم واللاحرب، واستمرار القضية الفلسطينية بلا أفق، تأتي مبادرة السادات بزيارة القدس تتويجا للأزمة والوصول بها إلى بداية مسار لا ينبئ عن تحقيق سلام شامل عادل قريب: "دخل الشتاء قويا مثل كل عام. زادت إحساسى به زيارة السادات للقدس في نوفمبر. مطر من كل ناحية. السياسيون والأدباء في ثورة في مصر وغضب. العالم العربي كله في غضب من السادات والدعوة لاجتماع الجامعة العربية لطرد مصر منها لكنها انتهت بتعليق عضويتها. قلب السادات كل موازين القوى، عندما خطب في مجلس الشعب قبل زيارته بأيام وقال إنه مستعد أن يذهب إلى القدس من أجل السلام. بدأ التوجس ثم ظهرت الحقيقة. ربع قرن مضى على ثورة يوليو والدرس الأول في المدارس تحرير فلسطين والقضاء على إسرائيل. كيف تتحمل النفوس؟ لكن الحزب الحاكم وحكومته أخرجا من الشركات والمصانع والمصالح الحكومية المظاهرات المؤيدة والمستقبلة للسادات. مظاهرات مدفوعة الأجر. مشهده وهو ينزل من الطائرة وفي انتظاره قيادات إسرائيل كان مذهلا للمصريين وكان مضحكا أيضا. جولدا مائير أهه. موشى ديان. ياه مناحم بيجن كمان. والناس تضحك وتضرب كفا بكف ثم تلعن السادات وأيامه".

تغيير مسار الصراع مع إسرائيل على هذا النحو المباغت، الذي يتضمن مزيجا معقدا من المغامرة والمقامرة والانسلاخ الحاد من الشعارات السائدة عن القضية الفلسطينية، عبر عقود ممتدة، ليس ميسورا ولا يسهل استيعابه وتقبله. احتجاجات المثقفين واليساريين لا تمثل خطرا حقيقيا على نظام السادات، وردود فعل الأنظمة العربية لا تفلح بدورها في صياغة موقف مضاد مؤثر. الحشد لإعلان التأييد الشعبي ممارسة سلطوية مكررة مألوفة، والصدمة المترتبة على المبادرة غير

المتوقعة تدفع إلى الغضب أو السخرية، لكن القدرة على المقاومة محدودة هامشية.

يتحرك السادات منفردا، مسلحا بالغطرسة والنرجسية، وصولا إلى توقيع معاهدة كامب ديفيد، التي يحولها الإعلام الحكومي الرسمي إلى انتصار ساحق لا دليل على صحته، ويقنع المعارضون قليلو الحيلة ببيانات شجب وإدانة: "صار توقيع معاهدة السلام في منتجع كامب ديفيد بالولايات المتحدة الأمريكية بحضور الرئيس كارتر وبين السادات ومناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل نصرا جديدا تردده الصحف والإذاعات والتليفزيون. وبين المثقفين اليساريين احتجاج وبيانات ضد الاتفاق تُكتب على المقاهى. بدا بحق أن عصرا كاملا ينقضى. كثير من الكتاب المشاهير المعارضين غادروا مصر في السنوات السابقة".

في ظل غياب المعارضة القوية المنظمة ذات الوجود المؤثر الفعال في الشارع المصري، تخلو الساحة للسادات وكتائب إعلامه، وتصل مرحلة من تاريخ الصراع مع إسرائيل إلى نهايتها. غاية ما يملكه المثقفون اليساريون هو الاحتجاج الرمزي الذي يسجل موقفا، ولا إمكانات تؤهله للتغيير، "عرفت من أحدهم أنهم سيوزعون منشورات في كل المعرض ضد سياسة السادات وضد اتفاقية كامب ديفيد".

الإسلاميون بدورهم، لأسباب دينية في المقام الأول، يرفضون مبدأ السلام مع إسرائيل، لكن الانتهازية تدفعهم إلى المراوغة وتجنب الصدام المباشر حتى لا تتعثر مسيرتهم الناجحة، تحت مظلة السلطة، في السيطرة على المجتمع وإعادة تشكيله وفق معاييرهم. أما اليسار فتسيطر عليه حالة من الترهل والعجز تحول دون قدرته على التأثير، ويدفع ثمنا فادحا للحرب الشرسة التي يخوضها السادات ضده منذ الأيام الأولى لصعوده إلى السلطة.

يكن السادات عداء أصيلا لليسار والمثقفين، ذلك أنه يجد فيهم تحديا يؤرقه ويدفعه إلى التحالف مع التيارات الإسلامية، جماعة الإخوان وغيرها، دون تقدير لعواقب التنسيق الحافل بالمخاطر. الهدف هو الحد من تأثير اليسار، والحيلولة دون سيطرته على الشارع الغاضب المحتقن، جراء تدهور الأوضاع المعيشية وضبابية الموقف السياسي الذي يزداد غموضا.

بعد شهور قلائل من حرب أكتوبر، يتساءل عمر إبراهيم في حوار مع صابر سعيد:

"-هل ستنشر مقالاتك في الصحف؟

-سأحاول.

-انتبه. كثير من الصفحات الأدبية الآن بدأ يسيطر عليها كتاب اليمين. طبعا لو استطعت أن تنشر في مجلة "الطليعة" أو "الكاتب" سيكون فخرا لك. هذا ما تبقى من اليسار الثقافي في مصر.

وسكت قليلا:

-نحن هنا في الثقافة الجماهيرية التي هي مستهدفة الآن لتكون في خدمة أمن الدولة وأفكار السادات".

يحرص السادات على توجيه ضربات مبكرة إلى اليسار الثقافي، مستعينا بكتاب اليمين المهمشين في زمن عبدالناصر، ولا يخفى اليساريون بدورهم مخاوف تسكنهم من نوايا السادات بشأن أسلوب تعامله مع حرب أكتوبر والاستئثار بثمارها لقيادة منفردة. الثقافة الجماهيرية، ذات الحضور اليساري الكثيف، هدف لضربات السادات، وكذلك الأمر بالنسبة للمجلات الثقافية، والطموح هو تسخيرها لخدمة رؤيته التي لن تجد ترحيبا من اليسار.

تعي القوى اليسارية مبكرا أن السادات ليس موضع ثقة، وفي قهوة "أسترا" الشهيرة يقف الشاعر مختل الأعصاب، الذي يحمل كثيرا من ملامح نجيب سرور، ويرتفع صوته مناديا:

"-من يحب أن يشترى طفلا؟

كررها أكثر من مرة والناس لا تبدى أي رد فعل غير النظر إليه في شفقة وصمت ثم قال:

-كلكم ستبيعون أولادكم. اليوم أو غدا. السادات لن يسكت إلا بعد أن نبيع أولادنا كلنا. حد عايز يشترى عيل يا جبناء يا للي ساكتين على السادات واللي بيعمله فينا!".

المقولات الهجائية للشاعر المضطرب تخلو من التفاصيل والشرح الدقيق الذي يبرر مخاوفه من اقتراب التحول الكارثي، لكن سياسة السادات لا تخفى

آثارها ونتائجها القريبة المتوقعة. يبدو واضحا أنها تعادي الكتلة الشعبية الفقيرة، وتنحاز إلى أغنياء الطبقة الطفيلية الآخذة في النمو والتوحش.

المجلة السرية للحزب الشيوعي، التي يطالعها صابر سعيد للمرة الأولى، تجسد الموقف المعارض للسادات جذريا، وتقدم البدائل المقنعة ذات التوجه الديمقراطي، لكن المقولات المطروحة لا تحمل جديدا يختلف عما يدركه قطاع عريض من الضحايا الذين تحاصرهم أشباح الفقر جراء انفتاح السادات وانحياز نظامه للطفيلية: "رأيت مجلة الحزب السرية لأول مرة. لم يكن ما فيها مختلفا عما نقوله في اجتماعاتنا أو في الحياة الثقافية بشكل عام على مقاهى "نص البلد". كان الرفض طبيعيا لسياسة السادات واعتباره أن أميركا تملك الحل كله لقضية الشرق الأوسط وعداءه لليسار وتشجيعه للتيارات اليمينية التي تسمى نفسها إسلامية وبداية سياسة الانفتاح الاقتصادي التي جعلت البلاد سوقا واسعة للبضاعة الفاسدة وارتفعت الأسعار كل يوم وأخبار مطاردات الطلاب والعمال الشيوعيين والقبض عليهم لا تنقطع. أوجزت ذلك كله المجلة وأضافت إليه ضرورة إسقاط الاتحاد الاشتراكي تنظيم الدولة السياسي الوحيد، وإطلاق حرية تكوين الأحزاب، وحرية إصدار الصحف وحرية النشر والتعبير، ووضع حدين أدنى وأقصى للأجور بنسبة واحد إلى عشرة، ورفض الاعتراف والصلح مع العدو الصهيوني واتفاقية الفصل بين القوات التي انتهت بالجيش المصري في مكانه قبل الممرات، متلا والجدى، بينما الجيش الإسرائيلي كما هو شرق الممرات في سيناء، وكذلك الدعوة لحرب تحرير شعبية لاستعادة سيناء كاملة".

ما تقوله المجلة الشيوعية السرية شائع معروف لا يغيب عن غير الشيوعيين، وممارسات نظام السادات بالغة الوضوح، أما المطالب التي تتعلق بالديمقراطية والإصلاحات الاقتصادية والصراع مع إسرائيل، فلا تتجاوز الإطار النظري الذي قد يحظى بإجماع وطني، لكن وسائل التفعيل غائبة.

الوعي النظري لا يجدي عمليا في مواجهة السادات، ولا نجاح تحققه الحركة الشيوعية إلا مع المثقفين الذين لا يتواصلون مع الشارع الساخط المحتقن. أما المظاهرات الطلابية والعمالية فإنها تتسم بالعفوية التي لا تحركها قيادة تنظم وتوجه وتأخذ بزمام المبادرة: "لماذا حقا لم يعرف الحزب شيئا مسبقا عن هذه المظاهرات ولماذا لم يخبرنا بها أحد؟".

الشارع يغلى جراء الأوضاع الاقتصادية المتردية، والوعي يتصاعد ويتحول إلى مظاهرات طلابية وعمالية لا تتوقف. تنبئ المؤشرات جميعا عن مناخ ثوري ملتهب: "توالى إضرابات العمال، في مصانع غزل المحلة الكبرى وعمال النقل البرى في مصر كلها، وإضراب عمال كفر الدوار للغزل والنسيج، وصدامات الأهالى وقوات الأمن في المنزلة وبيلا".

على الرغم من الضعف النسبي لليسار، كما يتجلى في عجزه عن قيادة فاعلة لاحتجاجات القوى الاجتماعية المتذمرة، فإن السادات يتشبث بتخوفه من اليساريين والمثقفين، ولا يكل من العمل الدءوب، إعلاميا وأمنيا، لمزيد من إضعاف اليسار وتهميشه، عبر كيل الاتهامات الدعائية من ناحية والتوسع في القمع الأمنى من ناحية أخرى.

"الأهالي"، جريدة حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، تتبنى القضايا الجماهيرية الساخنة وتجعل منها عناوين رئيسة لأعدادها، ولا تتوقف عن الهجوم على النظام السياسي وأدائه، وبفضل التواصل الإيجابي مع الشارع وهمومه اليومية: "صارت تقريبا أكثر الجرائد مبيعا في مصر فبدأ النظام يسلط عليها أحد القضاة يصادرها أكثر من مرة في الشهر الواحد وهي جريدة أسبوعية".

يتحامل السادات بضراوة وعنف على اليسار، الشيوعي منه وغير الشيوعي، ويشهر أسلحته الثقيلة جميعا لحصاره وتضييق الخناق عليه. في الوقت نفسه، يتوسع النظام في منح اليمين الديني حرية بلا ضفاف، ويتجاهل القائمون على تنفيذ هذه السياسة أن غياب التوازن لابد أن يقود إلى السقوط في هاوية الضياع: "الدولة المجنونة تستهدف اليسار ولا تعرف إلى أين تذهب بالبلاد".

لا يتوقف السادات في تصريحاته عن التغني بأجواء الحرية والديمقراطية، لكن ديمقراطيته عرجاء مشوهة، تقتصر على الشعارات التي لا يتحقق منها شيء في الواقع. حملات اعتقال الشيوعيين لا تتوقف، والطلبة والعمال يتظاهرون تعبيرا عن المعاناة والغضب، والغلاء يتصاعد منذرا بالانفجار الذي تستحيل السيطرة عليه، وهو ما يتحقق في انتفاضة يناير ١٩٧٧.

لانتفاضة ١٨ و١٩ يناير خصوصيتها وتفردها في سلسلة موجات الاحتجاج الشعبي التي تشهدها سنوات حكم السادات، ذلك أنها تندلع في محافظات مصر جميعا من الإسكندرية إلى أسوان، ولا تقتصر على القاهرة وحدها. رد فعل عفوي

سريع مباشر على صدور قرارات اقتصادية مباغتة، تبرهن عمليا على معاداة النظام للطبقات الشعبية الفقيرة، واللامبالاة بما تعانيه من قهر وحرمان، أما الملمح الثالث في خصوصية الانتفاضة فيتمثل في الذعر الذي يصيب السادات، ويقف به على حافة الانهيار والتفكير في الهروب.

في ظل الغليان السياسي والاضطراب الاجتماعي والتدهور الاقتصادي، تطلق الحكومة شرارة الغضب التي تشعل الحريق: "فجأة ارتفعت أسعار أكثر من مئة وخمسين سلعة في قرار واحد. كان إعلان القرار يوم السابع عشر من يناير. نامت مصر على صمت غريب. صمت مثل صمت الحملان. صمت يشى أن من سيتكلم لن يجد أمامه إلا معركة يخرج منها قاتلا أو مقتولا. سلع تبدأ من رغيف الخبز حتى البنزين تجاوزت المئة سلعة. لا شيء في مصر تقريبا لم يرتفع ثمنه إلا الإنسان. الشعب المصري الذي خرج يؤيد سياسة السادات بالأجر من المصانع والنقابات وغيرها، أو بغير أجر، أو لا يخرج يؤيده، نام صامتا على ضجر".

ارتفاع أسعار السلع الأساسية على هذا النحو غير المتوقع، لا يمكن أن يكون قرارا رشيدا محسوبا ينم عن قراءة سياسية واعية بأبعاد المشهد المحتقن، والصدمة المروعة لابد أن تُقابل برد فعل عنيف يتوافق مع الأضرار الجسيمة التي تلحق بالأغلبية الساحقة وتهدد الحد الأدنى من احتياجاتها الضرورية.

المسئولية عن صناعة الانتفاضة وقيادتها شرف لا يُنسب إلى اليسار، وصباح اليوم التالي لصدور القرارات تندلع المظاهرات، وتؤكد المحطات الإذاعية الرسمية: "إن هناك مظاهرات قام بها الشيوعيون المخربون".

تتضمن رواية إبراهيم عبدالمجيد كثيرا من الشعارات الدالة التي يرددها المتظاهرون الغاضبون، والغالب عليها هو التنديد بالغلاء والفقر، وصب اللعنات على لصوص الانفتاح، فضلا عن الرفض للموقف من إسرائيل والولايات المتحدة، ولا ينجو السادات ورموز نظامه وأفراد عائلته من طوفان التهكم اللاذع الموجع: "اللافتات القماشية عليها صور سيد مرعى رئيس مجلس الشعب وعبدالمنعم القيسوني نائب رئيس الوزراء للشئون الاقتصادية وصاحب اقتراحات زيادة الأسعار وعبدالعزيز حجازي رئيس الوزراء وصور السادات مميزة بينها، على أكثرها علامة إكس فوق وجهه. في واحدة منها صورة له وعلى عين من عينيه غِمامة موشى ديان الشهيرة وفي إحدى اللافتات صورة لجيهان السادات في بدلة رقص".

مرعى والقيسوني وحجازي من الرموز البارزة المؤثرة في نظام السادات، وهم المتهمون بصناعة الأزمات عند المتظاهرين، ويتحملون المسئولية عن الخراب غير المسبوق الذي تئول إليه مصر بفعل التوجه غير الشعبي، الذي يتجاوز الساحة الداخلية إلى فلسفة السياسة الخارجية. السادات وزوجه جيهان في الصدارة، والقليل الذي يتبقى من شرعية النظام مهدد بالدمار.

الصمت لم يعد ممكنا، والاتهامات التقليدية التي تطول الشيوعيين و"المخربين" ليست مقنعة. هؤلاء المعارضون لا يملكون القوة التي تؤهلهم لصناعة وقيادة احتجاجات واسعة تشمل أرجاء الوطن جميعا: "مصر كلها خرجت اليوم. هكذا تتطاير الأحاديث. في أسوان مظاهرات وفي الإسكندرية وبورسعيد ودمياط وكل الوجه البحري والقبلي. لا أحد في بيته اليوم من الطلبة والعمال. كل المواصلات توقفت في مصر".

انتفاضة ١٨ و١٩ يناير ليست كغيرها مما تشهده مصر في السنوات السابقة، ومسرحها المكاني يتجاوز العاصمة والجامعات والتجمعات العمالية. الأغلب الأعم من المصريين يشاركون فيها ويتعاطفون معها ويتحمسون في عفوية لشعاراتها التي تعبر عن الأزمة الطاحنة التي تصل إلى ذروتها بالقرارات التي تعصف بالحد الأدنى من الاستقرار والتعايش. ليس أدل على تفرد الانتفاضة وخصوصيتها مما يرصده صابر سعيد من سلوك الشعبيين البسطاء منقطعي الصلة بالسياسة والثقافة، ولا روابط تجمعهم بالتنظيمات اليسارية السرية التي يحملها السادات وأجهزته الأمنية مسئولية الحراك الثوري القوي، النابع من المعاناة في المقام الأول: "تفرقت المسيرة إلى شوارع كلوت بك. دخلت وراءنا قوات البوليس مسرعة بالهراوى. كما كان يحدث في العصور الوسطى إذ يلقى السكان الحجارة والمياه على الغازي للبلاد ظهرت في الشرفات الصغيرة نساء يلقين بالماء الساخن على قوات البوليس. شباب وأطفال وبنات يلقون عليهم ما يجدونه عندهم، فعاد الجنود إلى شارع رمسيس. وقفت مع عدد كبير من الشباب نضحك ونصفق للنساء في البلكونات ونسمع منهم الدعاء لنا والدعاء على السادات وحكومته".

للتنفيس عن الغب المتراكم أشكال شتى، والمقاومة الشعبية وليدة إحساس عارم بقسوة نظام السادات وانحيازه إلى الأقلية الثرية التي يعاديها الفقراء مسلحين بوعي طبقي غريزي. في انتفاضة يناير، يصل الصبر الشعبي إلى محطته

الأخيرة، وينفجر البركان الذي يثير ذعر السادات فتتناثر الإشاعات عن هروبه. لا بديل لإنقاذ النظام من محنته إلا إلغاء القرارات الجائرة، مفجرة التحدي الأخطر الذي يوشك أن يطيح بنظام لا شعبية له: "فجأة هلل المتظاهرون أن السادات ألغى القرارات الاقتصادية. لا أعرف كيف عرفوا الخبر. هناك أشياء في الانتفاضات والثورات لا تفسير لها إلا أن ملائكة في السماء ترعى على الأرض أبناءها الثوار".

مع انتفاضة يناير يصل التعبير عن الغضب إلى ذروته، ثم يبدأ التراجع والانكسار.

الهوس المتطرف بالظهور الإعلامي الذي لا ينقطع، كأنه الطقس اليومي المقدس، ملمح مهم في شخصية السادات ذات الطبيعة الاستعراضية. ويأبى الإعلام الرسمي إلا أن يضفى على رأس النظام هالة أسطورية مصنوعة بغير إتقان، ما يدفع واحدا من النوبيين الذي يظهرون بشكل عابر إلى طرح سؤال بالغ البساطة والصعوبة معا: "لماذا يا أستاذ سعيد كلما قال الرئيس السادات كلمة تقول الجرايد إنها كلمة تاريخية؟".

يقدم سعيد صابر إجابة لا تشفي غليلا ولا تطرح تفسيرا واضحا مشبعا: "بصراحة لا تفسير عندي. لكن السادات يمكن أن يقول أي شيء والصحافة تحت أمره"!.

هل يفلح الإلحاح الإعلامي المكثف في صناعة شعبية لا تنهض على أساس من العطاء الإيجابي الملموس"!. الإجابة بالنفي، ذلك أن المعالجة السطحية الإنشائية تدفع إلى السخرية والتهكم، وتكشف عمليا عن الفارق الشاسع بين ما يُقال وما يشهده الواقع اليومي من أزمات. لا يملك البسطاء والعاديون من الناس ترف اختيار ما يستمعون إليه في المتاح لهم من قنوات إعلامية. فالسادات يحتل المحطات الإذاعية جميعا: "كل يوم خطبة للسادات جديدة أو معادة في الراديو والتليفزيون". إنه يشغل ثلاث ساعات تقريبا من الإرسال في المساء لخمسة أيام في الأسبوع على الأقل".

في خطبه التي لا تتوقف، ويضيق بها الناس من فرط كثافتها، يتطرق السادات بلا ضوابط منطقية إلى الكثير من القضايا التي ينشغل بها، وتتوالى دروسه وعظاته التي تكشف عن عدائه المتطرف لليسار والشيوعية والاتحاد

السوفيتي، وتبرهن على انحيازه غير المشروط للولايات المتحدة والغرب: "كان السادات يسخر من الشيوعيين والاتحاد السوفيتي والثورة البلشفية، وكان كعادته جادا جدا في الحديث فيما لا يستحق ذلك"!.

الديمقراطية أيضا موضوع أثير في خطب السادات وطوفان التصريحات التي يدلي بها، والمفارقة لافتة بين أحاديثه هذه والممارسات التي تتجسد في الواقع: "المسخرة الأكبر كانت فوز السادات في الاستفتاء على مدة رئاسية جديدة في ١٦ سبتمبر بنسبة ٩٩,٩٣% من الأصوات. تقريبا لم يدلِ بصوته إلا هو كما يقول سعيد وإن كان قد أدلى بصوته وصورته في الصحف!. ولأننا كنا في العشرة أيام الأخيرة من رمضان قال عمر: حتى رمضان لم يمنعهم من تزوير الاستفتاء!".

كيف يكون للضجيج الإعلامي عن ديمقراطية السادات صدى ومصداقية في ظل ممارسات هزلية كهذه؟. هل يستقيم الإلحاح على أحلام الرخاء والازدهار الاقتصادي مع المعاناة التي تكابدها أغلبية المصريين وتقف بالكثيرين منهم على حافة المجاعة؟!. مصر السادات ليست وطنا مستقرا، وحمى السفر والهروب تسيطر جراء قسوة الفقر التي تترتب على سياسة الانفتاح المنفلت الذي يعيد تشكيل الخريطة الاجتماعية: "نظرت أكثر من مرة للطابور الطويل من الراغبين في ترك البلاد. لابد بينهم مثلى محاربون حضروا حرب الاستنزاف، وربما أيضا حرب أكتوبر. أجل فبينهم شباب يبدون قد تجاوزوا الثلاثين من العمر. هؤلاء أبطال أكتوبر الذين ظلوا في الخدمة العسكرية أجمل سنوات عمرهم يرحلون عن بلدهم التي حرروها. سياسة الانفتاح الاقتصادي التي أعلنها الرئيس السادات فتحت الباب للرأسمالية الطفيلية تنهب البلاد. تستورد البضائع الفاسدة من كل الدنيا وتهرب بأموال البنوك من مصر. البنوك التي تعطيها القروض بلا ضمان. في مصر الآن البلوبيف المخصص أصلا للكلاب يُباع للبشر، ويتم القبض على الباعة والمستوردين ولا ينقطع. في مصر الآن مزارع للدواجن التي تكبر خلال شهر لتصبح صالحة للأكل بعد أن تغذت على أطعمة بها مواد عضوية وكيماوية تجعلها تنضج بهذه السرعة وعليها طوابير من الفقراء لشرائها. في مصر الآن رأيت في بولاق أكثر من عربة يد عليها بائع يبيع أرجل الدجاج وهناك نساء تشتريها لتصنع منها شوربة تجعلهم يصبرون على عدم وجود اللحم أو الدجاج. هؤلاء الذين يقضون ما تبقى من عمرهم في الغربة ويرسلون المال أو يشترون في إجازاتهم شققا ليسكنوا إليها

ويكون لهم بيت ووطن ثم يضيع كل شيء لأن صاحب العمارة فرَّ بما أخذه من نقود بعد أن أجر الشقة الواحدة إلى خمسة وعشرة وحصل منهم جميعا على "خلو رجل"، وهؤلاء هم حملة المؤهلات فما بالك بمن هم بلا مؤهلات كيف يكون حالهم".

تتآكل مصر وتنقلب أوضاعها وتتمزق ساقطة في قبضة الفساد المتوحش المسرف في النهم والجشع، وهو فساد يفوق كل ما يعرفه المصريون في عصورهم المختلفة. عصر ذهبي للطفيلية، وكابوس مرعب للسواد الأعظم من الفقراء الهامشيين الضائعين المسحوقين، أما الطبقة الوسطى فيهاجر أبناؤها ويتغربون ويتراجع ما يتسلحون به من قيم الثقافة والحضارة وتدعيم القواعد الأخلاقية التي ينهض عليها المجتمع ويتوازن. سقوط مدو يفضى إلى الاغتراب والتشيؤ والشعور الحاد بالقهر والهوان والخواء: "ليس معقولا أن نتخرج في الجامعة ونحارب ثم نخرج لنجد وطنا لم يعد لنا".

لم تعد مصر وطنا للمصريين في عهد السادات ، والانقلاب الذي يقوده يدمر كل راسخ مستقر، وعندئذ تطل أشباح الخراب، ويمكن تلخيص أبعاد الكارثة في كلمات مكثفة: "كل شيء جميل يضيع في مصر الآن".

لم تكن الحقبة الناصرية جنة خالية من المثالب والعيوب والمعاناة، لكنها تكتسب توهجا مضيئا عند المقارنة بالسمات الكابوسية لسياسة السادات. كلا النظامين يتسم بالقهر والقمع وإقصاء القوى المعارضة بلا رحمة، وينفرد عبدالناصر بالانحياز إلى الفقراء. من هنا يدافع عنه قطاع ممن يتعرضون لبطش أجهزته الأمنية، ذلك أنهم لا يخلطون بين الذاتي والموضوعي. يُعتقل سراج منير خمس مرات: "منها مرتان في عهد عبدالناصر نفسه الذي يدافعون عما حققه في الاقتصاد أمام خراب السادات للبلاد".

القهر السياسي مشترك في مرحلتي عبدالناصر والسادات، وكتاب "الأقدام العارية" لطاهر عبدالحكيم، الذي يحمل في الرواية اسم طارق عبدالحكيم، يقدم شهادة موجعة حافلة بالتفاصيل عن تعذيب المعتقلين الشيوعيين في سجن الواحات، والجدير بالتأمل والاهتمام أن الكتاب يتعرض للمنع والمصادرة في ظل حكم السادات: "الكتاب منعت الرقابة دخوله في مصر. آه والله، رغم أن السادات شغال مسح في عبدالناصر!".

على الرغم من أن السادات يقود حملة شرسة للهجوم على عبدالناصر والتشهير به وتسفيه إنجازاته، فإن المصادرة منطقية للكتاب الذي يفضح جرائم التعذيب في سنوات حكمه، ذلك أن المنهج نفسه مستمر بلا تغيير جوهري.

الحكم الديكتاتوري القمعي المستبد جدير بالإدانة، ناصريا كان أم ساداتيا، وفي فيلم "زائر الفجر"، للمخرج ممدوح شكرى، الذي يُعرض مشوها في زمن السادات، بعد صراع طويل مرهق مع الرقابة، ما يتيح الفرصة لتأكيد المقولة التي لا ينبغي أن يُختلف عليها أو يُثار حولها جدال: "ولا يزال الناس يدفعون ثمن الديكتاتورية".

في "هنا القاهرة"، شهادة عميقة لا مباشرة فيها أو فجاجة عن زمن التحولات التي تمتد آثارها لعقود تالية، وعبر شخصية السادات تتبلور كثير من ملامح الرؤية الموضوعية التي تتشكل من خلال تجربة إنسانية ذاتية، تتسم بالصدق والهرولة بعيدا عن الأحكام سابقة التجهيز. كل جميل يتبخر، والهوية المصرية معرضة للتشويه العمدى. ليست مصادفة أن تتوقف أم كلثوم عن الغناء في مطلع عهد الرئيس الجديد، وأن تكون علاقتها مع السادات وزوجه جيهان متوترة خالية من المودة والانسجام: "توقفت أم كلثوم عن الغناء الآن. قيل إن السبب هو خلافها مع جيهان السادات لأن سيدة الغناء حدثت السادات مرة بعد أن صار رئيسا بلا تكليف كما كانت تتحدث معه أيام عبدالناصر".

تتوقف أم كلثوم عن الغناء قبل رحيلها، الذي يعنى إسدال الستار على عصر كامل، وينجح السادات في صناعة حالة من اليأس والإحباط، يعبر عنها سعيد صابر في قوله: "يا عم إحنا عارفين نغير الشقة اللي عايشين فيها لما حنغير العالم!".

الفصل الثالث عشر

مصطفى نصر

عبر رحلة تمتد لأكثر من مئة عام، منذ سنة ١٨٦٢ إلى قرب نهاية السبعينيات من القرن العشرين، يستعرض مصطفى نصر في روايته "يهود الإسكندرية" جوانب مهمة متنوعة من تاريخ اليهود في مصر، ويتوقف أمام الكثير من سمات الشخصية اليهودية، مسلحا برؤية فيها ما يستدعي الاتفاق والاختلاف، والأبرز فيها أنها لا تهمل العناصر الموضوعية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي تتجاوز الدائرة اليهودية المغلقة.

تدور أحداث القسم الأول: "ملاذ"، في ستينيات القرن التاسع عشر، زمن حكم الوالي سعيد، ويقفز القسم الثاني: "وصال"، إلى العام ١٩٤٢ وما بعده بقليل، حيث الملك فاروق والحرب العالمية الثانية. أما القسم الثالث والأخير: "جوهرة"، فينتقل إلى السبعينيات وحقبة السادات ذات التحولات الجذرية العاصفة. في القسمين الأخيرين، يحظى السادات بوجود مؤثر. الضابط المفصول الهارب المطارد في الأربعينيات، هو نفسه رئيس الجمهورية الذي يستعيد ذكريات تاريخه القريب.

الشهادة التي يقدمها مصطفى نصر تتجاوز رصد وتحليل علاقة السادات مع اليهود وموقفه من إسرائيل، وهو محور بالغ الأهمية، إلى التأمل في عموم شخصيته وطبيعة قراراته التي تكشف عن المفاتيح الأهم لقراءة وتقييم السياسات التي ينتهجها.

مع اقتراب العام ١٩٤٢ من نهايته، وزحف الجيوش الألمانية النازية إلى الإسكندرية، يسيطر الذعر على اليهود المحليين جراء ما يتردد، في إطار لا يخلو من المبالغة، عن أهوال المذابح التي تطول اليهود في البلدان التي يجتاحها الغزو. لا ينجو اليهود سكان عزبة جون من المخاوف الكابوسية، وفي ظل المناخ المشحون بالتوتر والقلق ينتبه اليهودي مظلوم إلى وجود رجل غريب يجلس في قهوة رجب

عسكر: "رجل أسمر، يرتدي ملابس كاكية، ويضع طاقية من الصوف فوق رأسه. مظلوم يشك في هذا الرجل".

في عيون اليهود المسكونين بالرعب، يبدو كل غريب غير مألوف مرشحا لدور الجاسوس الألماني، لكن الرجل الأسمر لم يكن إلا ضابطا مطرودا من الخدمة العسكرية لأسباب سياسية، والهدف من زيارته للعزبة هو الاتفاق مع اليهودي منير، صاحب ورشة البمب والصواريخ:

"-إننى أعمل مع الثوار.

وقف منير غاضبا:

-وما شأني بالثوار؟!

-نريدك أن تصنع لنا قنابل يدوية نستخدمها ضد الإنجليز".

يستسلم منير للإغراء المادي بلا مقاومة جدية، ذلك أنه جشع نهم لا مطلب له في حياته الجافة المتقشفة إلا تكديس النقود، وسرعان ما يعود الغريب الأسمر المجهول ليطلب ملاذا آمنا بعيدا عن مطارديه، وعندئذ يضطر إلى كشف أوراقه المخبوءة والبوح ببعض الأسرار التي تبرر مطلبه بالإقامة المؤقتة في بيت اليهودي: "كان منير يقف أمام ماكينة، والعامل يعمل عليها، عندما رأى الرجل الأسمر أسرع إليه مرحبا. أدخله حجرته الصغيرة، وأغلق الباب خلفهما. قال منير:

- الورشة كلها تعمل من أجلك.

قال الرجل وهو ينظر إلى الأرض في حياء:

- في الحقيقة، لم أجئ اليوم من أجل القنابل، وإنما جئت لكي أختبئ في بيتك.

وقف منير مندهشا:

- ماذا تقصد؟

- لا تخف، الأمر بسيط للغاية، لقد قصدت منطقتكم لأنها بعيدة، ولا يفكر أحد في أن يتبعني فيها.

- من الذين يتبعونك؟

أخرج الرجل بطاقته، وقدمها لمنير:

- لقد كنت ضابطا في الجيش، لكن...

قاطعه منير قائلا:

- أرجوك، لا أريد أن أتعاون معك، ونقودك سأردها إليك.

- لا أريد نقودا، بل سأعطيك نقودا أخرى، لكن أخفني في بيتك لثلاثة أيام؛ لا أكثر، إلى أن أجد طريقة للهرب".

السادات، ضابط الجيش المفصول المطارد، الباحث عن مخبأ يحتمى فيه، لا يتوقف في رحلة هروبه هذه عن التشبث بممارسة "العمل الوطني" الذي يقوم به، مقتنعا بأن العداء للاحتلال الإنجليزي يبرر التعاون مع الغزو الألماني كأنه الخلاص. لا معنى هنا للحديث عن دقة الواقعة التاريخية التي تقدمها الرواية، ذلك أن النص ليس عملا تسجيليا يعيد إنتاج التاريخ القريب، بل إنه يمزج بين الحقيقي والمتخيل. الحقيقة المؤكدة هي النشاط السري للسادات في سنوات الحرب، والخيالي يتمثل في ابتكار أماكن مغايرة يذهب إليها متنكرا. تقييم الموقف لا يمكن أن يكون عادلا بمعزل عن جوهر الرؤية والمعالجة، ولا عبرة بالتفاصيل ومصداقيتها.

إذ يقول منير للضابط الهارب إنه يخاف من الأغراب، ويرتعد رعبا من الكراهية العميقة التي يكنها الألمان النازيون لليهود، يرد السادات ضاحكا:

"-مالي والألمان. أهذه بشرة لها صلة بالألمان، كما أنني أثبت لك إنني كنت ضابطا في الجيش، لكنني مرفوت الآن.

- لكنك ستتسبب لي في مشاكل مع البوليس، وربما مع الإنجليز أيضا.

- لا، اطمئن، ثلاثة أيام لا أكثر، ولن يحس أحد بوجودي".

ليس مستغربا أن ينكر السادات تعاونه مع الألمان في حضرة اليهودي الخائف، مسلحا بحجة بالية تتعلق بلون البشرة!، ولا غرابة أيضا في ترحيب منير بإيوائه مدفوعا بالجشع المادي. أم منير، نظيرة، هي التي لا يغادرها الخوف في الليلة الأولى: "نام الرجل الأسمر في حجرة تقع بين البيت والورشة، كانت تُتخذ مخزنا للوازم البيت؛ ومازال بها بعض أجولة الدقيق وعلب الزيت. لكنه لم يهتم، وضع جسده فوق الفراش ونام.

نامت نظيرة في تلك الليلة قلقة، أيكون هذا الرجل جاسوسا من الألمان لكي يقضى عليهم. الولد منير الخائب يقول: "كيف يكون ألمانيا ولونه أسود هكذا؟!". إنه الوضع الطبيعي، أن يرسلوا جاسوسا لا يشك فيه أحد".

البشرة السمراء لا تتعارض مع العمالة والتجسس لحساب الألمان، والأم العجوز هي التي تنبه الابن الساذج إلى الخلل الفادح الذي يحكم معاييره في التقييم السطحي. الإدانة المطلقة للسادات ليست منطقية، فما أكثر الوطنيين محدودي الوعي الذين يجدون في أعداء أعدائهم أصدقاء، ولا يكلفون أنفسهم عناء التأمل والتحليل الدقيق الذي يقود بالضرورة إلى نتيجة مغايرة. لا شك أن معاناة السادات، كما تتجسد في هروبه الدائم وطبيعة المكان الذي ينام فيه، تنهض دليلا عمليا على إيمانه بالفكرة وما يترتب عليها من تضحيات. منير نفسه من يقدم توصيفا مهما لأجواء المرحلة وما تحفل به من اضطراب واختلاط يدفع إلى الارتباك: "الجمعيات السرية تنتشر في كل جزء من مصر، في القاهرة والإسكندرية والصعيد.

يلقون بالقنابل فوق العربات العسكرية التي تحمل جنود الحلفاء. وصول روميل إلى ليبيا، ودخوله الصحراء الغربية المتاخمة للإسكندرية، شجع هذه الجمعيات، فليس غريبا أن يأتيه ذلك الرجل الأسمر ليتفق معه على صناعة القنابل".

التشكيك في وطنية السادات لتعاونه مع الألمان ليس عادلا، والطعن في محدودية وعيه القاصر هو الممكن، وفي حواره مع العجوز نظيرة ما يؤكد أن دوافعه وطنية خالصة قدر اجتهاده، دون نظر إلى ما قد يراه غيره من خلل في توجهه: "كان يقدم الطعام إلى نظيرة بنفسه، فتأخذه صامتة، وجوهرة تتابعه سعيدة. بعد لحظات قصار تحدثن معه، اطمأنت نظيرة، سألته عن سبب تحمله المشاق هكذا دون طائل.

- لماذا لا تعيش حياتك مثل الآخرين؟

- ونترك الإنجليز في بلادنا؟!".

يتوهم السادات ومن يماثلونه في التفكير أن الاستعمار الألماني هو الأفضل، ومثل هذا التصور الساذج ينم عن أزمة حقيقية في قراءة المشهد السياسي، وهي أزمة تتوافق مع طبيعة المرحلة التاريخية. من ناحية أخرى، فإن الجدير بالاهتمام هو التواصل الإنساني الدافئ للسادات مع الطفلة اليهودية جوهرة، ابنة منير. يهديها ساعته الكبيرة القديمة، ويعلمها ألعابا كثيرة لا تعرفها. تتعلق به وتحبه لفرط بساطته ومرحه، أما مظلوم فلا تغادره الشكوك والهواجس، ويصر على أن

الأسمر الغريب ليس إلا عميلا للألمان: "الألمان يتتبعون اليهود في كل مكان، ويرسلون عملاءهم للإيقاع بهم، وهذا الرجل الأسمر عميل للألمان لا شك في ذلك".

تنتهي الحرب العالمية بهزيمة ألمانيا النازية، وتشهد السنوات التالية تحولات خطيرة: الإعلان عن قيام دولة إسرائيل في مايو ١٩٤٨، ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي تطيح بالنظام الملكي وتؤسس مرحلة جديدة في التاريخ المصري. مع المتغيرات الداخلية والخارجية، تتأثر وضعية اليهود في مصر، وصولا إلى حقبة السبعينيات التي تشهد عهدا جديدا مختلفا، علامته الأبرز وصول الهارب المختبئ في عزبة جون إلى مقعد رئاسة الجمهورية.

في القسم الثالث من الرواية: "جوهرة"، إشارات محدودة إلى المرحلة الناصرية وملامحها الأبرز على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، التأميم وزلزلة الخريطة الطبقية التقليدية بالانحياز إلى الفقراء، ويتجسد ذلك بوضوح في المصير التعيس الذي يئول إليه حسن باشا بدوي،

الرأسمالي الصناعي وثيق الصلة بالملك أحمد فؤاد، وصاحب النفوذ الملموس في عهد فاروق: "أمم عبدالناصر مصنعه، وجعله يعود من شركته راكبا سيارة قديمة تُستخدم في نقل العاملين الذين يسكنون الإسكندرية، وحكى العمال في اليوم التالي عما حدث للباشا داخل السيارة، لقد سخر منه بعض العمال، قال أحدهم ساخرا بصوت مرتفع: راحت عليك يا باشا زي ما راحت على زينب عصفور"!.

زينب عصفور قوادة سكندرية شهيرة فاحشة الثراء، لا تنجو مثل الباشا من أفاعيل الزمن. النهاية المأسوية للباشا تعبير دال مكثف عن طبيعة التغيير العاصف الذي تشهده مصر، ويسفر عن سقوط وإهانة الرموز القديمة من أعمدة العهد البائد. الصراع ليس متكافئا ويخلو من الندية، ذلك أن ضحايا الثورة لا يملكون من القوة ما يؤهلهم للمقاومة والاحتجاج: "لا يستطيع أن يبقى في قصره، وآخرون يتحكمون في مصنعه أمامه، سيترك لهم قصره إلى أن يجد حلا لمشكلته.

أي حل، هل سيناطح عبدالناصر؟ من يقدر في هذه الأيام على أن يعارضه، أو حتى يناقشه؟".

يطيح الزلزال الناصري بأعمدة النظام السابق، فهل يصدر التوجه الجديد عن رؤية اشتراكية تقترب من الماركسية؟!. يتحفظ الشيوعيون في رواية مصطفى

نصر على توجهات عبدالناصر. ولا يرونها متوافقة مع أيدلوجيتهم، والدكتور عباس ماركسي له أتباعه الذين يسيرون على نهجه. إذ تقول عايدة إن الأفكار الماركسية هي المسئولة عن المحنة التي تعجَّل بموت أبيها، يعلق أبوالدرداء في جدية: "قرارات عبدالناصر الاشتراكية، ليست لها صلة بأفكار الدكتور عباس".

في المقابل، لا تهتم الرواية بموقف عبدالناصر من اليهود في مصر، وتتجاهل التقلص الكبير لأعداء اليهود، القليلة منذ البدء، وصولا إلى ما يشبه الاندثار والتلاشي بعد حرب يونيه ١٩٦٧. كيف لرواية تتخذ من يهود الإسكندرية موضوعا لها أن تتجاهل سنوات التدهور هذه؟، وكيف لها ألا ترصد المناخ الذي يدفع إلى الرحيل الجماعي، فلا يبقى من اليهود إلا أفراد قلائل غير مؤثرين؟!.

مع صعود السادات إلى مقعد الرئاسة، يتغير المسار مجددا، والطفلة القديمة جوهرة هي الجسر الذي ينطلق منه البناء الروائي لمواصلة الرصد في إطار فردي.

بعد ثلث قرن تقريبا من لقاء الطفلة جوهرة مع السادات، الهارب من المطاردة في سنوات الحرب العالمية، تتطلع اليهودية الوحيدة المأزومة كسيرة القلب، غير المتحققة عاطفيا، لمقابلة صديقها القديم الذي يهديها ساعته ويعلمها ألعابا متنوعة. تقول للجار والحبيب كمال، الذي يتزوج ابنة الباشا ويضيق بإلحاح جوهرة التي تطارده وتأبى التفريط فيه:

"- انظر إلى هذه الصورة.

- إنه الرئيس السادات.

كان السادات في زيارة لأحد المصانع الكبيرة وهو يلبس خوذة فوق رأسه. صاحت جوهرة بضيق، فكمال لم يستطع احتمالها للحظات، يريد أن ينتهي ليعود إلى زوجته التي أخذته منها.

- السادات في هذه الصورة، يشبه إلى حد بعيد الرجل الأسمر الذي جاء إلى بيتنا قبل انفجاره بأيام قلائل.

رمى الجريدة في استخفاف:

- إنك تحلمين، ليس هناك شبه بينهما.

- إنك لم تر الرجل الأسمر الذي جاء إلى بيتنا إلا مرات قليلة، وكان هذا من بعيد، لكننى اقتربت منه، وحدثته، ومكث معي طويلا.

- وماذا تريدين منه؟

- أن أذكره بما حدث، فلا شك سيهتم بي، لا تنسَ أنه رئيس الدولة الآن.

أمسك الجريدة ثانية، وتابع صورة السادات في إمعان وقال:

- جوهرة، أنتِ أختي وتعلمين مدى حبي لك، ابتعدي عن هذا الطريق، وإلا ستندمين".

لم يكن السادات مجهولا بعيدا عن الأضواء والاهتمام الإعلامي بعد ثورة يوليو، وكثيرة هي الصور التي تنشرها له الصحف في مناسبات شتى، فكيف لم تنتبه إليه جوهرة وهو يتولى مناصب مؤثرة على نحو ما، مثل رئاسة مجلس الأمة، قبل أن يُعين نائبا لعبدالناصر ويصعد من خلال منصبه الأخير هذا إلى الرئاسة؟!. لأن الرواية لا تهتم بسنوات العهد الناصري، ولا تنشغل بوضعية اليهود خلالها، يتم القفز إلى السبعينيات حيث رغبة جوهرة في مقابلة الهارب القديم الذي يلوذ ببيتهم. الدافع الأهم لاهتمامها هو البحث عن مكاسب لابد أن تنالها من العلاقة التي تربطها مع الرئيس، أما تحذير كمال فمرده إلى اليقين الذي يسكنه بأن الاقتراب من منطقة ملغومة كهذه قد يفضي إلى نتائج سلبية وخيمة: "أمسكت بجريدة "الأهرام"، وفيها الرئيس السادات وهو يلبس الخوذة القريبة الشبه بطاقيته الصفراء ذات الأذنين التي كان يرتديها، ويغطي بها نصف جبهته وأذنيه، لكي يختفي من مطارديه. إنه هو لاشك. كمال يسخر من حديثها: أي جنون هذا، كيف يكون الرجل الأسمر الذي جاء إلى المنطقة أيام الحرب العالمية، ليتفق على صناعة القنابل اليدوية، هو الرئيس السادات الذي يحكم مصر الآن؟! إنه تخريف لا شك".

سخرية كمال من مقولات جوهرة لا تنهض على أساس مقنع، فما الذي يحول دون صعود السياسي القديم الهارب إلى مقعد الرئاسة، وهل كان غيره من الضباط الأحرار معروفين مرشحين للحكم قبل الثورة؟!. المسألة عند جوهرة علاقة إنسانية شخصية تقترن بالطفولة ولا شأن لها بالسياسة، أما محسن والد كمال فإنه يتخذ موقفا سلبيا من السادات ولا يراه أهلا للمنصب: "لم يكن يظن أن السادات سيحكم مصر، وعندما عينه عبدالناصر نائبا له، قال: لا أتوقع أن يكون رئيس مصر رجلا يرتدي بذلة بصفين!.

كان يقصد أن السادات هذا رجل دقة قديمة، ولا يستطيع أن يتجاوب مع التقدم والمدنية التي تحدث في العالم".

تقييم السادات من خلال ملابسه الموصوفة بالتقليدية، والتأكيد على أنه "دقة قديمة" غير قادر على مجاراة العصر، لا يمكن أن يكون تحليلا سياسيا جادا منصفا، ويأبى الروائي بدوره إلا أن يتدخل فيكتب هامشا مقحما يقول فيه: "لكنه حكم، بل وصار من أشيك رجال العالم"!.

الدائرة التي تتحرك فيها جوهرة ذاتية خالصة، والنقد الذي يوجهه محسن للسادات "شكلي" متهافت هش لا شأن له بالتحليل السياسي المتماسك. أما زملاء المرأة اليهودية في المستشفى فإنهم يصغون إلى ما تحكيه عن معرفتها القديمة بالسادات في إنكار، ويبالغون في التهكم والسخرية من "الأوهام" التي ترددها: "وصارت حكايتها هذه – في المستشفى الأميري – مدعاة للسخرية منها، حتى وصلت للأطباء الكبار، رؤساء الأقسام والمديرين، وكانوا يقولون عنها – إذا مرت أمامهم – إنها الممرضة التي تعرف الرئيس السادات والذي اختبأ في بيتهم أيام الحرب العالمية الثانية".

في مواجهة طوفان التكذيب والسخرية، تصر اليهودية الحالمة على استعادة الماضي واستثماره، وتفكر في كتابة رسالة إلى السادات، فهي على يقين من أنه هو نفسه الرجل الأسمر الذي يختبئ في بيتهم قبل أن ينهار بفعل الانفجار الهائل الذي تفقد فيه الطفلة أباها وأمها وجدتها، ويحل الدمار الشامل بالبيوت المحيطة: "سترسل إلى الرئيس السادات، تذكره بهذه الأيام، ستقول له: "إن الساعة التي أهديتها إليَّ مازالت معي، هي لم تعد تصدر صوتا كما كانت، لكنني سأعطيها إلى ساعاتي لكي يمسحها، ويعيد إليها الحركة والصوت. لكن هذا قد يعرضها للأذى، فالرئيس سيغضب، حتى لو كان هو – حقيقة – الرجل الأسمر الذي جاء إلى المنطقة وتناول طعامهم، ونام في الحجرة الصغيرة التي كانوا يتخذونها مخزنا لتموين البيت. كما أن هذه الرسائل لا تصل – عادة – إلى الرئيس، فلديه أجهزة تتلقى رسائله وترد على بعضها، وتتخذ الإجراءات في معظمها، ومن هذه الإجراءات؛ القبض عليها لأنها تجرأت على شخص الرئيس. فالقانون المصري يعاقب الذين يتجرءون على الرؤساء، أو يسيئون إليهم".

الكتابة مغامرة متعددة الاحتمالات، وقد تصعد بها الرسالة وتحقق الأحلام المنشودة، وربما تعرضها للأذى بتهمة الإساءة إلى الرئيس. بالنظر إلى أزمتها العاطفية الطاحنة، لا تبالي جوهرة بالنتائج السلبية المتوقعة، وتندفع في الكتابة: "قطعت جوهرة ورقتين من كراسة لديها، وكتبت للرئيس السادات عما تراه: هل أنت الرجل الطيب الذي جاء ليتفق مع والدي – منير – على صنع قنابل يدوية ليلقوا بها على الإنجليز المحتلين، وكنت ترتدي طاقية من الصوف صفراء اللون ذات أذنين مرفوعتين لأعلى، وعلمتني بعض الألعاب اللطيفة. ما زلت ألعبها مع زميلاتي في المستشفى الذي أعمل به الآن، وأهديتني ساعة جيب فضية اللون، تصدر أصواتا عالية؟.

ملحوظة: الساعة ما زالت معي، ويمكنك أن تراها بنفسك لكي تتأكد من قولي".

كتبت جوهرة على المظروف: السيد المحترم الأستاذ محمد أنور السادات رئيس الجمهورية".

رسالة إنسانية خالصة لا شبهة فيها لانتماء سياسي، وليس أدل على محدودية وعي جوهرة من وصفها للرئيس بـ "الأستاذ"!، وتكشف تداعيات الرسالة والنتائج المترتبة عليها عن جوانب مهمة في شخصية السادات، فهو يستجيب سريعا ويتفاعل في إطار استعراضي ينم عن ولعه بالسلوك ذي الصبغة التي لا تليق إلا بالملوك في التعامل مع الرعايا.

يبدي السادات اهتماما لافتا برسالة جوهرة، ويتحرك اللواء عبدالتواب هديب محافظ الإسكندرية إلى عزبة جون، مفكرا في سر الزيارة المباغتة التي يعتزم الرئيس القيام بها للمكان المجهول الهامشى: "التعليمات جاءت بالأمس، وفي وقت متأخر جدا، بأن سيادة الرئيس سيزور عزبة جون التابعة لمنطقة الطابية، الملاصقة لمنطقة المعدية التابعة لمحافظة البحيرة.

وفي سيارات أخرى أعضاء الحكم المحلي، وأعضاء مجلس الشعب عن منطقة شرق الإسكندرية التابعة لها الطابية، وأعداد هائلة من العاملين في شركات راكتا والورق الأهلية وقها وقفوا على جانبي الطريق الضيق ليحيوا الرئيس وهو سائر بموكبه في طريقه إلى عزبة جون".

كما العهد به دائما، يتخذ السادات قرارات انفعالية فردية يربك بها الجميع، ولا يعرف أي من مساعديه شيئا عن الأسباب والدوافع والأهداف. يتحرك الجميع لتنفيذ الأمر الرئاسي غير المسبوق بتمهيد، والحشود التي يتم تجميعها للاستقبال والترحيب تتوافق مع ولع السادات بالأبهة والعظمة كأنه الملك وليس الرئيس. قد يكون صحيحا أنه لا شيء يؤخذ على زيارة كهذه، لكن المنهج المتبع في تنفيذها يكشف عن ملمح مهم في شخصية السادات، وهو ملمح يتجاوز عزبة جون وجوهرة إلى عموم مواقفه وقراراته: "الرئيس لم يعط رجاله فرصة، لكي يسألوا عن جوهرة هذه التي يريد مقابلتها وزيارتها في بيتها، لقد فاجأهم برغبته الغريبة هذه، ولم يقدر أحدهم بأن يقول له: إن هذه الزيارة قد تسبب خطرا على حياته، وكان يجب أن تخطرنا قبل موعد الزيارة بأيام لنحضّر لكل شيء، لكنهم تعودوا من الرئيس هذه الرغبات المفاجئة، والغريبة".

هل تختلف زيارة السادات لجوهرة عن الزيارة التي يقوم بها لاحقا لإسرائيل؟!. المشترك بين الزيارتين هو الاندفاع غير المحسوب، والفردية في اتخاذ القرار، والغياب الكامل لدور المحيطين به؛ أولئك الذين تباغتهم القرارات غير التقليدية فيهرولون لاهثين حائرين دون استيعاب وفهم، ما يفضي عادة إلى تداعيات كارثية لا يسهل إصلاحها.

لا تصدق جوهرة خبر زيارة الرئيس للشقة المتواضعة التي تقيم فيها، واللافت للنظر هو تفكيرها في السادات قبل وصوله كأنه الملك الذي يمنح بسخاء، يرتفع به الفقراء المهمشون في لحظة إلى قمة الثراء. سلوك السادات الاستعراضي يؤكد صواب ما تفكر فيه اليهودية المسكونة بحكايات وذكريات تنتمي إلى زمن موغل في القدم: "سار سيادة الرئيس بردائه الريفي وعصاه الطويلة، وشاربه الكث، لقد فضّل ارتداء هذا الزي لأنه رآه مناسبا لهذه الزيارة.

سار في الشارع العمومي، الجماهير المحتشدة بعيدة، هناك سياج من حديد يمنع تحركها، لكن البعض رأى الرئيس وهو يسير فوق الأرض التي يدقها بعصاه، وعباءته البنية المطرزة تشع نورا يراه الناس من بعيد. هللوا عندما رأوه هكذا، فنظر إلى الخلف ورفع عصاه لأعلى".

في اللقاء المباشر مع جوهرة ما يؤكد الملامح الأهم والأكثر رسوخا في شخصية السادات، الأقرب إلى الملوك والسلاطين منه إلى الرؤساء المحكومين بقواعد وأطر

دستورية ومؤسسية: "دخل الرئيس البيت، صعد الدرجات التي لم تسنح الفرصة لكي تنظف، أو تجرى عليها بعض التعديلات التي تناسب مقام وقدر سيادته، كان يتحدث مع جوهرة:

- ما زلت أذكرك، كنتِ ضئيلة الحجم، وكانت أمك، لقد نسيت اسمها..

- وصال يا سيادة الرئيس.

- وصال، وجدتك نظيرة، ما زلت أذكر اسمها، كانت ظريفة، وتضحك من كل شيء، ألم تتزوجي للآن يا جوهرة؟

- لا يا سيادة الرئيس، النصيب.

- سنزوجك.

نظر إلى الرجل العملاق وقال:

- زوجوها.

فأحنى الرجل رأسه مبتسما".

يستعيد الذكريات منتشيا ببعض لحظات تاريخه الشخصي القديم قبل ثلث قرن، ويحتفظ في ذاكرته بمخزون لا يتبخر عن الجدة نظيرة، أما المثير للدهشة بحق فهو حديثه عن زواج جوهرة كأنه قرار رئاسي يسهل تنفيذه: "زوجوها"، وهي كلمة آمرة تدفع بالرجل العملاق الذي يصاحبه إلى الابتسام، معبرا عن مزيج من الحيرة والإذعان!.

العطاء المادي السخي الذي يقدمه السادات لجوهرة، يبدو كأنه الهبة الملكية، ولأن الواقعة الروائية من نسج الخيال، يغيب الاهتمام بتحديد مصدر المنحة: أهي من المال الشخصي للسادات أم من ميزانية رئاسة الجمهورية، التي هي جزء من الميزانية العامة للدولة، ولا يجوز التصرف فيها إلا وفق معايير مقننة؟.

لا يصدق كمال ما يُقال عن وعد السادات لجوهرة بأن يزوجها ممن تريده:

" قال لعايدة وهو يرتدى ملابسه استعدادا للذهاب إلى الشركة:

- إنها مبالغات، وأشياء لم تعد تحدث في العصر الحديث.

قالت عايدة وهي تضحك:

- السادات يمكن أن يفعل أي شيء".

التعليق الساخر للزوجة يتجاوز زواج جوهرة إلى عموم الفلسفة التي يتبناها السادات في سنوات رئاسته، فهو الحاكم المطلق الذي يحق له أن يفعل أي وكل

شيء بلا ضوابط أو مراجعة، ومن وحي زيارته للعزبة المهملة غير ذات الشأن يفكر كمال في واقعة مغايرة بالغة الأهمية، تترك أثرا خطيرا في التوجه العام الذي تنتهجه مصر على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي: "ذكره هذا بيوم أن جاء نيكسون – رئيس أمريكا- لزيارة مصر، كان كمال يجلس مع صديق له في مقهى النيل بالمنشية، والناس سعيدة بالزيارة، رجل مسن قال: سننعم بالخير الوفير، ما دمنا لجأنا إلى أمريكا.

وقال زميله الذي يجالسه: "يغور الروس بفقرهم"، وأجابه آخر من مائدة بعيدة: السفن الأمريكية تلقى المأكولات للسمك في الماء، بينما تصطاد السفن الروسية السمك الذي اكل طعام الأمريكان.

صديق كمال سعيد بما يحدث، فهو خاطب منذ سنوات وغير قادر على إتمام زواجه ويمنى نفسه بالأحلام، قال كمال: الأمر ليس هكذا، الأمريكان لا يدخلون بلدا إلا أثاروا فيه المشاكل، وسترى".

انتقال دال من الجزئى محدود الأهمية، زيارة جوهرة الاستعراضية المغلفة بالدوافع الشخصية، إلى زيارة الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، بداية التحول الجذري في السياسة المصرية وثوابتها الناصرية. ثمة قطاع عريض في الشارع المصري لا يمكن إنكاره أو إهماله، يندمج في الأحلام الوهمية دون تفكير جاد في مصداقيتها، ولا شك أن السادات بارع في التحليق بعيدا عن الواقع ومعطياته المتجهمة، لكنه تحليق غير محسوب يفضى إلى يقظة مزعجة.

أقلية ضئيلة، عددا ونسبة، تفيد من توجهات السادات التي تمثل انقلابا على فلسفة الحكم الناصري ذي الانحياز للكتلة الشعبية، والصعود السريع لليهودية جوهرة، التي تجمع بعد زيارة السادات لها بين الثراء والنفوذ، نموذج يعبر عن الشريحة التي تغتني في عصر السادات، وفي تفكير المرأة ما يكشف عن وعيها بطبيعة المناخ الذي تعيش فيه: "لابد أن تسعى لتكون ملكة متوجة على منطقة الطابية كلها، لقد قالها الرئيس بلسانه: "من لم يغتن في عهدى لن يغتنى أبدا". والفرصة جاءتك يا جوهرة ولابد أن تستغليها".

هذا هو القانون العام الأكثر أهمية: عهد السادات فرصة لن تتكرر للصعود والثراء السريع، دون نظر إلى الوسيلة ومشروعيتها.

"مبادرة" السادات بزيارة جوهرة في عزبة جون، بعد ثلث قرن من اللقاء الأخير بينهما، لا تختلف جوهريا عن مبادرته اللاحقة بزيارة إسرائيل. الزيارتان مباغتتان مربكتان فرديتان بلا تخطيط أو دراسة جادة متأنية، والنتائج المترتبة عليها سلبية لا تقود إلى تقدم واستقرار. تحتشد جوهرة لاستثمار لقائها غير المتوقع مع السادات: "لقد اختارتها الأقدار ليكون بيتها هو الوحيد الذي لجأ إليه ذلك الرجل الطيب، ويعجب بها، فيداعبها ويعلمها بعض الألعاب الظريفة، ويهديها ساعته الفضية، ولأن السماء راضية عنها وعن أهلها الذين ماتوا في الحريق، أصبح هذا الرجل الطيب رئيسا للدولة، مع أن كل المؤشرات كانت لا تؤدي إلى ذلك. رجل مستكين، لا يهش ولا ينش، يتحمل الإيذاء، ويصبر، لكنه يفوز آخر الأمر، ويحقق ما لم يكن متوقعا. هذه طبيعة مصر، يسهل حكمها، لأن الرجال الذين يحيطون بالحاكم يسهلون له كل شيء، ويعاملونه كأنه إله، ويرفعونه إلى أعلى، ولو كان أقل من ذلك بكثير، وينسبون إليه أعمالا لم يفعلها، أو يقدر على فعلها".

ما تفكر فيه جوهرة خليط متداخل متكامل من الذاتي والموضوعي، وتقييمها السلبي للسادات، قبل صعوده إلى مقعد الرئاسة، لا يتعارض مع محبتها الطاغية له، لكن هذا التحليل لا يتوافق مع ابتعادها عن السياسة. معارضو السادات هم الذين يشيرون عادة إلى استكانته وهامشيته وتحمله للأذى والإهمال طوال سنوات الحكم الناصري، ما يتيح له أن يبقى ويصعد إلى الرئاسة بعد رحيل عبدالناصر. أما عن توصيف الشخصية المصرية على هذا النحو من الاستهانة والإدانة فيؤكد أن انتماء جوهرة لمصر ليس خالصا نقيا. العلة لا تكمن في بعض المثالب التي تنسبها إلى المصريين، فما أكثر الذين يشاركونها في بعض ما تذهب إليه، لكن الأزمة تكمن في رفضها الكامن لفكرة الاندماج في الحياة المصرية والذوبان في نسيجها وإيقاعها. إنها تتشبث بخصوصيتها اليهودية، ولعل هذا ما يفسر حماسها غير المحدود لمبادرة السادات وزيارته للقدس، وفرحتها الطاغية بالخطاب الذي يعلن فيه عن مبادرته غير المتوقعة. الانقسام واضح بين المؤيدين والمعارضين، وعندما تأمر جوهرة مساعدها الخانع قاعود بتوزيع الشربات ابتهاجا بالزيارة، تتباين المواقف وردود الفعل: "معظم الناس شربوا فرحين، لكن البعض رفض هذا، وردد: عندها حق تفرح، فهي لم تنس أبدا يهوديتها.

واليوم تجلس جوهرة أمام التلفزيون لسماع الرئيس وهو يخطب في الكنيست الإسرائيلي، لقد أمرت قاعود بألا يشاركهما أحد – من العاملين في المستشفى – في ذلك، فالعاملون سيتابعونه في تلفزيونات المستشفى الكثيرة، فهي لا تريد أن يفسد أحد سعادتها، لأنه من الممكن أن تحدث مشادة بينها وبين المعارضين لزيارة الرئيس".

المرحبون بالمبادرة يفوقون المعارضين، ولا شك أن يهودية جوهرة تلعب دورا محوريا في الترحيب الذي يتجاوز الحفاظ على المصالح الذاتية الضيقة إلى آفاق موضوعية تتعلق بجملة اليهود ودولة إسرائيل، لكن رد الفعل الإسرائيلي داخل الكنيست، بعد إلقاء السادات لخطابه، يبدو مخيبا للآمال، ويأبى مناحم بيجن إلا أن يكون فجا وقحا، لا متسع في كلماته للمجاملة ومراعاة الحد الأدنى من قواعد الدبلوماسية: "كان الخطاب جافا ويخلو من أي لباقة، فلم يراعِ فيه تقاليد الضيافة أو يقدر فيه حجم المخاطرة التي قام بها الرئيس المصري، وكان معظم أعضاء الوفد المصري يتصورون أن الزيارة ستنتهي كالسحر، إلى تسوية الصراع مع إسرائيل، وأن رد بيجين عليها سيكون بإعلان انسحابه من الأراضي المحتلة، فإذا به يعلن بصفاقة أن أحدا لا يستطيع أن يأخذ شيئا مقابل لا شيء، وكأن الزيارة كانت لا شيء، ما جعل المأدبة تبدو أقرب ما تكون إلى مأتم عزاء منها إلى حفل عشاء.

قالت جوهرة لقاعود الذي يدخن سجائره في تلذذ وكأنه يستحلبها، ويتابع وجه جوهرة المورد من فرط السعادة:

- تعرف أن زيارة الرئيس السادات لإسرائيل موجودة عندنا في التوراة.

أومأ برأسه دون أن يفهم، أكملت:

- يخاطب الرب شعب إسرائيل في سفر أشعيا، فيقول لهم: يأتيكم فرعون مصر يعرض عليكم السلام فاقبلوه، فإن ذلك يحول السيوف إلى مناجل للحصاد، وحذارِ من أن تتحول المناجل إلى سيوف مرة أخرى، ففي ذلك نهايتكم".

مناحم بيجين، بكل غلظته وجفافه وعنجهيته، هو المعبر الأكثر دقة عن السياسة الإسرائيلية، وما يتوهمه أعضاء الوفد المصري لا يلزم أحدا. الصراع السياسي ليس أمرا شخصيا يتضمن التنازلات المجانية من بوابة المجاملات ومراعاة المشاعر وكرم الضيافة. اليهود العاديون مثل جوهرة، تحكمهم رؤى دينية

متعننة، والمقتبس الذي تشير إليه من التوراه هو المبرر لغطرسة بيجين وصرامته التي يتحمل المسرفون في التفاؤل مسئولية توهمهم أن الصراع المعقد من البساطة بحيث يمكن أن ينتهي في دقائق عبر مائدة عشاء حافلة بالمسامرة، والسادات على رأس هؤلاء المسكونين بالوهم.

قلائل هم اليهود المقيمون في مصر عند زيارة السادات، والمسئول عن أملاك الطائفية الإسرائيلية في الإسكندرية يبدو واعيا بطبيعة الصراع الذي يقتحمه السادات مسلحا بالوهم في القدرة على تحقيق السلام بلا عناء. في حواره مع جوهرة، ما يكشف عن رؤية عقلانية متزنة تدرك طبيعة الواقع: "لو عشتِ يا بنتي ما عشته في مصر من سنوات لأدركتِ أن ما تظنينه خطأ، وما فعله السادات لن يغير شيئا في العلاقة بين اليهود وباقى أبناء مصر، لأن هذه العلاقة لا تُصنع بقرارات حكومية".

للسادات أن يقدم المبادرات ويتوهم ما يريد له خياله أن يتوهم، لكن العلاقة المعقدة حافلة بالحروب والدماء، ولا يسهل تغييرها بقرارات فوقية؛ وهذا ما يجهله السادات ويدفع ثمنه فادحا.

الفصل الرابع عشر
محمود الورداني

من روايات ثلاث لمحمود الورداني: "نوبة رجوع – ١٩٩٠"، "الروض العاطر – ١٩٩٨"، "أوان القطاف – ٢٠٠٢"؛ يمكن التعرف على الموقع ذي الخصوصية الذي يحتله السادات في عالمه الروائي المختلف عن غيره من السابقين واللاحقين، ذلك أنه ينفرد بالتوقف أمام محطتين مهمتين لا وجود لهما على النحو الذي يقدمه في إبداع الآخرين: أجواء حرب أكتوبر إبان اشتعالها وما تنبئ به سياسة السادات في التعامل معها عن خلل في الاستثمار الصحيح لبطولات وتضحيات الجيش المصري، الحركة الطلابية اليسارية المعارضة للسادات قبل وبعد الحرب.

على الصعيد الشخصي، كان الورداني صاحب تجربة تنعكس على معالجته الفنية والفكرية، فهو من المشاركين في حرب أكتوبر مجندا تُسند إليه مهمة التعامل مع الشهداء ومتروكاتهم، وهو أيضا من العناصر الفاعلة في الحركة الطلابية قبل الحرب، ومن رموز وقيادات المنظمات اليسارية قبل وبعد أكتوبر ١٩٧٣.

الجنود البسطاء الفقراء المنتمون إلى الكتلة الشعبية العريضة، هم قوام الجيش المصري الذي يسعى إلى الثأر ورد الاعتبار بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧. متروكات هؤلاء الجنود تنم عن طبيعتهم، وهو ما يتجلى في "نوبة رجوع"، فلا شيء يخلفه الشهداء إلا القليل الدال على الانخراط في عالم الملايين من الفقراء: "عناوين وصور وحسابات صغيرة وأوراق مكتوبة وعلب سجاير مفتوحة وبطاقات عائلية وشخصية وخطابات مقفلة وأخرى مفتوحة ونقود ورقية ثم الصلصلة المكتومة للنقود المعدنية والسلاسل والمفاتيح والميداليات و"دبل" الزواج والخطوبة".

الجنود الذين يعبرون القناة ليسوا من محترفي السياسة والثقافة القادرين على الصياغة البليغة لما يعتمل في أعماقهم من مشاعر الانتماء الوطني، وفي رسائلهم التي تبقى بعد استشهادهم ما يكشف في بساطة تخلو من الافتعال

المصنوع من رؤى عفوية عميقة: "وعدينا الضفة الشرقية ونزلنا من على العربة وبسنا رمل سيناء العزيزة".

لا شيء من الشعارات الصاخبة والمصطلحات المعقدة ذات الإيقاع الرنان، والوطنية على هذا النحو هي السمة الغالبة على أبطال حرب العبور، وإليهم وحدهم ينبغي أن يُنسب الإنجاز الذي يهدره السادات سريعا عبر المعالجة السياسية القاصرة: "بالأمس -١٨ يناير ١٩٧٤- وفي خيمة الأمم المتحدة الخضراء اللون عند الكيلو ١٠١، وقعنا مع العدو اتفاق فض الاشتباك والفصل بين القوات. هذا ما سوف تقوله عايدة، وأنا بالطبع قرأت جرائد الأمس وأمس الأول منذ وصول كيسنجر إلى القاهرة، بل وأحتفظ بها مرتبة منظمة فوق المكتب. ستقول لي: ألم أقل لك؟. وأنا في الحقيقة لم أخالفها، ولم أدع أن ما حدث لن يحدث، لكنني كنت مأخوذا في البداية، ولما قابلتني في أول الحرب، قالت إنها لا تصدق أن السادات يحارب، وقلت لها إن السادات لا يحارب، والذي يحارب ويموت هم العساكر".

المقولة السابقة ليست إنشائية قوامها المبالغة والتمجيد العاطفي الذي لا يتكئ على معطيات واقعية، وليس أدل على ذلك من الشهادة التي يقدمها جنرال إسرائيلي عن الجنود المصريين: "لقد كانوا يتقدمون موجات بعد موجات.. كنا نطلق عليهم النار ويتقدمون.. كنا نحيل ما حولهم جحيما ويتقدمون.. هذا ما قاله قائد جبهة سيناء عن العساكر المصريين بعد العبور".

الجنود المصريون، العاديون البسطاء، هم صانعو الملحمة التي يقر الأعداء أنفسهم بتفردها، لكن المقدم محمد بحر، الذي لا تغادره صدمة الهزيمة في يونيه ١٩٦٧، يبدو عاجزا عن التصديق والاستيعاب، مجسدا بحيرته هذه جذور الكارثة قريبة العهد: "لم يستطع حتى اليوم – التاسع من أكتوبر – أن يستسلم لفكرة العبور، بالرغم من أننا شاهدنا كل شيء على شاشة التليفزيون: العساكر بالقوارب المطاطية يعبرون القناة، والنقاط الحصينة للعدو أعلى خط بارليف، وقد ارتفعت عليها الأعلام المصرية، والمعابر التي تقدمت عليها الدبابات ومختلف المعدات: فرق كاملة عبرت بالفعل بأسلحتها.. وسمعنا البيانات العسكرية، وهللنا وصرخنا، وهو يحدق نحونا صامتا مبللا بالعرق".

تصطدم الفرحة العارمة بالذهول وما يشبه الإنكار، كأن فعل العبور ليس قابلا للتصديق، لكنه حقيقة ساطعة تتجسد فيما يبثه التليفزيون وتنشره الصحف. يرصد الراوي مصطفى وقائع شتى تبرهن على حجم الانتصار الذي يتحقق في الأيام الأولى، ويدعِّم الأحلام المعقودة على الانتصار الشامل، قبل أن يتغير المسار بمعرفة السادات وسياسته التي تراهن على "التحريك" دون "التحرير": "للمرة الأولى أحسست بمعنى تحرير الأرض. أجل. من قبل، كنت أشعر بهذا التعبير على نحو إنشائي ومبتذل من كثرة تداوله. في الليل، شاهدنا سيناء في التليفزيون، ورأينا إسرائيليين سقطا في أيدي القوات المصرية: الأول اسمه ديفيد دارلاخيم – عريف بسلاح المدرعات، والثاني شيمي باروخ من سلاح المشاه.

وعلى المكتب أمامي، كان الخبر الرئيس عن تحرير القنطرة أكبر مدن سيناء بعد العريش. بل يقول الأهرام – وأنا أحتفظ بأعداد الأهرام مرتبة ونظيفة ومثنية جيدا منذ الخامس من أكتوبر – إن القوات المدرعة المصرية وصلت أمس إلى مسافات متقدمة داخل سيناء بعد أن فقدت القوات الإسرائيلية أمس كل مواقعها على طول القناة – ٢٥ موقعا – عقب المعارك العنيفة التي استمرت طوال ليلة أمس وأمس الأول والتي كان آخرها تحرير القنطرة. وقد رفعت القوات المصرية العلم المصري فوق المدينة المحررة أثر استسلام ٣٥ من جنود العدو".

بإنجاز العبور وبطولة الجنود التي يعترف بها عتاة الأعداء، تتوالى الانتصارات وتتجسد قدرة بسطاء المصريين على تجاوز محنة الهزيمة الموجعة في يونيه ١٩٦٧، تلك التي يصنعها الساسة والقادة بتقصيرهم في أداء الواجب، لكن الفرحة لا تدوم طويلا، ويفشل السادات في تحقيق المأمول، وتحل النهاية مبكرا.

من موقعه البعيد عن الاشتباكات العسكرية المباشرة، يرصد مصطفى بداية التراجع والتحول: "الذين عبروا بالفعل، ورفعوا العلم فوق الحصون على الجانب الآخر: رأيتهم فقط في التليفزيون، ونقلتهم إلى مقابرهم، قبل أن يحكوا لك، ويخبروك كي يستقيم الأمر. عندئذ، سوف يكون مدهشا أن تعترف لنفسك أن خمس فرق كاملة قد عبرت بالفعل، وعزف البروجي نوبة علم، واستقرت هناك ستة عشر يوما فقط، قبل أن يعزف البروجي مرة أخرى نوبتي صحيان ورجوع تحية للشهيد، ويجرى توقيع الاتفاقية الأولى للفصل بين القوات، وينتهي الأمر".

كيف ينتهي الأمر؟!. عند هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأمريكية وصانع سياستها، تتوقف رواية الورداني، فهو الشاهد الأهم على الإجهاض السياسي المبكر لانتصار الجنود المصريين.

الانحياز الأمريكي لإسرائيل ليس موضوعا للاختلاف والجدل، والدور الذي تلعبه الولايات المتحدة في صناعة الثغرة شائع معروف، والسؤال الجوهري المهم الذي ينبغي طرحه للوصول إلى تقييم موضوعي متوازن: "هل كان ممكنا أن تتخذ الحرب مسارا غير مسارها حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه.. بمعنى أن هدف السادات كان واضحا في إعداده للحرب..

فقط مجرد الخروج من الأزمة وتحريكها في أضيق الحدود بعد أن فشل في إقناع إسرائيل وأمريكا بأي حل سلمي".

ما الهدف الذي يرومه السادات من الحرب؟!.

التحليل السياسي الذي تتبناه المعارضة اليسارية، يذهب إلى أن الطموح يقتصر على "التحريك" وإلقاء حجر في البحيرة الراكدة، بغية الوصول إلى حل سلمي لإنهاء الأزمة تحت المظلة الأمريكية، ما يعنى بالضرورة تقديم تنازلات جوهرية. في هذا السياق يتحرك كيسنجر، وما كان له أن ينجح بمعزل عن التوافق مع السادات: "ثم جاء كيسنجر بعد توقف مباحثات الكيلو ١٠١، وتم التطبيق الفعلي لاتفاق وقف إطلاق النار، على أساس بقاء الأمور على ما هي عليه: قوات للعدو عبرت وتمركزت غرب القناة، وقوات لنا في الشرق، وأذاعت كل من القاهرة وواشنطن أنهما سترفعان درجة التمثيل الدبلوماسي بينهما، وقال كيسنجر لهيكل في الأهرام لقد عبرتم نحو الشرق، وعبر الإسرائيليون نحو الغرب".

مقولة كيسنجر هذه تسلب من الجيش المصري انتصاره، فالأمر عنده أقرب إلى "التعادل" الذي لا يتيح لطرف أن يزعم التفوق وتحقيق النصر العسكري. العبور المتبادل ورقة ضغط أمريكية لإملاء الشروط، واتفاقية الفصل بين القوات مقدمة للتطورات السريعة اللاحقة: "الاتفاقية خطوة تتلوها خطوات، والبلد مقدمة على مرحلة جديدة تماما. تبعية كاملة لأمريكا واعتراف بإسرائيل. الحرب لم تكن إلا جولة محدودة لتحريك القضية".

الأوضاع خطيرة معقدة، والخيوط متداخلة متشابكة. أما التحليل اليساري "النظري" فإنه يواجه صعوبة في إقناع الأوساط الطلابية المسكونة بنشوة العبور

ودلالاته الإيجابية، ووفق تعبير عايدة: "نحن كنا نقول للطلبة إن السادات لن يحارب، ونطالب بحرب شعبية لتصفية الاحتلال.. و..و. كيف نوصل ما نريده الآن، وما الذي نريده بالفعل؟ كيسنجر في القاهرة وفيه مفاوضات فعلا حصلت مع الإسرائيليين والسادات أعلن إنه مستعد لكل حاجة: يفتح القناة ويعترف بالحدود..".

صب اللعنات على كيسنجر لا يجدى، والنجاح الذي يحققه ليس مردودا إلى قدراته الخارقة، بل لأن السادات يتفق معه في الفلسفة التي يسعى إلى تكريسها.
مرارة الراوي مزيج من الذاتي والموضوعي،
والغالب عليه هو الشعور الطاغي بالنهاية المبكرة التي تحيل الحلم القريب إلى كابوس تستحيل مقاومته: "السادات وقع الاتفاقية مع كيسنجر وإسرائيل وانتهى الأمر. لقد شاركت في هذه الحرب، بشكل يجعلني أخجل من مناقشة الأمر برمته، فالاتفاقية تعنى بالنسبة لي أنني بعد أن واريت الناس التراب، أستدير الآن وأستعد للتسريح من الخدمة، وكأن كل ما جرى لم يجر أصلا".

مسئولية الانكسار موزعة بين السادات وكيسنجر، لكن الرئيس المصري هو الجدير وحده بالإدانة. السياسى الأمريكي البارز يعمل في دأب وإصرار لتحقيق مصالح بلاده وحليفتها إسرائيل، والسادات من يندفع للسقوط والسير في فلكه والخضوع لرؤاه. قبل الحرب، لا تتوقف المظاهرات الطلابية داخل الجامعة، ومطالبها واضحة محددة: "سحب الموافقة على القرار ٢٤٢ ومبادرة "روجرز"، اقتصاد حرب، حرية الصحافة، الحرب الشعبية، الإفراج عن المعتقلين السياسيين".

لأن حرب أكتوبر ١٩٧٣ لا تمثل تحولا في المسار السياسي للسادات، داخليا وخارجيا كان منطقيا أن تستمر الاحتجاجات وتتصاعد، وصولا إلى الذروة في انتفاضة يناير ١٩٧٧.

في العام ١٩٧٢، يعتصم طلاب الجامعة في ميدان التحرير وتستمر الاحتجاجات في يناير من العام التالي تضامنا مع الزملاء الذي يتم اعتقالهم في الحملات التي يشنها نظام السادات، الرئيس الذي يلقي خطابا شهيرا يتحدث فيه عن "عام الضباب" الذي يحول دون تنفيذ وعده بالحرب والحسم.

تتواصل المظاهرات المعارضة الصاخبة بعد حرب أكتوبر، وتسهم وزارة الدكتور عبدالعزيز حجازي في إشعال الغضب جراء سياستها غير الشعبية التي تفضي إلى تضاعف أعداد الفقراء، وظهور الهتاف الشهير الدال على الضيق بها: "حكم النازي ولا حكم حجازي".

تتحالف الأزمتان الوطنية والاجتماعية لصناعة حالة احتقان يعجز السادات عن مواجهتها، وفي "نوبة رجوع"، بعد شهور قلائل من نهاية الحرب، تكشف هتافات المتظاهرين عن حجم المعاناة التي لا يبالي بها السادات ولا يقدم حلا ناجزا: "سمعت الصوت الأجش يصيح: قولوا للنايم في عابدين..

كان قصر عابدين يبدو هناك في البعيد، ثم انهمر الرصاص ثانية. كانوا يتدفقون من الشوارع الجانبية، آتين من ناحية "الداخلية" ومن "الناصرية" و"عابدين".. وهكذا.. تراجعوا مرة أخرى، وحملوا واحدا لاح ضئيلا وهو يهتز على الأكتاف ملوحا بقبضتيه معا".

الهتاف ضد "النائم في عابدين"، يكشف عن موقف سلبي صريح عنيف من السادات، والقمع الأمني الشرس بمثابة التأكيد على محنة النظام الذي يواجه تحديات شتى ويفشل في التعامل الصحيح معها. غياب الديمقراطية ملمح مهم، ويسهل استنباط أجواء الكبت عبر التأمل في الهتافات التي يرددها المتظاهرون: "ورأيتهم يتقدمون تجاه ميدان "سليمان". إنهم يزعقون راكضين وحاملين الولد ذا النظارة البيضاء الذي يصرخ:

عايزين حكومة حرة..

العيشة بقت مرة".

لا تعبر حكومة الدكتور حجازي عن اجتهادات ورؤى رئيسها، بل إنها تترجم توجه السادات وتنفذ تعليماته. ليس مستغربا أن ينصب جانب كبير من الغضب على المؤسسات الصحفية، التي لا تتفاعل مع نبض الشارع وهمومه المتراكمة، قانعة بالدفاع عن النظام ورئيسه والسياسة التي يتأكد فشلها في الحصول على تأييد الأغلبية المقهورة: "رأيت مبنى" أخبار اليوم" واقفا إلى يسار الشارع، ثم راحوا يهتفون وولد آخر يهز قبضتيه هناك:

حكم النازي ولا حجازي..

توقفوا تماما، وصفوفهم تتالى متدافعة من شارع الجلاء، وصوتهم ما ينفك يعلو، وهم يتزاحمون ويقتربون من بعضهم في بطء.. فكرت في أن أشعل سيجارة، لكنني كنت أخشى أن يعاودني الدوار ثم سمعت الأصوات تهدر وراء الولد:

يشربوا ويسكي وياكلوا فراخ

والشعب من الجوع أهو داخ..

على أنني لمحت القنابل الداكنة تتطاير في الشمس، وما تلبث أن تختفي بغتة، عندئذ علا هتافهم الهادر فجأة، واندفعوا يحطمون زجاج مبنى "أخبار اليوم" بالحجارة التي في أيديهم، وألواح الزجاج العريضة تتكسر متساقطة من النوافذ المقفلة".

الشارع يتحرك في سخط، والشكوى لا تقترن بالقضية الوطنية والصراع مع إسرائيل، فهي وثيقة الصلة بالصراع الطبقي المحتدم، والانقلاب الجذري على التوجه الشعبي للعهد الناصري. في الجامعة، يُقابل الحراك الطلابي بعنف متطرف غير مسبوق، وتكتيك جديد تعتمده الأجهزة الأمنية التي تزداد شراستها: "سيعتمدون على ضرب الناس بواسطة عملائهم، ليبدو الأمر كما لو كان مجرد طلاب يضربون بعضهم، أو أن العناصر الوطنية تتصدى للشيوعيين ومثيري الشغب".

يشرع نظام السادات في اتباع أسلوب جديد وخيم العواقب في التصدي للاحتجاجات الطلابية اليسارية، ويتوافق ذلك مع السلاح الديني الذي يحتمي به السادات من ناحية ويراهن على توهم قطاع عريض من البسطاء باقتراب تحسن الأوضاع المعيشية بعد نهاية الحرب من ناحية أخرى: "ألم تنته الحرب ووقعوا الاتفاقية.. على السادات أن يلتفت لأحوالنا نحن..".

أحلام الفقراء هذه، التي تتأثر بما يردده السادات وأجهزة إعلامه، تتحول سريعا إلى أوهام وكوابيس. الفقر يتصاعد، والمعاناة تشتد، وفي يناير ١٩٧٧ يصل الغضب إلى الذروة.

تنتهي أحداث "نوبة رجوع" مطلع العام ١٩٧٥، ما يعني غياب التوقف عند انتفاضة يناير ١٩٧٧، لكن "أوان القطاف" تقدم رصدا وتحليلا مهما لما تعانيه مصر بعد ثلاث سنوات من نهاية حرب أكتوبر ١٩٧٣، وتبخر الأحلام المعقودة عليها إلى درجة التلاشي.

صبي يتهيأ للاحتفال بعيد ميلاده الخامس عشر، يسقط ضحية في أحداث الانتفاضة التي تجتاح مصر في الثامن عشر من يناير، بعد ساعات من الإعلان عن قرارات حكومة ممدوح سالم برفع أسعار عشرات السلع الضرورية. الصبي في الطريق لزيارة مدينة بورسعيد، العلامة الأبرز في مرحلة الانفتاح وتحولاتها، لكن سيارة الرحلة المدرسية تتوقف عند الوصول إلى حي السيدة زينب، وتزدحم الشوارع بالمتظاهرين الذين يرددون هتافات مدوية يحظى فيها السادات وزوجه بالسباب المقذع الدال على تدهور وانهيار شعبيته: "كان الناس هائجين يزعقون وأنا غير قادر على تبين الأمر، إلى أن وصلنا أول شارع بورسعيد فوجدنا طلبة الخديوية الثانوية وسبيل أم عباس وتجارة الحلمية قد تجمعوا ومضوا يرددون وراء أحدهم:

يا جيهان قول الحق..

فورد (....) والا لأ..

ضحكت وأنا أبص عليهم لأجدهم جادين تماما. بدت الدنيا أمامنا أنا وناجي وعمر واسعة، وها نحن نستطيع أن نفعل أي شيء. راح كل منا ينظر للآخر، ثم انفجرنا في الضحك والتصفيق على الأكف، وانخرطنا في الهتاف نردد:

يا جيهان قول الحق..

فورد (...) والا لأ..

الناس كانوا يتزايدون وقد توقفت أتوبيسات النقل العام والتراموبات في الشارع".

يشارك الصبية الصغار بحماس في ترديد الهتاف الجارح البذئ، ويسيطر الهياج على الشارع فتستحيل السيطرة عليه. تتردد هتافات أخرى تكشف في جملتها عن حجم الضيق والتوتر جراء المعاناة التي لم يعد احتمالها ممكنا: "وانطلقنا متلاصقين مع الناس نحو الميدان، حيث كانوا يحملون ولدا يرتدي نظارة ويهتف:

هوا.. يلبس آخر موضة..

واحنا بنسكن عشرة في أوضة..

كان الولد يقصد أنور السادات ولا شك، فهو أشيك من رأيته في حياتي ورشيق وسعيد دائما ولا يكف عن الابتسام وإظهار أسنانه البيضاء، والناس كانوا

يعرفون هذا ولا يخافون من أنور السادات بل يزيد صراخهم ضده. كانت الجموع تتراص أمام قسم الشرطة حيث ازداد زئيرهم خلف رجل آخر حملوه وهو يلوح بقبضتيه معا:

مش كفاية لبسنا الخيش...

جايين ياخدوا رغيف العيش..

رحت أهتف معهم فقد كان كلامهم في الصميم ولا يخافون أحدا حتى الرئيس والمخابرات، أما قسم شرطة السيدة زينب الذي توقفوا أمامه فقد وصل صيته إلينا في المنيل. يا ويل من يقترب منه مجرد اقتراب. حكى لنا زملاؤنا في المدرسة ما جرى لمعارفهم من جلد وضرب بل وقتل في قسم السيدة".

الصراع الطبقي يتفاقم، والسادات يعيش في عالمه الخاص معزولا متعاليا مترفعا، والقهر الأمني يتصاعد في مفارقة لافتة مع ضجيج الشعارات الديمقراطية والأحاديث التي لا تنتهي عن عصر الحرية والأمن والأمان. ما الذي يبقى للعاديين من الناس في ظل أجواء ضاغطة كهذه، إلا الاحتجاج العنيف، قولا وفعلا، للتنفيس عما يعتمل في أعماقهم من رفض؟!.

المظاهرات الحاشدة تردد هتافات تجسِّد الأزمة الموجعة التي تعانيها الأغلبية الساحقة من المصريين، ولا تغيب ضراوة القبضة الأمنية التي تتجلى في هتاف "يا حاكمنا بالمباحث.. كل الشعب بظلمك حاسس"، ويستمر التعبير عن الضيق والاستياء: "ولم يعد أحد فيما يبدو خائفا لأن المظاهرة التالية راحت تردد:

يا حاكمنا من عابدين..

باسم الحق وباسم الدين..

فين الحق وفين الدين..

أما المظاهرة التي تلتها فكانت تخاطب السادات الذي في عابدين أيضا مرددة:

قولوا للنايم في عابدين..

العمال بيباتوا جعانين.."

تتضمن الرواية عديدا من الهتافات التي تعبر عن هيمنة الاضطراب والارتباك في ظل حكم السادات، وليس أدل على خطورة الانتفاضة من الإجراءات الأمنية الصارمة قرب منزل السادات، تخوفا من امتداد الغضب للاقتراب المباشر من رأس النظام، والإطاحة بالقليل الذي يتبقى من هيبته: "فوجئت بطوابير

وصفوف من عساكر يختفون خلف الخوذ ويغطون الشوارع تماما بملابسهم السوداء وعصيهم ودروعهم، بينما كانت اللوريات الضخمة السوداء أيضا تحتل الأركان والنواصى مصوبة رشاشاتها إلى الميدان. تذكرت بسرعة أن أنور السادات الذي يشتمه كل هؤلاء الناس يسكن هنا خلف مدرسة البنات، فأدركت لماذا يقف مئات العساكر والمصفحات في هذا المكان".

الغضب الشعبي العارم يندد بالغلاء الفاحش وسلبية مجلس الشعب وغياب إحساس السادات بالمعاناة التي تزلزل استقرار الفقراء، فضلا عن استنكار السياسة التي يعتمدها في الصراع مع إسرائيل: "المظاهرة الأكبر كانت وراء ولد يرتدي "كوفيه" زرقاء يلف بها رقبته، وقد حملوه على الأكتاف وهو يهتف هتافا لم أتبينه ضد إسرائيل التي تحتل بلادنا، وبعدها مظاهرة أخرى تشتم السادات".

يمكن القول إن انتفاضة ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ هي التتويج الأكثر ضراوة لسلسلة من الاحتجاجات التي لا تتوقف ضد السادات، والمشهد الذي يرصده الصبي في شارع الهرم، حيث تحل نهايته، عظيم الدلالة في تكثيف الأزمة التي تختلط مفرداتها لتتشكل لوحة الضياع والقهر ومراودة التنفيس.

عمليات النهب لملاهي شارع الهرم كاشفة فاضحة، وتنبئ بالمصير الكئيب الذي تقود إليه سياسة السادات الاقتصادية والاجتماعية: "كان الجميع مبسوطين أفواههم مفتوحة ويضحكون، والبعض يحتضن زجاجات خمر لأنني رأيت الزجاجة التي عليها صورة الكلبين، أحدهما أسود والآخر أبيض، وزجاجات بيرة كانوا يضمونها إلى صدورهم، والبعض الآخر كان يركض بالمقاعد والفوتيات والمناضد والأواني.. وطعام أيضا.. كانوا يخرجون حاملين أقراص الجبن الرومي الضخمة وقطع الجبن الأبيض والطماطم وشرائح اللحم بل وقطعا ضخمة من اللحم النئ والطيور المذبوحة المنظفة.. كل هذا في الأوبرج الذي طالما سمعت عنه ولم أره من قبل أبدا.. وكان هناك أيضا من الناس من توقف بجوار الجدار يفتح زجاجته.. يتذوقها ثم يجأر بالصراخ..".

الوصول إلى نهاية كهذه، يمثل إدانة فنية ذات طابع عفوي تلقائي للانفتاح الاقتصادي وما يترتب عليه من نتائج وتداعيات، والأخطر فيها هو ما يطول الشخصية المصرية من مسخ وتشويه.

تصنع سياسة الانفتاح الاقتصادي، التي يتنباها السادات بشكل عشوائي غير محسوب، قيما جديدة ورموزا يعبرون عن طبيعة الانقلاب الذي يغير الملامح التقليدية الراسخة للشخصية المصرية. هجرة جماعية تشبه الطرد إلى بلدان الخليج النفطية، والعودة بأفكار ورؤى ومشروعات تسهم في مزيد من التشويه.

عشر سنوات من العمل في الخليج، ينفقها الذبيح الذي تقدمه رواية "أوان القطاف"، مغتربا لاهثا وراء المال الذي يتراكم، ولا شيء ينشغل به بعد العودة إلا المشروعات التي تليق بالإيقاع الجديد المختلف للحياة المصرية المستعمرة بالمفاهيم الانفتاحية التي تخاصم العمل الإنتاجي:

"معي مائة ألف دولار. سأفتح أكبر "حكاية" في الهرم وأسميها "الهداية مول" وسأكون صاحب رابع مول في مصر كلها. سيكون من طابقين في البداية، لكنني أنوي أن أضيف له طابقا ثالثا في قطعة الأرض التي تتسع لكل ما أنتويه وفكرت فيه على مدى سنوات وسنوات، منذ نجحت في اصطيادها ودفعت عربونا لها في العام الأول لسفري وسلمته لزميلي مدرس الرياضيات، الذي كان يبحث عن مشتر لها".

حرمان طويل لادخار الثروة التي تمثل الهدف الأسمى، وعودة نهمة لتحقيق المزيد من الثراء وفق القيم والمعايير التي تنتصر لها سياسة الانفتاح الاستهلاكي.

لا يتورع "الحاج" عن ارتكاب كل الموبقات الأخلاقية على الصعيد الشخصي،

والدائرة التي يتحرك فيها وثيقة الصلة بالفساد والخداع والتضليل، ويتعانق ذلك كله مع الشعارات الدينية الزاعقة التي تضفي الشرعية الوهمية على الأعمال غير المشروعة: "حتى الشارع اسمه فيصل. أما هذه المحلات التي ملأت الدنيا فمتى تكأكأت وشُيدت بكل هذه الألوان والأحجام؟ سوبر ماركات ومحلات لكل شيء.. ومبى، نور الإسلام للأدوات الكهربائية، الإسراء لمواد البناء، أختي المحجبة البريونية، الهدى النبوي للتجارة والعقارات، سنتر التوحيد والنور للملابس الرياضية، مكتبة نور الإسلام، ميني ماركت الجهاد، موبيليات الحق.. وسط كل هذا المهرجان سيكون لي السبق بتشييد مول كامل اسمه "الهداية مول" يضم كافة البضائع والأغراض مع تركيز خاص على استثمار خبرتي بالملابس الجاهزة ومهارتي في اصطياد الماركات العالمية".

الأسماء الدينية البراقة ليست إلا "قنابل دخان"، تتحول معها الشعارات الإسلامية إلى أدوات خداع وتضليل. الصراع على أشده بين حيتان وغيلان مسلحين بالشراهة المادية التي تسلبهم إنسانيتهم، وفي ساحة الصراع هذه لا متسع للحد الأدنى من المبادئ والقيم الأخلاقية، وليس أدل على ذلك من تآمر الزوجة وعشيقها وابنتها لذبح العائد بعد ساعات من وصوله!.

الوجه الآخر لتحولات الانفتاح الكارثية، تقدمه رواية "الروض العاطر". فمع نهاية الثمانينيات تثمر سياسة السادات جملة الأمراض الروحية التي تتمثل في رموز وعلامات المرحلة الممتدة.

رمزي، الشقيق الأكبر لإقبال، المناضلة اليسارية العائدة إلى الوطن بعد غربة أوروبية طويلة، من أصحاب السمعة السيئة في عمله الوظيفي بالمحافظة خلال حقبة الستينيات، لكنه يعود مثل الأغلب الأعم من أفراد العصابة القديمة إلى عمله: "ولم تمض سنوات إلا وكان رمزي معروفا بتجارته في أراضي البناء، إلى جانب منصبه في الحزب الوطني كأحد العناصر النشطة في العاصمة".

تتغير الحياة المصرية في السبعينيات إلى النقيض مما كنت عليه، ويقود السادات انقلابا شاملا يزلزل الثوابت السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية:

"كان يقلب التربة بعنف، ليرتفع ما كان مختفيا وينقلب ما كان مرتفعا، وهو يطل دون انقطاع عبر شاشة التليفزيون والصحف ويلعلع صوته في الإذاعة. يهاجم الناس في صحف الصباح بصورته وهو ينظف أسنانه حال استيقاظه،

ثم وهو يقوم بتمريناته السويدية عاريا إلا من "شورت" أسود..

بعد ذلك تتالى الصور: وهو يداعب كلابه السلوقية ونسوره الصحراوية وأسوده ونموره في حديقته الخاصة، يتجول مع أصهاره وأصدقائه من الحكام المنفيين الذين يعاملهم بوقار يليق بجلال مكانتهم قبيل الانقلاب عليهم وهروبهم إلى هذا الشاطئ الذي تميز بمجموعة هائلة من الخراتيت ترعى أمامه.

وقيل ساعتها إن سبب اعتنائه بها يعود إلى الطاقة الجنسية المرعبة التي ينطوي عليها لحمها. تفاجئ الصحف الناس به مستقلا غواصاته ويخوته وطائراته، متنقلا بين قصوره المشرفة على البحار والصحراوات وفي أعماق النجوع، مرتديا في كل مرة الملابس التي تؤكد رئاسته لكل الشعب: للبوليس والقوات البحرية والدفاع

الجوي والعمليات الخاصة والمظلات وهيئة البريد وجهاز تنظيم الأسرة والأزهر والمجلس الثقافي واتحاد الكتاب والمجلس الأعلى لكل من الصحافة والفنون والأوبرا وجمعية الزجالين المصريين.. لكل بدلة، حتى ارتبك الناس وخابت كل محاولاتهم في التعود عليه. كان يطّل في الغالب عبر شاشات التليفزيون، كما يشغل أغلب ساعات إرسال محطات الإذاعة، ملقيا بتعليماته المستفيضة حاضرا في كل لحظة".

في المقتبس السابق، الهجائي اللاذع المتطرف في السخرية والتهكم، يقدم محمود الورداني تكثيفا لملامح عصر كامل، تختلط فيه نرجسية السادات وأمراضه النفسية بالعناصر الموضوعية التي تنهض عليها سياسته.

على الصعيد الشخصي، يبدو الرئيس مولعا بالثرثرة، مستمتعا بالهالة الإعلامية والحياة المرفهة، صديقا لكل المنبوذين من شعوبهم جراء الفساد والتسلط، ولا شيء ينشغل به رئيس الشعب الفقير إلا التقاليع الغرائبية وأوهام العظمة التي تسيطر عليه. يأبى إلا أن يحول الأكاذيب إلى حقائق يقينية لا تقبل الشك، و"تقليب التربة" لا تقتصر آثاره على الجوانب المادية المباشرة، بل إنها تمتد إلى منظومة القيم والمبادئ التي تحكم المجتمع المصري وتتحكم في إيقاعه.

في هذا السياق، يمكن فهم واستيعاب دلالة مهنة "الخرتي"، التي تشيع وتنتشر وتكشف عن عمق التحولات عسيرة الإصلاح.

أسامة الماوردي يمتهن العمل الجديد الرائج بعد تعثره في الدراسة الجامعية، كأنه يدفع ثمن غربة أبويه في الكويت وإقامته وحيدا، في مرحلة لا متسع فيها للقديم من القيم: "الخرتى ده صنعته يا ستى ... زي الترزي أو المهندس .. يبيع قوة عمله للخواجات الصيع..

يصطادهم من وسط البلد ويلف بهم طول ما هم موجودين.. يجيب لهم حشيش ويغير لهم عملة".

وفق تعبير اليسارية القديمة بهية، صاحبة التعريف السابق: "الولد فسد مثل كل أبناء جيله". ولفسادهم هذا ما يبرره ويفسره: "عاشوا خرابا جميلا ملك عليهم أمرهم. لم يروا أمامهم شيئا يتحقق، وليس لهم أن يحلموا".

الأمر مختلف تماما عند أسامة، ذلك أن مهنة "الخرتي" من منظوره ليست إلا "وجهة نظر في الحياة"، ثم يضيف في حواره مع بهية:

"تقدري تقولي إن الخرتي مش هو اللي بينصب على خواجاية أو يعمل بيزنس مع أوتيلات أو بازارات.. لا.. دول كلهم مش لاقيين حل ولا شغل ولا أهل..".

لا يدافع عن سلوكه بقدر ما يبرره، وجذور الأزمة تمتد إلى غياب الأمل وتراجع فرص العمل وضياع الروابط الأسرية بفعل الحمى التي تدفع الجميع إلى السفر لاهثين وراء الثراء.

من المسئول عن هذا التحول المدمر؟!.

إنه السادات، الذي "يقلب التربة" ويقتلع الجذور!.

الفصل الخامس عشر

عمرو عبدالسميع

تبدأ رواية "أنا والحبيب"، حيث منتصف السبعينيات في القرن العشرين، برصد ذي روح سينمائية لحارة "الطمار" الشعبية في حى "باب الشعرية"، وتنتقل الكاميرا فتمر بشكل خاطف أمام "بقايا ملصقات صور عبدالناصر ما زالت تعلو بعض جدران الحارة".

سنوات قلائل بعد رحيل الرئيس عبدالناصر، لكن ملامح التغيير تبدو هائلة، وإيقاع الحياة الاجتماعية يتخذ مسارا جديدا منقطع الصلة بما كان لا يملك العاديون من الناس إلا إنفاق الوقت في الحوار والمناقشة، منتقلين في كلامهم : "بين غلاء الأسعار، والأحداث والتطورات الدولية، مقارنين – على نحو مزمن – بين عصرين سياسيين .. الملك والريس أحيانا وعبدالناصر والسادات أحيانا أخرى".

المقارنة مطروحة بين عهد عبدالناصر وعالمين يختلفان جذريا عن مجمل توجهاته، ولا يعنى هذا بالضرورة تشابها وتقاربا بين مرحلتي الملك فاروق والرئيس السادات، لكنه يؤكد استثنائية المرحلة الناصرية وتفردها؛ بحيث تمثل نقطة الانطلاق لتقييم وتحليل التطور التاريخي من منظور شعبي.

في السنوات الثلاث الأولى من حكم السادات، حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣، يوحى الظاهر السطحى المباشر أن الرئيس الجديد يمثل امتدادا على نحو ما للعهد السابق، لكن الاخلاف بينهما لا يغيب عند من يتأمل المشهد بدقة، ولم تكن القطيعة الشاملة والانقلاب الجذري إلا تتويجا لما يتم التمهيد له، ويصل إلى محطته الأخيرة بعد إنجاز العبور، الذي يمنح السادات حق الشروع السريع في طرح رؤاه الجديدة وتفعيلها.

ما أكثر الانتهازيين والوصوليين المسكونين بالأنانية والطموح الشخصى خلال الحقبة الناصرية، وهؤلاء من يتصدرون المشهد في السبعينيات، ويعتمد عليهم السادات لتشييد نظامه المغاير في فلسفته وتوجهاته لما كان سائدا مهيمنا قبل سنوات قليلة.

عبدالوارث العيسوي وشحاتة عبدالنبي، في "ساعة عصارى"، ينتميان إلى طبقة ملاك الأراضي، في العهد "البائد" السابق لثورة ٢٣ يوليو، والولاء الشكلي الذي يظهرانه للثورة لا ينفي الكراهية الأصيلة التي تسكنهما، وتنعكس على المخبوء في سلوكهما، ثم يُباح به علنا بعد أن تتغير الأوضاع وتتراجع الحقبة الناصرية.

أما شريف حمدي، في الرواية نفسها، فمن أبناء الطبقة الرأسمالية المصرية التي تتعرض لضربات موجعة متتالية بعد ١٩٥٢.

شريف، الذي يموت أبوه قهرا بعد قرارات التأميم التي تطول مصنعه، مسكون بالحقد والكراهية، ويخطط في انتظار لحظة الانقضاض، ولأنه من العاملين في خدمة الثورة، بإدارته للمصنع الذي كان يملكه، فإنه يمثل جزءا أصيلا من التحالف الطبقي الذي ينمو ويزدهر في عصر السادات، ويجهز على إنجازات ثورة يوليو الاجتماعية. هذا المراوغ المخادع الممرور، المحسوب على بناة "الاشتراكية" الناصرية بحكم وظيفته الرسمية، هو الذي يفسد – وأشباهه- فكرة القطاع العام، ويستنزف موارده حتى يقع فريسة سهلة في مخالب التحالف الطفيلي الجديد، الذي ينفرد بالساحة بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧، ويزداد تمكنا وهيمنة بعد رحيل عبدالناصر وإسدال الستار على المرحلة كلها: "ذاب النظام، الذي قتل والده، وتهاوى، ورأى رموزه – الذين كان يعلمهم الذوق، والأصول – وقد مزقوا بعضهم البعض، في صراع متوحش مجنون، ليصبحوا بقايا جثث نافقة، تلقى بها أمواج الحياة، على شاطئها، تحت قدميه، وقد علتها أعشاب داكنة لزجة، وحشرات، نشطت في مص دمائها".

ينفجر النظام الناصري من داخله بعد رحيل الزعيم ذي الشعبية الطاغية، والانهيار ليس مستغربا بالنظر إلى أن النظام الذي يبدو متجانسا متماسكا، حافل بالتناقضات والصراعات. الزاعمون أنهم حماته والساهرون على رعايته والدفاع عنه، هم طليعة من ينقضون عليه بمعاولهم، حتى يذوب بين أيديهم، وهم يرقصون في نشوة النصر وفرحة الشماتة.

تتشكل الخريطة من جديد في ظل السادات، والذين تصعد بهم الثورة، أو تحاول الصعود، يهبطون بسرعة فائقة، أما الذين يطولهم الضرر ويتعرضون للقهر والأذى، فإنهم يستعيدون كل ما ضاع منهم، بل إنهم يضيفون إليه.

سند عبدالباقي، في "الدم والعصافير"، هو من يحقق التواصل بين المراحل المتعاقبة في التاريخ المصري، من منظور سلبي، منذ ما قبل ثورة يوليو إلى ما بعد نهايتها. كلماته لاذعة السخرية، التي يخاطب بها تمثال طلعت حرب، تكشف عن ذلك الشعور الموجع بخيبة الأمل على الساحة الوطنية، من أكثر الهزائم والانكسارات، وما أسرع نهاية الأحلام والتطلعات.

في رواياته الثلاث: "ساعة عصارى" و"الدم والعصافير" و"أنا والحبيب"، التي تنشر – على الترتيب- في أعوام ٢٠٠٤، ٢٠٠٥، ٢٠١٠؛ يقدم عمرو عبدالسميع شهادة مهمة عن الحقبة الناصرية والانقلاب عليها في عصر السادات، لكن الشهادة الأعمق والأشمل عن السادات ونظامه تتجسد في "الفنطاس"، ٢٠٠٣.

قد يكون صحيحا أن "الفنطاس" تؤرخ لجيل الراوي، وتستعرض نماذج إنسانية ذات خصوصية فردية، تتجاوز المعنى الشائع للهم السياسي، الذي لا ينفرد بتشكيل ملامح الشخوص، لكن الصحيح أيضا أنها بمثابة الشهادة الشاملة، الموجعة الصادقة، عن حقبة السادات وجذورها القريبة وامتداداتها. الرواية قصة وطن يصيبه زلزال التحول الجذري العاصف، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، ما ينعكس بالضرورة على أفراد الجيل، أولئك الذين ينتقلون من الساخن إلى البارد، ويتفاعلون مع طوفان التغيير بأشكال متباينة. ليس مثل شخصية سمير متولي في تجسيد الأزمة، التي هي وليدة عوامل ذاتية تتعلق بالنشأة غير السوية بفعل سلوك الأم المشين، فضلا عن العوامل الموضوعية التي تترك آثارها في شخصية مهيأة لمعانقة الوصولية والانتهازية والتفريط في كل قيمة ومعنى.

الطفولة والمراهقة وبواكير الشباب في منتصف الستينيات، ذروة تألق المشروع الناصري ذي الأحلام الوردية والطموحات غير المحدود. مغادرة "بني مزار"، شمال صعيد مصر، إلى القاهرة، والسكنى في منطقة الضاهر، تتوافق مع العام ١٩٦٤، حيث الملامح والسمات والخصائص التي تختفي تباعا في العقد التالي: "كان هذا، عام ١٩٦٤، قبل أن تفض محلات الأدوات الصحية الاشتباك، بين المكتبات، والخمارات في الفجالة، وتعلن سيطرتها الكاملة، وهيمنتها المطلقة على المكان، بما أُعتبر إيذانا بابتلاع المراحيض، للثقافة، والمزاج!.

وكان هذا قبل أن تشهد بعض الحارات المتفرعة من حبيب شلبي، منظر إحدى السيدات، التي تحقن المدمنين بالماكستون فورت عبر فتحة نافذتها المطلة على الحارة.

وكان هذا قبل أن يصبح الذهاب، إلى كنيستي العذراء، وأدفنسنت، مقصورا على المسيحيين، بعد أن كنا نحضر معا هناك كثيرا من المناسبات، والصلوات، ونخف للسلام، على الآباء، والقسس، ليعطونا بونبون نادلر!!".

الستينيات، تلك المرحلة قريبة العهد ممن يعيشون في السبعينيات، تبدو بعيدة كأنها تنتمي إلى الماضي السحيق، بالنظر إلى قوة الطوفان الذي يلتهم منظومة القيم السائدة. لا متسع للثقافة و"الفقر الجميل" والتآلف الوطني بلا نشاز. البدائل المزعجة تتمثل في تجارة الأدوات الصحية وهيمنة الأنواع الفتاكة من المخدرات والحواجز المنيعة غير المعهودة بين المسلمين والمسيحيين، ما يعنى تراجع دولة المواطنة وانكسار الأحلام.

في العام ١٩٦٧ يلتحق سمير متولى بكلية الحقوق، ومع هزيمة يونيه، بداية التغيير والانقلاب الذي يصل به السادات إلى الذروة، يتخذ الشاب المأزوم على الصعيد الشخصي، المعذب بغرف تذكاراته السوداء، من العمل السياسي مهنة لتعويض هزائمه الذاتية والتخلص من العكارات التي تستوطن الروح: "طريق السياسة والحكم، هو المسار الذي سيتجاوز به سمير عثرته الكبرى، وهو طريق بلا معايير، لا يحتاج إلا أن يتشح المرء بصفات السفالة الأنيقة، والجهل الرشيق، ويكذب كثيرا، ويكره الناس كثيرا، ومن ثم لا يحترمهم، أو يفكر في مصالحهم أو مشاعرهم!!".

التنظيم السياسي الواحد، الاتحاد الاشتراكي العربي، يضم خليطا غير متجانس من الشرفاء والانتهازيين، المخلصين الجادين والسائرين مع القطيع حيث يسير. أمثال سمير، في أعقاب الهزيمة القاسية وما يصاحبها من تخبط واضطراب، هم الأقدر على الصعود والتطلع إلى مصالح ذاتية يحققونها على جثة الوطن، وأداتهم الناجعة هي المزايدة والإسراف في ترديد الشعارات الثورية. مع رحيل عبدالناصر ووصول السادات إلى قمة السلطة، يشتعل الصراع بين الرئيس الجديد وخصومه، وصولا إلى حركة ١٥ مايو ١٩٧١، التي تمثل بداية فصل جديد في مسيرة الوطن وسمير متولي، الذي يتوافق مع سياسة السادات بكل سماتها

الانقلابية: "ورأى سمير في حركة مايو فرصة كبرى لمزيد من الصعود على أنقاض النظام، الذي ارتبط به، وخدم في إطاره، تنظيميا، وميدانيا.

فقد كانت حركة مايو منحة أخرى من السماء للتخفف من أي ارتباطات، تحد من حريته، وانطلاقه، خصوصا أن عصرا جديدا في مصر بدا وكأنه على وشك البزوغ، وهو ما لا يعرف فيه أحد مواقع أقدامه، أو من الذين معه، أو من الذين عليه!".

مع بدايات التحول الذي يقوده السادات بعد الانفراد بالسلطة، منقلبا بعنف وشراسة على معطيات وتوجهات المرحلة الناصرية، يبزغ نجم سمير متولي ويتألق. لا ولاء عنده لمبدأ أو رئيس، ولا شيء يستهدفه إلا المصلحة الذاتية. لأن الاحتجاجات الطلابية تزعج نظام السادات وتؤرقه، فيتخذ من الشيوعية والشيوعيين عدوا يُتهم بالمسئولية عن المعارضة المتصاعدة، يؤسس سمير مركزا للدراسات القانونية والسياسية، في إطار منظمة الشباب، ويتخذ منه سلاحا للانخراط في الحرب التي ترتفع به درجات في الملعب السياسي.

في مناخ مختلط مرتبك كهذا، لا تمثل حرب أكتوبر ١٩٧٣ إلا قوسا صغيرا يُفتح لفترة قصيرة قبل إغلاقه، وبعدها يزحف الطوفان ويطيح بكل علامات الزمن القريب المتآكل، تمهيدا لمرحلة جديدة في التاريخ المصري، تُنسب إلى السادات وحده.

عبدالسلام حسن عسل، بمثابة الوجه الآخر للعملة التي يظهر سمير متولي على وجهها الأول. يغادر مبكرا للعمل في الكويت، ويتحول هناك: "إلى مكنسة "هوفر" تشفط الدنانير من كل فج عميق، وفي الطريق إلى عملية الشفط هذه، مارس مروحة واسعة من الأعمال، تبدأ بالمحاسبة، وتنتهي بالقوادة!!".

الأجواء الناصرية لا تبدو مناسبة لصعود وسيادة عبدالسلام عسل وأمثاله، لكن الساحة تتسع له في ظل تحول السادات إلى الانفتاح الاقتصادي بكل ما يصاحبه من قيم ومعايير. المسافات تضمحل وتتلاشى بين "الشرعى" و"غير الشرعي"، والثراء الفاحش هو الطموح والهدف الأسمى، دون نظر إلى السبيل الذي يقود إليه. إذا كان سمير متولى هو "المفكر السياسي" الذي يليق بحقبة السادات وتوجهاتها، فإن عبدالسلام هو التجسيد الأمثل للأغلب الأعم من أثرياء العهد، والصورة النمطية الغالبة على رجال الأعمال الذين لا يتورعون عن شيء. في

الكويت يلتقيان، بعد أن يسمع سمير عن عبدالسلام وثقله فيسعى إليه: "ومن خلال حوار طويل، جمعهما في مطعم أبراج الكويت، وجد أنه تكوين نموذجي، للرجل القادر على الإنجاز، خارج الأطر القانونية، أو الأخلاقية، وأن شخصا كهذا يمكن أن يكون أداة فاعلة جدا للتحرك . في مصر، التي دخلت – وقتها – عصر الانفتاح، وبدا أنها تستشرف أفقا جديدا لا تحده حدود.

إذ اكتشف سمير متولى منذ بداية البدايات، تلك المساحة البكر الجديدة التي تقع بين السياسة والبيزنس، والتي كانت كل العناصر الموضوعية تشير إلى أن البلد سيُحكم من خلالها في العقود المقبلة!.

كانت مصر توشك على استقبال الرئيس الأمريكي نيكسون في صيف ١٩٧٤، كما توشك على استقبال عصر جديد، سوف يتغير فيه كل شيء.. الرموز، والنجوم، والأعلام، والأناشيد، والملامح، والوجوه".

لا يقتصر التغيير الانقلابي الذي يقوده السادات على ساحة واحدة، بل إنه تحول جذري على الأصعدة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، ومن علاماته الأبرز تزاوج السياسي والاقتصادي من ناحية والهرولة غير المحسوبة ناحية أمريكا مالكة كل أوراق اللعبة كما يرى السادات من ناحية أخرى. عبر هذا الخليط تولد مبادرة السلام وتُوقع معاهدة كامب ديفيد، ويسطع نجوم المرحلة وجلهم على شاكلة سمير وعبدالسلام.

يشرق العصر الأمريكي مقترنا بقاموس جديد، قوامه الأوهام التي يبشر بها السادات وإعلامه الذي يزيف الوعي عبر أكاذيب ملفقة تتحدث عن الرخاء القريب: "اجتاحت البلاد أسراب من الشائعات، تتكلم عن مراكب الفراخ والزبدة الأمريكية، التي تقف في عرض البحر أمام بوغاز الإسكندرية، منتظرة أن تدخل، وتفرغ حمولتها".

الاحتفاء الأسطوري بالرئيس نيكسون، رسميا وشعبيا، محطة فاصلة تتجاوز الإطار السياسي، ذلك أن الأمر يمتد إلى الإلحاح على تغيير بوصلة العقل الجمعي وإعادة تشكيل خريطة المستقبل من منظور جديد، ركائزه التفريط والابتذال الفج واغتصاب طفولة التلاميذ الأطفال الذين يتم حشدهم لاستقبال الموكب والتهليل له: "حاملين أعلاما أمريكية صغيرة، فيما قامت المدرسات بتحفيظهم – تحت تهديد المساطر – نشيدا مبتذلا تقول كلماته: "Welcome بك .. يا مستكة"!، وهو

ما استماتت الحناجر الصغيرة في الصراخ به لساعات أربع، في انتظار موكب نيكسون، استرضاء للأبلوات، وتجنبا لضربات مساطرهن اللاسعة!".

هذا النمط من السلوك الفج المبتذل هو السمة الأبرز في مرحلة السادات، الذي تنهض دعائم عهده على "مفكرين" وباحثين مثل سمير متولي، وتسود مواكب النفاق الفظ في ساحتي التعليم والإعلام، أما الانفتاح الاقتصادي المنفلت فلا تفيد منه إلا الطبقة الطفيلية سريعة النمو في توحش سرطاني، وعبدالسلام عسل علامتها: "يريد أن يجد طريقا للمال الكثير، ويرغب في أن يكون هوفر دولارات، كما كان شفاطا للدنانير، وقد بشره سمير – كثيرا – بأنه سيجد معه طريقا لتلك الدولارات الخضراء الساحرة، وبأن البلد يعيش نقطة تحول رائعة، تستحق أن يكون من صناعها".

تناغم منطقي كامل بين الجناحين اللذين يقودان التحول، سياسيا واقتصاديا، لكن شخصية "القواد التقليدي" تحتاج بالضرورة إلى لمسات عصرية تناسب الإيقاع الأمريكي المختلف، وفي كلمات سمير لاذعة السخرية ما ينم عن الانهيار الأخلاقي الفادح الذي تشهده مصر: "لازم تتطور شوية يا عبدالسلام.. حتى إذا عايز تكون قواد .. لازم تبقى قواد مودرن يا أخي.. واستحالت نصف الابتسامة، إلى ضحكة كاملة، فقهقهة، فيما عبدالسلام يطرق خجلا كصانع الطرابيش الذي أدرك فجأة أن الزمن فاته، وعليه أن يصبح – فورا – صانعا للكاسكيتات!".

الدعارة الكلاسيكية لا تجدى، ذلك أن نشاطها يقتصر على تنظيم الصفقات الجنسية الفردية ذات الإطار المحدود المحدد، ومفردات التحول الذي يقوده السادات تتطلب قوادين يمارسون العمل في ساحات السياسة والاقتصاد والثقافة، ويروجون للسلام والتطبيع مع إسرائيل، ويرفعون الراية الأمريكية بديلا للرايات القديمة المنقرضة.

ما الذي تريده الولايات المتحدة الأمريكية من مصر؟!، وما الأهداف التي يتطلع إليها الحليف الجديد الذي يراهن عليه السادات لصياغة خريطة جديدة؟!. الإجابة ميسورة عند النظر إلى محتوى الأنشطة البحثية التي يقوم بها سمير متولي، من خلال المؤسسة التي يؤسسها ويديرها وتحظى برعاية ومباركة النظام:"عدد من استطلاعات الرأي العام في مصر حول قضايا علاقة الجيش بالقرار السياسي، ووضعية الأقباط في المجتمع، ومدى اعتقاد الناس في جدوى

الحرب، والتغيرات في الخريطة الاجتماعية، وطبيعة إفرازها للنخبة الحاكمة أو المسيطرة في مصر، وحجم التأييد الذي يمكن أن يلقاه التيار الإسلامي في الشارع.

كانت هذه المروحة من التكليفات هي بروتوكول التعاون بين المركز الوطني للدراسات، وإحدى المنظمات الأمريكية البحثية، التي تعمل كواجهة للمخابرات المركزية الامريكية في بلدان الشرق الأوسط، وتركز على جمع المعلومات عبر استطلاعات الرأي، فيما يجرى تصنيفها وتحليلها في المركز الأم بفرجينيا".

عناوين التكليفات البحثية مؤشرات بالغة الدلالة في التعبير الدقيق عن الطموح الأمريكي إلى إعادة تشكيل الحياة المصرية، ولن يتحقق ذلك إلا بالاستيعاب المتكئ على معلومات دقيقة عن القضايا الشائكة موضوع الدراسات التي يقوم بها سمير: الجيش والأقباط والسلام والبناء الطبقي والتيار الإسلامي الآخذ في النمو بدعم من السادات لترويض اليسار وتقليص نفوذه. عبر هذه المحاور، التي تتعلق جميعا بالسيادة والأمن القومي، يتم الاختراق بضراوة يصعب التصدي لها، ذلك أن القائمين على تنفيذ المخطط ليسوا أفرادا يسكنهم الطموح الشخصي فحسب، بل إنهم أعمدة نظام السادات وأركان سياسته: "ولم يك المسئولون عن المنظمة البحثية الأمريكية، بغافلين عن الأهمية الخاصة لسمير متولي، الذي يعتبر – بلغة السياسة المصرية – ابنا للنظام، الأمر الذي سيجعل بمقدوره الحصول على أية موافقات إدارية،أو أمنية، وبشكل يجعل العملية كلها، وكأنها تتم ببركة من الإدارة، ولصالحها".

حرب أكتوبر ١٩٧٣ تمثل نهاية مرحلة في التاريخ المصري، والبدايات الحقيقية للانقلاب تبدأ مع هزيمة يونيه ١٩٦٧. السادات لا يقود منفردا عملية التغيير الشامل للإطاحة بما يتبقى من آثار الناصرية، فهو يعتمد في تنفيذ سياسته على من كانوا يرددون شعارات العهد السابق ويعلنون الولاء، ثم يسيرون في ركاب النظام الجديد بحماس مماثل، لأنهم يجدون تحت رايته ما يحقق مصالحهم ويعينهم على الصمود غير المحدود.

في خضم هذه التحولات الصاعقة، لا ينتبه السادات ورجاله إلى أن تحمل الأغلبية الشعبية الفقيرة لا يمكن أن يمتد بلا نهاية. لم تكن انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ إلا تجسيدا للسخط والاستياء والشعور العارم بأن الخلل الاجتماعي الفادح يهدد استمرار السادات وينسف شرعيته.

ليس مثل كلمات أم الراوي في الكشف عن أسباب ودوافع الانتفاضة الشعبية التي تعم أرجاء مصر جميعا، في يناير ١٩٧٧: "البلد ولعت.. الجرايد كتبت إن كل حاجة غليت.. هوه إحنا ناقصين .. والناس ح تاكل منين واللا تعيش إزاي يا بني.. أوع تنزل .. ما حدش عارف الحكاية ح توصل لإيه.."

الاحتجاج شعبي عفوي في المقام الأول، جراء القرارات المباغتة برفع الأسعار التي تطول سلعا ضرورية تمثل عصب الحياة اليومية للفقراء. مثل هذه السياسة التي يتبعها النظام علامة بالغة الوضوح على الانفصال الحاد بين السادات والشعب، وتأكيد على اللامبالاة التي تتسم بها توجهات الرئيس ذات الانحياز الطبقي الصريح لأغنياء الانفتاح، وهم أقلية تتراكم ثرواتهم بطرق مريبة: "كان الغضب قد فرض سيطرته على مجريات الأمور، وبدا الناس في الشوارع، وكأنهم يخوضون غمار معركة وجودية، دفاعا – هذه المرة – ليس عن حقهم في الاستقلال، أو مواجهة العدوان، ولكن عن حقهم في الطعام، مجرد الطعام!!".

لا معنى في الحديث عن مؤامرة يدبرها ويقودها معارضون سياسيون، فهي انتفاضة جياع يرهقهم الفقر غير المسبوق، ويدافعون عن الحق في الحياة؛ مجرد الحياة. توجيه شلالات الغضب العنيف إلى دور الصحف الكبرى، مبرر بالأداء السلبي الذي تنتهجه في الدفاع المستميت عن النظام، وانصرافها الكامل عن الالتفات إلى هموم وقضايا المهمشين المسحوقين في ظل الانفتاح وتجلياته التي تشوه ملامح الخريطة الطبقية الأقرب إلى التوازن والاعتدال في المرحلة الناصرية.

الاعتماد على القمع الأمني لمواجهة الأزمة الخطيرة ليس مجديا، وتوجيه الاتهامات العشوائية إلى اليسار لا يمكن أن يكون مقنعا، ذلك أن التحرك العفوي العنيف اجتماعي خالص، فضلا عن أن المعارضة أضعف من القيام بتحريك الحشود الهائلة التي تمتلئ بها شوارع مصر جميعا:

"وتوالت الأحداث بعد ذلك، ليشيع وصف "انتفاضة الحرامية" على ما جرى، وتنشر الصحف أخبار مؤامرة كبرى دبر لها الشيوعيون والناصريون، لتحريض الناس، والإخلال بالنظام".

هذا النمط المعهود من الاتهامات التقليدية سابقة التجهيز، ينهض دليلا قاطعا على اقتراب نظام السادات من الإفلاس، وعجزه الفادح عن القراءة الواعية الصحيحة لما يعتمل في أعماق أغلبية الشعب من غضب مبرر بالمعاناة

الاقتصادية، وإلى القوات المسلحة وحدها يعود الفضل في السيطرة على الموقف الملتهب والحيلولة دون المزيد من الاشتعال الكفيل بإسقاط النظام: "فقد رسخت عقيدة جمعية في الذهن المصري، منذ زمن بعيد، ترى الجيش صنوا لشرف الوطن، ولا ترى تقاطعا بينها وبينه، مهما كانت الظروف".

تنتمي المؤسسة العسكرية إلى الشعب وتحظى بثقته، لكنها جزء أصيل من النظام. بطولات الجنود المصريين في حرب العبور، قبل ثلاث سنوات من الانتفاضة، هي الإنجاز الإيجابي الأخير الذي تتراجع آثاره تباعا، ولم تكن مبادرة السلام التي يعلنها السادات إلا خطوة جديدة خطيرة في مسيرة الانقلاب والتغيير. لا شك أنها وثيقة الصلة بالمراهنة المزمنة على الولايات المتحدة الأمريكية، واعتماد سياسة الانفتاح الاقتصادي العشوائي، والفشل الكارثي في تحقيق الحد الأدنى من التوازن الاجتماعي، جراء الانحياز الحاسم إلى طبقة طفيلية جشعة نهمة، لا تتسلح بشيء من القيم والمبادئ، ومن رموزها وعلاماتها سمير متولي وعبدالسلام عسل.

في خريف ١٩٧٧، يعلن السادات عن مبادرته الصادمة بزيارة القدس، ولا تنفصل خطوته هذه عن مناخ التوتر الذي يبدو مستحيل العلاج. الترويج للزيارة وما يترتب عليها مسئولية إعلامية ثقافية، ورجال المرحلة هم من يتصدون للدعم والتأييد، وليس مثل سمير متولي في تجسيد التناغم بين السادات ورموز عهده المعبرين عن رؤاه وأفكاره:

"تحرك سمير – بشكل مكثف – عقب مبادرة السلام، واتفاقية كامب ديفيد، ليحول مركزه إلى راس جسر إلى إسرائيل، أوساطها السياسية والأكاديمية على وجه الخصوص، فقام بتجهيز حزمة معتبرة من الدراسات والبحوث التي تتناول آفاق عصر السلام، والتعاون الإقليمي،

كما عقد سلاسل من الندوات لها التوجه نفسه، واتفق مع المؤسسة البحثية الأمريكية، على إجراء عدد كبير من المسوح واستطلاعات الرأي، حول موضوعات مثل: مدى ترحيب المصريين بالسياحة الإسرائيلية، ومستويات التسامح الديني وقبول الآخر، والراي العام في الجيش حول السلام، ومدى قوة التيار الناصري في الشارع، ونشاط وفاعلية مراكز حقوق الإنسان في مصر، ورؤية الناس للمعونة الأمريكية، ومدى استعداد رجال الأعمال للدخول في مشروعات مشتركة مع الإسرائيليين، والفوارق الفكرية والحركية بين التشكيلات الدينية في مصر،

ورأي الأقباط في حظر الأنبا شنودة سفرهم إلى القدس".

أيدلوجية جديدة، سافرة صريحة، تليق بمرحلة السلام المباغت الذي يواجه تحديات شتى، داخلية وخارجية. عند التأمل في المحاور التي تنشغل بها الدراسات والمؤتمرات، تتجلى بوضوح حقيقة إن جوهر الاختراق ليس سياسيا تقليديا بقدر ما هو ثقافي فكري إعلامي، يهدف إلى التركيز على العناصر الحيوية الجديرة بتهيئة التربة المصرية لعصر جديد، يمسح كل ما كان مسيطرا مهيمنا من قيم ومرتكزات في العصور السابقة. التعاون مع إسرائيل علني برعاية ومباركة نظام السادات، والضربات العنيفة التي تتوالى على المعارضة، الضعيفة منذ البدء، تحول دون قدرتها على المواجهة الفاعلة والتأثير في صناعة القرار.

ويتوافق ذلك الاضطراب مع الاستثمار المنفلت قصير النظر للتيارات الدينية، التي يدعمها السادات انتقاما من اليسار الذي يزعجه، وبحثا عن شعبية يتوهم اكتسابها من المراهنة على المشاعر الدينية التي تستوطن قلوب المصريين: "وتزايد الاحتقان في البلد، وانتقلت لهجة الخطاب الديني، إلى مستوى عال، من الحضور، والضغط، بل والصدام".

المسيحية الطيبة أولجا، الأم البديلة لسمير والمعنى الإيجابي الوحيد ي حياته الملوثة المشوهة، تقدم شهادة مؤلمة موجعة ذات خصوصية عن المصير المجهول الذي تئول إليه مصر جراء الاحتقان الديني المصنوع عمدا، وشهادتها هذه بالفعل دون القول:

"دخلت أولجا إلى الدير لتصبح من المكرسات بعد أن أفزعتها أحداث الزاوية الحمراء، على الضفة الأخرى من شارع رمسيس، ولتنتظر – في هدوء عظيم – لحظة لقائها بزوجها، الذي أوصت بأن تُدفن إلى جواره".

رموز وعلامات الزمن القديم، من الطيبين البسطاء المخلصين، يتوزعون بين المقابر والأديرة والسجون، ويصل الانفلات إلى ذروته منبئا بالنهاية المنطقية للسادات وعهده.

لا تعارض أو تناقض بين سيطرة الفساد وشيوع التدين الشكلي الذي يردد شعارات ويؤدي طقوسا. التآلف بين هذين التوجهين المتعارضين، على الصعيد الشكلي، يكشف عن جوهر نظام السادات المسكون بالنفاق والازدواجية

والمراوغة، التي يوحى ظاهرها بالذكاء والدهاء، لكنها تفضي إلى الانهيار الذي لا ينجو السادات نفسه من نيرانه الحارقة.

العاهرة التقليدية لولا، تدرك أن المهنة التي تحترفها لابد أن تخضع لإيقاع التحولات التي تشهدها مصر. لا يعنى هذا أن تعتزل وتتوب، بل إنها تراود التعايش مع الآليات العصرية: "فلم يعد من الدارج مزاولة مثل تلك الأنشطة، وحدها، وبشكل مستقل، بل وأصبح – ذلك – أمرا يتناقض مع المناخ الاجتماعي والأخلاقي الجديد في البلد، وإنما أصبح من المألوف، أن تتستر – تلك الأعمال – وراء أقنعة أخرى، فنية، أو بيزنسية، أو غيرها...

فلقد انقسمت مصر على المستوى القيمي، وانشطر معها المزاج السائد، وتشظى، كما لم يحدث في تاريخها المدون كله.

سيطر جو التطرف على بعض مظاهر الحياة، وصبغ الشوارع بإحساس متزمت، وخانق، وأشاع حضورا دينيا مبالغا فيه، يخاصم العلم، والحضارة، وتراث الدولة الحديثة، وهؤلاء الذين يعيشون – معنا – في وطن واحد!".

لوحة مشوهة مليئة بالألغام التي لابد أن تنفجر في لحظة ما،

ذلك أن الاستقرار المؤقت على هذا النحو ينهض على أسس متهافتة هشة لا يمكن أن تستمر. قوام المعادلة هو التشبث بأقنعة ذات مسميات متنافرة، وتلبية الاحتياجات القديمة تتكئ على قاموس جديد وطقوس تتوافق مع سطوة الخطاب الديني المتزمت الذي ينصب اهتمامه على مراعاة الشكل والتغافل عن الجوهر والمضمون:

"فرجل الأعمال،أو الثرى الأنيق، لم يعد راغبا في أن يجالس أو يضاجع عاهرة، بالمعنى الكلاسيكي المفهوم، ولكنه يريد أن ينام مع فنانة، أو مذيعة، أو أديبة، أو مديرة، أو فتاة إعلانات، ويدخل في روع نفسه، أنه نجح في اصطيادها، بصفاته الاستثنائية الخارقة، وقدراته، ومواهبه التي لا تبارى، في الاستحواذ على اهتمام النساء!".

اغتيال السادات نتيجة منطقية لجملة السياسات التي يتبناها ويتشبث بها على الرغم من آثارها الكارثية، لكن سقوط رأس النظام لا يعنى شيئا ذا بال. القافلة تسير كالعهد بها كأن جريمة غير مسبوقة لم تقع، وعتاة المؤيدين للسادات ينقبلون عليه في بساطة وسلاسة:

"وفي هذا الإطار، أصبح سمير – بعد اغتيال السادات على يد مجموعة من المتطرفين – واحدا من أكبر منتقدي ذلك العصر، إذ بعد فترة كمون وجيزة،
لتبين شكل الساحة، انطلق سمير في عشرات الحوارات الإعلامية، يؤكد أن السادات هو السبب في إحياء فكر الإرهاب الديني.."!.

إدانة سمير متولي، الذي يدمن التحول في مواقفه بلا عناء، فعل ميسور بقدر ما أنه لا يكتمل بمعزل عن قراءة شاملة للمشهد، وعندئذ لابد أن تنعقد البطولة للسادات، صانع المناخ الذي يصل به إلى النهاية المأسوية.

الفصل السادس عشر

ناصر عراق

يحظى السادات بموقع سلبي بالغ الأهمية في رواية "نساء. القاهرة. دبي"، ٢٠١٤، التي تقدم شهادة شاملة عميقة متعددة الأبعاد، عن المجتمع المصري وتحولاته الجذرية منذ مطلع السبعينيات في القرن العشرين، إلى ما بعد اشتعال ثورة يناير ٢٠١١.

تكشف الرواية عن التناقض الجوهري بين توجهات السادات وسلفه عبدالناصر، وتشير إلى أن التخبط العشوائي ملمح راسخ في السياسة التي يتبناها الرئيس الجديد، أما الانفتاح الاقتصادي فإنه الكارثة الكبرى التي تقذف بالفقراء إلى هاوية الضياع، وتدفع بالشريحة الأكبر من الطبقة الوسطى إلى الوقوف على حافة الفقر. عندئذ تتحول الهجرة، الدائمة أو المؤقتة، إلى وباء يمسخ كثيرا من ثوابت الهوية المصرية، ويهيمن التدين الشكي متوافقا مع التحالف الانتهازي بين السادات والتيار الديني، حيث الصفقة التي تستهدف ضرب وتصفية اليسار، ولا تتعارض القشور الدينية هذه مع سيطرة الفساد المتوحش ورموزه الذين يسيطرون على الساحتين السياسية والاقتصادية.

تقترن حقبة السادات في رواية ناصر عراق بمحطات مثيرة تتوقف عندها المعالجة الروائية طويلا: انتفاضة ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧، مبادرة السلام والعلاقة ذات الخصوصية مع إسرائيل والولايات المتحدة، اشتعال الفتن الطائفية؛ وصولا إلى حملة سبتمبر ١٩٨١ واغتيال السادات في حادث المنصة، بعد شهر واحد من قراره الانفعالي المتشنج غير المحسوب باعتقال عدد هائل من معارضيه، المنتمين إلى اليمين واليسار معا.

من ناحية أخرى، تؤكد الرواية أن عصر السادات لا ينتهي باغتياله، ويتمثل الامتداد في سريان منظومة القيم والسياسات التي يرسخها، ذلك أن عمق التحولات يتجاوز شخص السادات إلى بنية النظام الذي يؤسسه، ولا يسهل التخلص من آلياته برحيل الرئيس الذي يقود عملية الانقلاب.

يتساءل الأستاذ جرجس حنا، تلميذ طه حسين البعيد عن التسرع والإسراف الانفعالي في إصدار الأحكام: "هل يسعى السادات إلى محو تجربة عبدالناصر السياسية والاجتماعية، وإلقاء مصر في مستنقع المجهول؟".

المدرس الحكيم المتقاعد نفسه من يطالب أصدقاءه المقربين بالتريث وتجنب التحامل المبكر على السادات، لكن التساؤل الاستنكاري الذي يطرحه لا ينبع من فراغ. ممارسات الرئيس تنم عن قيادته لحملة التشويه المنظمة، الشرسة غير الموضوعية، التي تستهدف سلفه الراحل، وتسلب من العهد الناصري كل فضيلة وإنجاز إيجابي، ولا غرض من ذلك الهجوم المتشنج إلا تكريس حكم السادات بطبيعة الحال. من هنا يطل السؤال: "هل هذا معقول؟ أمن أجل مجد شخصي يحلم به السادات يدمر ماضى بلد ويصادر مستقبله؟.

ماذا يريد السادات بالضبط؟".

لم تكن سنوات حكم عبدالناصر وردية مثالية خالية من الأخطاء والخطايا، لكنه ينحاز صادقا إلى الكتلة الشعبية البسيطة الفقيرة، ويجتهد في السعي إلى تحقيق حلم العدالة الاجتماعية، ويتبنى مواقف صلبة تجاه إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. على النقيض من ذلك كله، يتحرك السادات متكئا على سياسة قوامها التخبط والعشوائية واتخاذ قرارات مباغتة صادمة، عسيرة الفهم والاستيعاب عند قطاع عريض يمثل أغلبية المصريين. يقول الأستاذ جرجس مازحا:

"- هل يمكن لأحد منكم أن يتنبأ بما سيفعله السادات في أية لحظة؟

قهقه سمير بطرس قبل أن ينطق مستغفزا"

- الرب نفسه، له المجد، لا يمكن أن يتوقع ماذا سيفعل هذا الرجل:

أما مرسى الشوبكى فهتف بعد أن جذب نفسا عميقا من الشيشة:

- هل يستطيع أحد أن يخمن أين سيقفز القرد بعد لحظة؟

ثم أضاف بصوت اختلطت فيه السخرية بالأسى"

- يا جماعة.. إن من يحكمنا قرد وأُلعبان كبير!".

يضيق الأغلب الأعم من المصريين بسياسات السادات، داخليا وخارجيا، ولا شيء أصعب من التنبؤ بنواياه وما يفكر فيه. لا تصدر قراراته الخطيرة بعد دراسة واعية، فهي أشبه بالقفزات المباغتة، ولا تضع في الاعتبار مصالح الفقراء، وما

يعانونه من مشقة. ليس مثل الانفتاح الاقتصادي، فلسفة النظام الاقتصادية منذ منتصف السبعينيات، للتعبير عن هذا التوجه.

موجة عاتية من الغلاء المتوحش غير المسبوق تشهدها مصر، ويكتوى الفقراء ومتوسطو الحال بنيرانها، بعد الإعلان عن التحول إلى الانفتاح الاقتصادي،

اختيار السادات الذي يجزم مرسي الشوبكي بأنه سيقود الملايين من المصريين إلى المزيد من الفقر. كان الرجل مديرا عاما في وزارة التموين، ولم يعد المعاش بعد تقاعده كافيا لتلبية الاحتياجات الضرورية لأسرته: "شكوى مرسى الشوبكي انطلقت بعد أن لاحظ أن معاشه، وهو المدير العام السابق، أصبح لا يكفى تلبية احتياجات أسرته الصغيرة، وأن أسعار السلع الأساسية في ارتفاع واضح، وأن المصروف الذي يخصصه لأبنائه الثلاثة والذي كان يكفيهم فيما مضى، صار يتبدد بعد أسبوعين، فيطالبونه بالمزيد!".

درجة "المدير العام" لا يصل إليها إلا القلة من الموظفين، وعندما يشكو أمثال مرسي من تهافت المعاش فلابد أن المحنة مضاعفة عند من هم أقل مكانة. لا يختلف الأمر عند مدرس الرياضيات ووكيل المدرسة المتقاعد سمير بطرس: "يا جماعة.. معاشى لا يكفيني منذ مطلع هذا العام، وها نحن نودع ١٩٧٧ ولا تلوح في الأفق أية إشارة توحى بتحسين الأحوال!".

ويكشف حسنين البقال عن وجه سلبى آخر لتداعيات الانفتاح وآثاره الوخيمة، فالبقال التقليدي الصغير يواجه منافسة تخلو من الندية والتكافؤ مع الغيلان الجدد، ما يهدده بالإفلاس:

"- والله يا إخوان.. تضاءل ربح المحل وبات المردود شحيحا في الشهور الأخيرة، بعد ظهور ما يطلقون عليه اسم السوبر ماركت والبوتيك!

على الفور قفز مرسى الشوبكي فوق لسان حسنين البقال صائحا:

- انتظروا الأبشع.. فالانفتاح الاقتصادى الذي أقره السادات سيقضى على أمثالنا من بسطاء الطبقة الوسطى!".

الطبقة الوسطى، بفئاتها وشرائحها المختلفة، ركيزة المجتمع وأداة تحقيق التوازن والانضباط في إيقاعه. لا شك أن معاناة الموظف الكبير والمدرس والتاجر الصغير، وهم أعمدة الطبقة، تبرهن عمليا على أن الانفتاح المنفلت غير المقيد

يهدد الوجود الراسخ ويفتح الباب واسعا أمام زلازل وتحولات كارثية، تتغير معها معالم الخريطة الاجتماعية بشكل جذري غير مأمون العواقب.

الشكوى شائعة مكررة من الارتفاع الجنوني للأسعار، والأغلب الأعم من السلع الضرورية يخضع لطوفان الغلاء الذي لا يمكن احتماله والتعايش معه.

يتصاعد الفقر بكل ما يترتب عليه من آثار ونتائج، وتصل المأساة إلى ذروتها في الصعيد المهمل الذي يتحول إلى أرض خصبة للتطرف والإرهاب. يقول الشوبكي:

"- لقد ترك السادات الصعيد يكابد أوضاعا حياتية بائسة، في مقابل تدليله للأثرياء الذين نهبوا البلد وأشاعوا فيها الفساد من بوابة الانفتاح الاقتصادي!.

تمتموا جميعا تأييدا لكلامه، ثم هتف سمير بطرس:

- الرب يحمي أحمد بهاء الدين الذي أطلق عليه (انفتاح السداح مداح)!..

مصطلح "السداح مداح" ترجمة كاريكاتورية شعبية دقيقة للفوضى العارمة وتراجع رقابة الحكومة ذات الانحياز الطبقي الصريح للأغنياء، ما يعني زيادة مستمرة بلا ضوابط في أسعار السلع الضرورية، ومن المنطقي عندئذ أن تسود مشاعر الإحباط واليأس، ويصل الأمر بسمير بطرس إلى أن يقول ساخطا متذمرا: "كيلو اللحم أصبح بأربعة جنيهات.. والدجاج البلدي اختفى، وأبتلينا بدجاج المزارع الباهت.. بذمتك أيام الملك والاحتلال أفضل أم هذه الأيام السوداء؟".

ينتمي سمير إلى الجيل القديم الذي يعتز بوطنيته ويتمسك بانتمائه، لكنه يتأثر بالأزمة فيعيد النظر في بعض ثوابت القيم المستمدة من التاريخ القريب الذي يعاصره، فكيف يكون الأمر إذا بالنسبة للأجيال الشابة التي تتعرض لصدمات متتالية، تتحطم معها الأحلام البسيطة وتبدو كأنها من الخوارق والمعجزات؟. البقاء في الوطن لم يعد محتملا، وحمى السفر أقرب إلى الوباء الذي يستشرى ويفضى إلى المزيد من الأزمات.

مع تفاقم الأزمة الاقتصادية وارتفاع معدلات البطالة ومحدودية فرص العمل، تتحول مفردة السفر إلى عنصر فاعل في قاموس الحياة المصرية، ويبدو الأمر أقرب إلى "نداهة" تدفع إلى النزوح الجماعي خارج الوطن.

يشكو البقال حسنين لأصدقائه في القهوة، ويقول لهم في نبرة حزينة تعكس حيرته واضطرابه: "والله الأحوال لا تسر، والمردود من المحل صار شحيحا بصورة

مؤسفة يا إخوان، لدرجة أن ابنى سيد مصر على السفر إلى العراق ليلحق بأصدقائه الذين سبقوه للعمل هناك!".

البلدان العربية النفطية ملاذ للشباب المحبط الممزق الذي لا يجد الإشباع في الوطن، ولهؤلاء المهاجرين منطق متماسك مقنع لا يمكن الرد عليه وتفنيده بالشعارات العاطفية الإنشائية الفضفاضة.

ما يقوله سيد لأبيه يعبر في إيجاز مرير عن حقيقة الأوضاع المتردية التي لا متسع فيها لبصيص ضئيل من الأمل: "بيع الجبن والحلاوة والزيت لن يصلح أحوالنا يا أبي، فالسوبر ماركت في كل مكان، ومحلات البقالة تغلق واحدا تلو الآخر".

طوفان الانفتاح لا يرحم صغار التجار، والإزاحة القاسية من السوق سمة غالبة تدفع إلى ساحة الإفلاس والبطالة حشودا لا تقوى على الصمود في وجه المنافسة والمزاحمة. لكن السادات لا يعبأ أو يهتم، ويرى ما يريد أن يراه في انفصال فادح عن الواقع ومعطياته، وإنكار مريب لثمار سياسته. وفق تعبير مرسى الشوبكي: "ألم يقل السادات إن الرخاء سيأتي في عام ١٩٨٠؟ وها نحن أنهينا ربع السنة، ولم نر شيئا سوى مزيد من البؤس والحرمان .. إنه حاكم أفاق! لقد زعم ذلك، وعندما سُئل لماذا لم يأتِ الرخاء ونحن في عام ١٩٨٠، فرد على الفور: (لقد جاء الرخاء في عام ١٩٧٩). اي والله هكذا قال.. من فيه لأذني دون وسيط!".

من الذي ينعم برخاء السادات؟. الطبقة الطفيلية محدودة العدد والنسبة، التي تفيد من فوضى الانفتاح وتحقق ثروات سريعة طائلة، ولا شيء للأغلبية الساحقة إلا البؤس والحرمان.

تتعانق الأزمة الاقتصادية مع الاحتقان الطائفي، المترتب على صفقة السادات الانتهازية مع التيارات الدينية المتعصبة، فيغيب الشعور بالانتماء والأمان والثقة عند قطاع واسع من الشباب المسيحي المأزوم، ذلك أنهم يرصدون الانتهاكات والتجاوزات التي لا تجد رادعا، وعندئذ تمثل الهجرة خلاصا من الكابوس. بصوت شاحب متألم، يشكو سمير بطرس:

"- أبنائي يريدون أن يتركوني ويهاجروا!

رفع الأستاذ جرجس حاجبه اندهاشا قبل أن يسأل بقلق ظاهر:

- أبناؤك كلهم .. لماذا؟

نظر سمير إلى محدثه بحزن جعل جفنيه الناعسين أكثر ارتخاء، وغمغم بصوت مبحوح:

- ليسوا كلهم، فالأكبر رافض للفكرة، أما الاثنان الأخيران فقد قدما بالفعل طلبات الهجرة إلى أمريكا وكندا صباح اليوم.

- ماذا حدث؟ هل أغضبتهما في شيء؟

- ليس أنا من أغضبهما، بل الرئيس السادات. إنهما يؤكدان ألا أمل في مصر بعد أن قام النظام باعتقال الباب شنودة، ولا أمل في مستقبل آمن ما دام هذا النظام يترك الجماعات الإسلامية تقتلنا نحن المسيحيين!".

الخيوط كلها متشابكة متداخلة متكاملة: الغلاء والأزمة الاقتصادية، البطالة وندرة فرص العمل، التعصب الديني الذي ترعاه السلطة وتباركه، التراجع المريع في قيم الانتماء والتشبث بالوطن؛ ولا ينفصل هذا كله عن التهديد الخطير الذي يطول ثوابت الشخصية المصرية جراء سيطرة الخطاب الإسلامي المتشدد، الذي يعلى من شأن التدين الشكلي بكل آثاره الكارثية، ويتحالف موضوعيا مع رموز وعلامات الفساد الانفتاحي.

يشير الأستاذ جرجس إلى مقال للكاتب صالح يوسف، منشور في جريدة "الأهالي" يعبر من خلاله عن رؤية متماسكة لجملة القواعد التي يتسم بها نظام السادات في سلوكه العملي على الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. تعقيبا على افتتاح محل في مصر الجديدة، يحمل اسما غرائبيا لافتا: "السلام شوبنج سنتر لملابس المحجبات". يستعين جرجس بجزء من المقال: "يحلل فيه الدلالات الاجتماعية والسياسية لاسم هذا المحل تحديدا، حيث يشير إلى أنه يرمز إلى تشابك العلاقات والمصالح المشبوهة بين الطبقة الطفيلية التي نمت وترعرعت بفضل سياسات السادات، والتي تحكمنا بعد أن استفادت من قوانين الانفتاح الاقتصادي، وبين جماعة الإخوان المسلمين المتحالفة مع النظام السياسي للسادات وأصدقائه الجدد من أمريكان وإسرائيليين وأذنابهم ومن يدور في فلكهم".

يفرز الحلف الجديد مزيجا من التطرف والفساد، ويخدم المصالح الأمريكية الإسرائيلية التي يتفانى النظام في التبعية لها، ويتم استثمار الشعارات الدينية الخادعة لتغيير الهوية المصرية عبر استيراد منظومة قيم جديدة وافدة، لا صلة

تجمعها بالسمات الراسخة المستقرة في أعماق الغالبية العظمى من المصريين، حيث التسامح والتعايش والاعتدال بلا تشنج.

المصريون العائدون من بلاد النفط، مسلحين بالمال الوفير وثقافة البداوة، يفرضون نفوذهم ويؤثرون سلبا على إيقاع الحياة، وليس مثل شخصيتي وداد وزوجها المهندس محمود في التعبير الدقيق عن عمق وخطورة التحولات التي تشهدها مصر في حقبة السادات.

يتخذ العائدون أزياء البداوة المثيرة للدهشة، والبطولة عندهم للحية والجلباب الأبيض والحجاب والأسماء المهجورة، أما القرآن الذين يستمعون إليه فتردده أصوات خليجية ذات أداء عصبي حاد، يخاصم جمال وجلال رموز دولة التلاوة المصرية.

تقولد وداد لصديقتها المسيحيتين إنصاف ومارسيل، كأنها ترد على الدهشة التي تنتابهما في مواجهة زيها الجديد: "أنعم الله عليَّ بالحج وزيارة قبر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، فقررت أن أتزيا وأتزين بالحجاب كما يقول ديننا الحنيف".

ألم تكن وداد مسلمة تعرف تعاليم الدين قبل السفر؟، أم أن الحجاب اكتشاف لا تتأتى الإحاطة بضرورته إلا في بلاد النفط؟. زوجها المهندس محمود لا يصافح النساء، وفي هيئته الجديدة ما يجسد التحول الشكلي الذي يزحف بقوة لإزاحة البساطة المصرية المعهودة: "لحية طويلة، وبقعة دائرية ناتئة شبه خضراء تتوسط جبهته تشى بحرصه على إعلان مواظبته على أداء الصلوات الخمس بحماسة، وجلباب أبيض فضفاض يختال داخله جسده العملاق".

سنوات متصلة من الإقامة والعمل في المملكة السعودية، كفيلة بتغيير جذري في الشكل والمضمون، ويتعانق ذلك التحول مع الثراء الفاحش والأنشطة الاقتصادية المتنوعة التي تستعرضها وداد بفخر ومباهاة، مؤكدة أن زوجها لن يعود للعمل الحكومي قليل المحصول: "المستقبل في التجارة، وأن الله عاونه في شراء محل لبيع الكتب والأدوات المدرسية، وكذلك حصل على توكيل لافتتاح مطعم ومبى قريبا جدا في شارع الهرم، وأنه بصدد إجراء دراسة لافتتاح محل ملابس!".

المكتبة التي يشتريها تحمل اسم: "الأرقم بن أبي الارقم"، والمشروعات التي يتحمس لها تتوافق مع فلسفة الانفتاح "السداح مداح" غير الإنتاجي، حيث

ينصب التركيز كله على الطعام والملابس، فضلا عن شراء الأراضي وتشييد العقارات.

القيمة الأسمى عند الطبقة الجديدة في الثراء السريع والانتصار الفج للتدين الشكلي الذي لا يرى في الدين إلا السطحي الهش الذي يخلو من العمق، وليس أدل على ذلك الهوس غير المنطقي من الحجاب الذي ترتديه ابنة وداد، الطفلة التي لا يتجاوز عمرها السابعة!. تصرخ مارسيل عندما تراها:

"- ما هذا يا وداد.. البنت ما زالت طفلة؟ ثم إننا داخل المنزل وكلنا نساء!.

مصمصت الأم شفتيها من باب إبداء قلة الحيلة، وقالت بأداء مفتعل نسبيا:

-أبوها مُصرٌّ على ذلك، على الرغم من أنى حاولت تأجيل هذه الخطوة، لكنه أقسم ونفذ. على أية حال.. هذا ما كان سيحدث قريبا"!

لا يتعارض الإسراف في التشدد الشكلي مع سلوك الزوج المنفلت، فهو يتزوج الخادمه الفلبينية سرا وينجب منها، ثم يتزوج واحدة من العاملات في محل الملابس، ولا يتورع أيضا عن ضرب الزوجة، ويتسلح في هذا كله بترديد الشعارات الدينية الكفيلة عنده بتبرير شهوات لا يرضى عنها الدين.

رحلة الزوجين وداد ومحمود تكشف جانبا مهما من الانقلاب العاصف الذي يزلزل مصر بقيادة السادات، ولا غرابة أن يعرف أحد الأبناء طريقه إلى إدمان المخدرات، ثم تحل النهاية المأسوية بقتل أمه: "عندما رفضت إعطاءه نقودا ليشتري بها البانجو"!.

التعايش والانسجام منطقي مبرر بين التطرف المتشنج من ناحية والفساد والانحلال من ناحية أخرى. لا تكتمل أبعاد اللوحة بمعزل عن التوقف أمام استعراض الرواية لنماذج دالة من رموز ونجوم المرحلة، أولئك الذين يشكلون أعمدة النظام.

موريس ألفونسو، الذي يبدأ حياته أمين معمل بمدرسة شبرا الإعدادية للبنات، شخصية قميئة مقززة. حشاش وقح متأنق في ابتذال ماسخ، ومهارته الوحيدة في التعامل الجنسي مع الأرامل والمطلقات. يحاول التقرب من مدرسة التاريخ إنصاف، ابنة الأستاذ جرجس وأرملة الضابط الشهيد في حرب أكتوبر، فتصده وتلقنه درسا قاسيا، ولا يتورع عندئذ عن ترويج الإشاعات المغرضة لتلويث سمعة السيدة المحترمة، ما يعرضه لعلقة ساخنة من المدرس فخري عازر،

الطرف الثاني في القصة الشائنة المصنوعة التي يختلقها أمين المعمل. يستقيل بعد الفضيحة ويتوارى عن الأنظار، ثم يعاود الظهور بعد فترة قصيرة مرشحا للحزب الوطني في الانتخابات البرلمانية. لا تملك إنصاف إلا أن تتساءل، كأنها لا تصدق: "هذا الحقير.. خير من يمثلنا.. كيف يحدث ذلك بحق المسيح يا أبتِ؟".

العجز عن الاستيعاب مبرر بمعرفتها لتاريخ المرشح وطبيعة شخصيته، لكن الأستاذ جرجس يشير بدوره إلى لافتة المرشح الآخر ويقول: "وهل اكتفينا بهذا النذل.. أليس الحاج حسن أبو بصلة من كبار تجار المخدرات؟".

موريس ألفونسو وحسن أبوبصلة رمزان ساطعان لرجال مرحلة السادات، التي يعلو فيها الفاسدون ويسيطرون على السلطتين التشريعية والتنفيذية. انتخابهما لعضوية مجلس الشعب ليس مستغربا، فهما التجسيد الأفضل والأدق لما تصل إليه مصر من انهيار شامل غير مسبوق، وما الأغلب الأعم من أعضاء المجلس إلا أدوات تُنتقى بعناية لتنفيذ سياسة السادات الذي يضيق بأصوات المعارضة، أو كما يقول جرجس: "لقد قلب السادات وضع البلد بسياساته المخبولة، وها هو ذا يحل مجلس الشعب ليزيح معارضيه الذين تجرأوا على سياساته وانتقدوه كثيرا بعد زيارته لإسرائيل، ليأتي بالمنافقين والانتهازيين عن طريق تزوير هذه الانتخابات".

تزوير الإرادة الشعبية ذو آثار وخيمة، ويكشف عن زيف الشعارات التي تتغنى بديمقراطية لا وجود لها. تتمثل المحصلة في حالة عاتية من الزهد والياس وفقدان الثقة في المستقبل، ويصل الأمر باليساري مرسى الشوبكي إلى القول: "علينا الاعتراف أننا شعب جبان، فها هو السادات يلعب بالبلد مثلما يشاء، فقد ازاح الرجال المحترمين في مجلس الشعب القديم، ليأتي بالمنافقين والانتهازيين في مجلسه الجديد!".

في سنوات تالية، بعد اغتيال السادات وصعود مبارك إلى الرئاسة، يتولى ألفونسو منصبا وزاريا، وينجح أبوبصلة وأمثاله من تجار المخدرات في الإطاحة بوزير الداخلية أحمد رشدي، عبر مؤامرة متقنة بواسطة جنود الأمن المركزي.

انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧، حيث الاحتجاجات الشعبية العارمة على تدهور الأوضاع المعيشية، تمثل محطة مهمة في مسيرة السادات، قائد التحولات المباغتة والقرارات الصادمة.

تفسيرا لوجود دبابة رابضة في دوران شبرا، تقول إنصاف لابنتها سوزان: "الرئيس السادات استدعى الجيش إلى النزول في شوارع القاهرة ليسيطر على الأوضاع بعد أن انتفض الناس احتجاجا على غلاء الأسعار في ١٨ و١٩ يناير الماضيين".

انتفاضة يناير رد فعل عفوي سريع على قرارات الحكومة برفع أسعار عشرات من السلع الضرورية، ولا شك عند الأستاذ جرجس في مسئولية السادات عن القرارات غير الشعبية:

"-الرئيس هو المسئول الأول، لأنه حاكم البلاد، وما الحكومة سوى أداة تنفيذ..

ثم أضاف يائسا:

-أظن أن تراجع الحكومة مسألة تكتيكية لمواجهة الغضب الشعبي، لكن سرعان ما سترتفع الأسعار مرة أخرى!".

الانتفاضة تعبير عن وصول الغضب الشعبي إلى ذروته، وتجسيد للأزمة التي لم يعد احتمالها والتعايش معها ممكنا، وهي أيضا بمثابة المدخل الذي لا يمكن إهماله أو التغاضي عنه عند محاولة تفسير دوافع السادات لزيارة القدس، بحثا عن السلام مع إسرائيل. يشرح مرسى الشوبكي رؤيته للصلة بين الانتفاضة والمبادرة:

"-حين ثار المصريون على السادات في يناير بسبب زيادة الأسعار، هرب الرجل إلى أسوان.. هل تذكرون؟

لم ينتظر أية إجابة، بل استطرد قائلا:

-لقد خاف الرئيس من الجماهير الغاضبة، ففر إلى أسوان، ثم بحث عن الحماية في أحضان الأمريكان، وليس سواها إسرائيل، حبيبة واشنطن، من ستعزز موقفه لدى أولاد العم سام!".

التحليل الذي يقدمه مرسي دقيق متماسك، يقرأ المشهد في وعى. يفلس نظام السادات ويختنق، ولا بديل للإنقاذ إلا البحث عن حلول وهمية ذات طابع هروبي،

ولأن القرارات كلها انفعالية غير محسوبة، تتسم بالتسرع والارتجال، من رفع الأسعار المباغت إلى المبادرة الصادمة، يفشل السادات دائما في الوصول إلى علاج حقيقي فعال، وتفضى خطواته إلى مزيد من التدهور والارتباك.

ينقسم شخوص رواية ناصر عراق تجاه الموقف من مبادرة السادات وزيارته للقدس، لكن الكفة تميل إلى كفة المعارضة والتحفظ والاستياء، ليس رفضا لفكرة ومبدأ السلام، بل لأن الآثار المترتبة على الصراع التاريخي الطويل مع إسرائيل لا يمكن نسيانها، ويختلط فيها الذاتي بالموضوعي، حيث الأنهار من دماء الشهداء.

يتسم الأستاذ جرجس بالاعتدال والموضوعية، وهو من يطالب أصدقاءه المقربين بالتوريث وتجنب إصدار الأحكام المتسرعة لإدانة توجهات السادات قبل المبادرة، لكن الموقف يتغير جذريا: "حين تابع مذهولا ومغموما على شاشة التلفزيون مشهد الرئيس السادات يهبط لإسرائيل ويخطب في الكنيست".

العقيد مهندس صبحي ميخائيل، ابن شقيقة جرجس وزوج ابنته إنصاف، من شهداء حرب اكتوبر، قبل أربع سنوات من المبادرة، والزيارة المباغتة التي يعلن عنها السادات صدمة لا يسهل استيعابها وقبولها عند من يدفعون ثمن الصراع من دماء الأبناء والأشقاء والأزواج. إنه ثأر شخصي ووطني، يستوطن الذاكرة والأرواح والقلوب: "في اللحظة التي هبطت فيها طائرة الرئيس السادات مطار بن جوريون بتل أبيب، انهمرت دموع الأستاذة إنصاف حتى أغرقت وجنتيها اليابستين، ثم رسمت علامة الصليب وهي ترنو إلى صورة زوجها المعلقة في الصالة. أما أبوها، فلم يتمالك نفسه وصرخ بحدة وهو يرى السيد الرئيس يصافح قادة إسرائيل:

-كيف يجرؤ هذا الرجل على مصافحة أعدائنا وقتلة أبنائنا؟

هكذا صاح الأستاذ جرجس بغضب عارم مراعيا مشاعر ابنته المنكوبة، بينما لعنت إنصاف الزمن الذي جعلنا نرى هذا المشهد المؤلم، ثم التفتت نحو أبيها سائلة بصوت متهدج مزقته مخالب الدموع:

-أبي.. هل يمكن أن يحدث سلام بيننا وبين من قتلوا صبحي؟".

لا ينبع رفض جرجس وأمثاله من دوافع ذاتية فحسب، فالموقف الرافض أيضا وليد نظرة موضوعية قوامها غياب الاقتناع بجدوى الخطوة التي يقدم عليها السادات. اليقين المسيطر هو أن السلام مع إسرائيل ليس واردا، والمصلحة

الوطنية المصرية لن تتحقق بالتعايش مع الصهيونية: "هل يتلاعب السادات بنا؟ هل هو ساذج لهذه الدرجة ليصدق أن بني إسرائيل سيجنحون للسلم إن جنح له؟".

يحشد نظام السادات كل المتاح له من أسلحة دعائية لتمرير عملية السلام، وعندما يستمع جرجس إلى أغنية أم كلثوم الشهيرة: "بالسلام احنا بدينا بالسلام"، التي تبثها الإذاعة بعد المبادرة، يتعجب الرجل "من مقدرة السلطة على تزييف وعي الناس، وهمس: تذكروا الآن أغنية كوكب الشرق.. ألا ما أحقر السياسة، وما أبشع السياسيين. ثم ضرب كفا بكف وهو يخاطب نفسه: أين أغنية عبدالحليم.. خللي السلاح صاحي.. عدونا غدار.. التي طالما انتشت بها قلوبنا كل يوم، وطالما صدحت بها الإذاعة وتسللت إلى عقولنا ووجداننا وهويتنا، بل كياننا كله يوما بعد يوم؟".

لابد هنا من التأكيد على أن المسألة عند المعارضين للمبادرة لا تعنى الانتصار للحرب والترحيب بسقوط مزيد من الشهداء، لكن القضية هي: هل يستطيع السادات بمبادرته هذه أن يحقق السلام المنشود؟. تزييف الوعى بالحملات الإعلامية لن يجدى في تغيير المفاهيم الراسخة المعادية لإسرائيل والصهيونية، ولا ينفى هذا تأييد قطاع من المصريين لمبادرة السادات، فهم يجدون فيها بداية للاستقرار والتخلص من أعباء ويلات الحرب. البقال حسنين واحد من هؤلاء: "إن شاء الله خيرا... ونحفظ أبناءنا من ويلات الحروب".

في المقابل، يذهب اليساري مرسى الشوبكي إلى أن السادات قد باع مصر للولايات المتحدة، وتأبى الأرملة إنصاف أن تستوعب صورة الرئيس وهو يصافح قادة إسرائيل، أما الأستاذ جرجس فيواصل انتقاده العنيف لقرارات السادات الهوجاء: "معتبرا أن زيارته لإسرائيل مشهد كئيب من مأساة إغريقية قاتمة ننتظر فصولها تباعا".

المأساة التي تعيشها مصر، في الحقبة الساداتية، متعددة الفصول، وما الفتن الطائفية التي تشتعل بين المسلمين والمسيحيين، وتصل إلى ذروتها الكارثية في أحداث الدرب الأحمر، يونيه ١٩٨١، إلا حلقة في مسلسل السقوط: الانفتاح العشوائي والسلام الهش والتطرف المصنوع عمدا.

بالصفقة الانتهازية التي يبرمها مع الإخوان المسلمين والجماعات الدينية، يتوهم السادات أنه سيتخلص من المعارضة اليسارية المزعجة، الماركسية

والناصرية، فتخلو له الساحة ويحكم منفردا بلا منغصات، مفترضا أن الحلفاء الذين يستعين بهم لا يمثلون خطرا، وغاية مطالبهم هي أسلمة المجتمع ونشر طقوس التدين الشكلي.

يتناسى السادات، في حساباته قصيرة النظر، أن حلفاءه هؤلاء تحركهم رؤى مختلفة ومصالح مستقلة، وأن الخلط بين الدينى والسياسي وباء لن يفلت منه صانعوه.

يتساءل حسنين البقال، في جلسة مع أصدقاء العمر: "ما حقيقة الفتنة الطائفية التي يُقال إنها وقعت في أسيوط أمس؟".

تختلف اجتهادات الأصدقاء في تفسير أسباب الفتنة، وينسب الأستاذ جرجس إلى إذاعة لندن تحليلا خطيرا، خلاصته أن الصراع الديني قابل للتصعيد: "إذا لم تتخذ الحكومة إجراءات حقيقية تحول دون اشتعال نيران الفتنة..".

لا يبدى نظام السادات اهتماما جديا بالمؤشرات التي تنم عنها ظاهرة تصاعد الاحتقان، في بقاع مختلفة، والسلوك المتبع في التعامل يكشف عن تشجيع وتواطؤ. التيار الديني، بأجنحته المختلفة، يقوى ويشتد ويتصاعد نفوذه، والشعارات المتطرفة تغزو الشارع المصري، وصولا إلى الفتنة الأخطر التي يشهدها حي الدرب الأحمر، قبل فترة قصيرة من قرارات سبتمبر التي تسبق اغتيال السادات بشهر واحد:

"يوم ١٧ يونيو الأسود كما وصفه سمير بطرس الذي حكى له أحد اقربائه ويدعى حزقيال حنا قد تم حرق منزله ومؤسسته لبيع المفروشات على يد عصابة من أصحاب اللحى التي تزعم أنها تمثل الإسلام".

التوتر الشديد يسيطر على الأستاذ جرجس عند الاستماع إلى التفاصيل المروعة، وتتفاقم محنة العجوز الوطني فيُصاب بالفزع جراء رد الفعل الذي ينذر باشتعال الحرب الأهلية، أو الوقوف على عتباتها: "زاره في مساء ذلك اليوم البغيض ثلاثة شباب من رواد كنيسة مسرة محذرين إياه من المذبحة المتوقعة، وطالبين منه أن يتبرع بما يستطيع ليشتروا سلاحا لمواجهة المسلمين، راجين إياه أن يغادر منزله فورا قبل الفجر؛ لأن هناك أخبارا سيئة بأن المسلمين سيقتلون المسيحين المقيمين بشبرا قبل طلوع نهار الغد!".

تنتقل الجماعات الإسلامية المتشددة من ساحة التطرف الفكري "النظري" إلى ميدان الإرهاب الدموي "العملي"، حيث إزهاق الأرواح البريئة في وحشية تخاصم التسامح المصري المعهود. تكتمل أركان المأساة عند النظر إلى رد الفعل المسيحي، وبخاصة في أوساط الشباب الساخط المتذمر، الذي يشرع في جمع التبرعات وشراء السلاح لمقاومة الأعداء المسلمين المعتدين، في ظل تقاعس مريب من السلطة التي لا تفكر في إعمال القانون وفرض سيادتها بمتابعة المتطرفين، أولئك الذين تتبناهم وتدعمهم وتدللهم.

العقلاء من المسيحيين والمسلمين، المنتمين إلى الأجيال الأقدم، يرفضون النهج المتطرف ويجتهدون في التهدئة قدر الطاقة، لكن النظام يستمر في سلبيته كأنه سعيد بالمخاطر التي تهدد بإحراق الوطن، وهو موقف سلبي يتيح للمعارضة أن تتهمه بالمسئولية عن صناعة الأزمة وتصاعدها: "حتى يلهى الناس عن مشكلاتهم الحقيقية التي تتفاقم بسبب انصياعه التام لأمريكا، وتخاذله المشبوه أمام إسرائيل".

يصل السادات بسياسته قصيرة النظر إلى تفتيت المجتمع المصري، وتصيب الشروخ الخطيرة بناءه المتماسك الذي لم يكن يعرف التمييز بين أبنائه على أساس ديني. البطولة، في العقود السابقة، للمواطنة التي لا دين تحت رايتها، ولا وجود للهوية الدينية.

سيد، ابن البقال حسنين، يعود من العراق متطرفا متشنجا يطالب أباه بالعودة إلى الدين، الذي يعني عنده إطلاق اللحية وفرض الحجاب على أمه وشقيقتيه، ويواصل أوامره قائلا بحزم:

"- والدي.. الإسلام يفرض عليك من الآن أن تقطع علاقتك كليا بالأستاذ جرجس!

-لماذا؟

-لأنه مسيحي كافر و...".

لم يكن يعرف أن الأستاذ جرجس قد مات، واللافت للانتباه هو التأكيد على أن الإسلام هو الذي يفرض المقاطعة، فالأمر ليس رأيا واجتهادا شخصيا، لكنه أمر ديني وفريضة واجبة الاتباع!

في الجبهة المقابلة، يتسلح كثير من الشباب المسيحي بالتطرف المضاد، وتحتج انجيل، ابنة إنصاف جرجس، على صلاة وداد صديقة أمها في حجرتها، وتصرخ في حدة تنم عن الكراهية والغل: "أنا أكره المسلمين لأنهم يكرهوننا ويظلموننا وينظرون إلينا من علٍ ويدعون أننا كفار!".

وإذ تحتج الأم على "المشاعر المرفوضة والمغلوطة"، تتشبث الفتاة بموقفها، وتبرهن على صحته بالشتائم التي يوجهها الشيوخ علنا: "شرائط الذين يشتموننا في كل مكان.. في الميكروباص والترام ومحلات الكاسيت ... والمساجد".

تتغلغل الكراهية وتفضى إلى استقطاب حاد واحتقان ينذر بعواقب كارثية، ولا يتحرك نظام السادات لإيقاف السقوط في الهاوية. عندما تتفاقم الأزمة وتبدو غير قابلة للسيطرة، تأتي القرارات العشوائية الانفعالية غير المحسوبة في سبتمبر ١٩٨١.

في جلسة تجمع بين الأصدقاء في القهوة، يقول مرسى الشوبكي في نبرة يقينية:

"- أقسم أن هذا الرجل لن يكمل عام ١٩٨١:

بصوت واحد تقريبا تساءل حسنين البقال وسمير بطرس:

- من تقصد؟

- السادات.. ومن غيره يخرب في البلد ويدمرها بانتظام؟ لقد زادت الأسعار ارتفاعا بصورة مخيفة، وأحوالنا نحن أبناء الطبقة الوسطى تتدهور من سنة إلى أخرى، وها هو ذا يترك الإخوان والجماعات الإسلامية تروج لأفكارها المتشددة التي تنافى الدين الصحيح والعصر الحديث،

وتريد جرنا وسحبنا إلى الخلف قرونا عددا! أقسم إن الثورة ستقوم عليه قبل أن ينتهي العام المقبل!.

أضاف الأستاذ جرجس بألم:

-لقد أطلق السادات هذه الجماعات المتشددة لتواجه المعارضة اليسارية والناصرية التي تفضح خضوعه للأمريكان، وانصياعه أمامهم لصالح إسرائيل! ألم يقل إن ٩٩% من أوراق اللعبة في يد أمريكا؟".

نبوءة سقوط النظام، عبر ثورة شعبية، لا تنهض على أساس مقنع، في ظل ضعف المعارضة، لكن جوانب الأزمة كما يرصدها مرسى وجرجس، تعبر عن المشهد الملتهب الذي لم تعرفه مصر من قبل، جراء الغلاء والتطرف والتبعية.

في عصبية متشنجة يغلفها الانفعال المنفلت، يصدر السادات قرارات سبتمبر التي تعجل بنهايته. يعتقل الرموز الأبرز من القوى السياسية كافة، معلنا عن الإفلاس القريب: "أمر باعتقال ١٥٣٦ من معارضيه السياسيين، فضلا عن عدد كبير من خيرة الكتاب والمثقفين والصحفيين".

لا ينجو البابا شنودة، ذو المكانة الدينية الرفيعة، من بطش السادات وانتقامه. ما يتوقعه الأستاذ جرجس من رضوخ السادات للضغوط الأمريكية والإفراج عن المعتقلين وإجراء مصالحة وطنية شاملة، ليس إلا أمنية بعيدة المنال، يفندها سمير بطرس في عصبية غير معهودة: "لا داعي لتلوين الكلام يا سيد جرجس.. البابا معتقل .. معتقل، وليس عندك دليل واحد على أن السادات سيصحح أخطاءه المميتة ويفرج عن الذين اعتقلهم".

يفلت الزمام تماما من يد السادات، وتتضاعف عصبيته التي تقود إلى مزيد من الأخطاء. اغتياله تتويج لعقد كامل من الارتباك غير المسبوق في الحياة السياسية المصرية، لكن العقلاء الناضجين من معارضى السادات لا يقرون مبدأ الاغتيال، ولا يترددون في الإدانة الحاسمة لحادث المنصة. يدركون أن الإرهاب يزيد الأمور تعقيدا، ويعرفون أن الأزمة المعقدة متعددة الجوانب لن تنتهي بسقوط رئيس فرد. التغيير بعد رحيله ليس فعلا ميكانيكيا ميسورا، وقد يتغير المسار قليلا، لكن جوهر المعاناة يبقى بلا نهاية.

الفصل السابع عشر

مصطفى عبيد

في روايته "نيترو جلسرين.. أن تعيش لتقتل"، ينفرد مصطفى عبيد بالتطرق التفصيلي إلى تاريخ السادات السياسي الحافل قبل ثورة ٢٣ يوليو، حيث النشاط السري والعلاقات المتشابكة الغامضة المعقدة مع التنظيمات ذات التوجه الإرهابي الصريح، والتعاطف الذي لا يخفى مع الملك فاروق وألمانيا النازية، والعداء المتشنج لحزب الوفد والزعيم الشعبي مصطفى النحاس، تحت مظلة مواجهة الاحتلال الإنجليزي ومن يوصفون بالخيانة والتفريط في الحقوق الوطنية.

لا يحظى هذا الجانب في مسيرة السادات بالاهتمام عند الأغلب الأعم من الروائيين الذين يتوقفون عند مرحلة الرئاسة في السبعينيات، وقد يشيرون إلى فترة القبوع في الظل بعد الثورة حتى رحيل عبدالناصر، لكن سنوات الأربعينيات لا تثير الانتباه على الرغم من أهميتها في الكشف عن ملامح خطيرة في شخصية السادات، الذي يصفه الرفيق حسين توفيق، في السطور الأولى من رواية عبيد، بأنه "زعيم القتلة" الذي يسمونه "رئيسا مؤمنا"!.

البطولة المطلقة في رواية مصطفى عبيد من نصيب حسين توفيق "١٩٢٥-١٩٧٩"، السياسي المصري الإرهابي سليل العائلة الثرية، المسئول عن قتل عدد من الجنود الإنجليز في سنوات الحرب العالمية الثانية، واغتيال أمين باشا عثمان بالاشتراك مع السادات وآخرين، يناير ١٩٤٦. يمتد نشاط حسين الإرهابي إلى خارج الحدود في سنوات تالية، فهو يشرع في اغتيال السياسي السوري أديب الشيشكلي، ١٩٥٠، ثم يختتم مسيرته الإرهابية بالتخطيط الفاشل لاغتيال الرئيس جمال عبدالناصر، ١٩٦٥، وبعدها يقضي ما يتبقى من عمره سجينا، حتى إصدار السادات لقرار الإفراج الصحي قبل شهور قلائل من موت القاتل المحترف متأثرا بالسرطان.

كان حسين توفيق موضوعا لرواية إحسان عبدالقدوس "في بيتنا رجل"، التي تحولت إلى فيلم شهير يحمل الاسم نفسه، لكن المعالجة الروائية والسينمائية بعيدة عن الدقة والموضوعية، وتخلو من الإشارة إلى السادات ودوره في عملة الاغتيال التي يتم تقديمها كأنها العمل الوطني الجليل.

في التقرير الذي يطالعه ضابط البوليس السياسي محمد إبراهيم إمام، في ذروة الاضطراب السياسي والاجتماعي المصاحب للحرب العالمية،

يظهر اسم السادات: "التوصية بإبعاد الضابط محمد أنور السادات تماما عن الجيش لتكرار اتصاله بالجواسيس الألمان".

قد يُقال، تبريرا لأعمال الجاسوسية هذه، إن الدوافع الوطنية هي التي تقود السادات وغيره إلى التعاون والتنسيق مع ألمانيا النازية، لكن السؤال الجدير بالطرح هنا: هل من المنطقي أن تفضى كراهية الإنجليز إلى التحالف مع استعمار جديد أكثر شراسة وعنصرية؟!. العاديون من بسطاء الناس، المنتمين إلى الطبقات الشعبية، الذين لا يملكون شيئاً من الثقافة والوعي السياسي، يتعاطفون مع هتلر ويرونه بطلا أسطوريا نكاية في الإنجليز، لكن الأمر لا يستقيم على هذا النحو الساذج مع ضابط يتغنى بحب الوطن، ويجد السبيل الوحيد لتحريره واستقلاله في العمالة لألمانيا النازية بكل ما تمثله من مخاطر.

في أوساط الشباب الوطني المسرف في الحماس ذي النزعة المثالية الرومانسية، تشيع مقولة إن الإرهاب هو الوسيلة المثلى لمقاومة الاحتلال الإنجليزي، ومن هنا يكتسب اسم السادات شعبية محاطة بهالة أسطورية، وهو ما يتجلى في الحوار بين حسين توفيق وشقيقه سعيد:

"- هل سمعت عن الحاج محمد؟

هز سعيد رأسه بالنفي، فأخرج شقيقه سيجارة أشعلها بسرعة، وقال:

- واحد من الأبطال السريين، اسمه محمد أنور السادات وكان ضابطا بالجيش وعمل مع عزيز المصري قبل أن يطرده النحاس باشا، وسأقابله بعد غد.

عقدت الدهشة حاجبي سعيد، فسأل:

- كيف عرفته؟ وأين ستقابله؟

- حكى لي عنه عمر أبو ليلى، لأنه صديق شقيقه ضابط البوليس. وطلبت منه مقابلته، وأخبره، فحدد لي موعدا في محل الأمريكيين بعماد الدين.

وسحب نفسا طويلا من سيجارته وزفره قائلا:

- هو شخص خطير جدا، ومهم لنا. سنستغله في الحصول على أسلحة ومعلومات تفصيلية عن العدو".

تغيب عن الشقيقين حقيقة إن إبعاد السادات عن الجيش ينبع من علاقاته المريبة مع الجواسيس الألمان، والأمر ليس شخصيا بالنسبة لمصطفى النحاس، لكن القرار يجعل من السادات بطلا شعبيا مرموقا عند الشباب المؤمن بنهج الاغتيال والإرهاب حد الهوس. يسكنهم الوهم باستغلال الضابط المفصول من الخدمة، والأمر على النقيض تماما مما يفكر فيه حسين. السادات بدهائه ومكره هو القادر على توظيفهم واستثمارهم لخدمة أهداف لا يعونها، جراء قلة الخبرة وهيمنة التفكير الساذج الذي يتحركون في إطاره.

في انتظار اللقاء الأول، يتخيل حسين توفيق السادات رجلا خارقا بلا ملامح واضحة: "تفيض عيناه فزعا وهيبة، ولا يطرف له هدب، ولا يعرف يأسا أو انهزاما".

لا يصل السادات في الموعد المحدد للقاء، ويتصل تليفونيا لينبه الشاب المنتظر أنه مُراقب، ويضرب له موعدا جديدا يُحاط بسلسلة من الإجراءات التأمينية المعقدة التي تنم عن الإسراف في الحيطة والحذر، ما يدفع حسين توفيق إلى المزيد من الإعجاب والتقدير: "أي نوع من الرجال سيقابله، ذلك المحتاط كما لم يتعلم، والماكر كما لم يتصور".

يعيش السادات، الحاج محمد، حياة السرية والتنكر، متنقلا بين بيوت الأصدقاء والمعارف، مسلحا بالمرح والبساطة. تفضى هذه المفردات المثيرة غير التقليدية إلى ترسيخ مفهوم "البطل" الذي يملك مخزونا هائلا من الحكايات المتنوعة ذات الجاذبية، عن البوليس السياسي وعالم الفنانين، أسمهان وأحمد سالم. اللافت للنظر أنه يجاهر بإعلان تقديره للضابط محمد إبراهيم إمام، فهو عنده ذكي مخلص في عمله، وإذ يقول حسين مستنكرا: "إنه خائن"، يرد السادات مدافعا: "لا ليس خائننا. قبل عامين كنت مطلوبا وقابلته وكنت أرتدي الجلباب وأعمل بالمقاولات بعد أن طردتني حكومة الوفد من الجيش، وقلت له هيا بنا إلى

السجن، لكنه سألني: لماذا السجن؟ فقلت: لأنني مطلوب، فهز رأسه قائلا: ومن وجدك؟ لا أحد يعرف أنني وجدتك. انطلق ولكن ابتعد عن طريقي فقد أضطر إلى اعتقالك".

المفارقة لافتة محيرة، ذلك أن الإعجاب الذي يكنه السادات بضابط البوليس السياسي لا يمكن أن يكون مبررا، ولا شيء من المنطق في التراجع عن اعتقاله بمثل هذه البساطة الغامضة. لا ينتبه حسين للمؤشرات المريبة في كلمات السادات، ويواصل الإصغاء محتفظا بالهالة الأسطورية التي تحجب خطورة الحكاية الغرائبية وما فيها من دلالات. في ظل الإعجاب غير المحدود، يسرب السادات رسالته الخطيرة عن ضرورة اغتيال "الخونة" بديلا عن قتل الجنود الإنجليز الذين يستهدفهم حسين ورفاقه:

"- أعتقد أنك ومن معك تقومون بعمل عظيم، لكنه غير مجد. ما الفائدة من قتل عسكري إنجليزي؟ ما الفائدة من قتل ضابط؟ اثنين؟ ثلاثة؟ لا شيء لن تخرج هذه الأعمال الاحتلال. المصيبة في أعوان الإنجليز، خدمهم من المصريين، هم الأخطر على البلد.

- خونة.

- بالطبع. هم كذلك. لا تهمهم سوى مصالحهم الشخصية. لذا فإن قتل واحد منهم يساوي قتل ألف جندي إنجليزي".

الاغتيال الفردي ليس حلا حقيقيا للصراع مع الإنجليز والسياسيين المصريين أصحاب الاجتهادات المتباينة في التعامل مع القضية الوطنية، ومصطلح "الخيانة" مراوغ فضفاض لا يمكن الاتفاق على تعريف نهائي حاسم له. الأخطر من هذا كله هو استهانة السادات بخطورة رموز الأقلية المكروهين شعبيا، إسماعيل صدقي ومحمود فهمي النقراشي وأحمد ماهر، ذلك أن الجدير بالقتل عنده هو الزعيم الشعبي مصطفى النحاس، وبكلمات السادات نفسه: "انظر للرأس الكبير. النحاس باشا. ذلك الساحر العجوز. درويش الناس وأفيونهم، بحزبه وأنصاره ومحبيه هو الأخطر وهو الأولى بالقتل".

اغتيال السياسيين المكروهين شعبيا فعل مرفوض مدان من حيث المبدأ، فكيف يكون الأمر بالنسبة لمصطفى النحاس ذي الشعبية الطاغية، وزعيم الحزب

الذي تلتف حوله الأغلبية العظمى من المصريين؟!. لا يتورع السادات عن التحريض على اغتيال النحاس، ويرى في قتله إنقاذا للوطن:

"- لو فكرتم في عمل وطني كبير عليكم أن تبدأوا به. انتظروا حتى يقيله الملك وأعتقد أن ذلك سيكون قريبا، ووقتها يمكن التخلص منه وإنقاذ البلد من ديكتاتورية الوفد.

- ديكتاتورية؟

-نعم. ديكتاتورية الزعامة التي تدعى امتلاكها للقيم والمبادئ والأخلاق".

مصطفى النحاس ذو تاريخ وطني نضالي حافل، ولا شائبة تطول نزاهته التي يُضرب بها المثل. الأغلبية تثق فيه وتتعلق به وتراهن عليه، لكن مقولة السادات تتوافق مع كراهية الملك فاروق الذي يضيق بصلابة النحاس ويتطلع إلى القضاء عليه. لا شك أن الاختلاف السياسي فعل مشروع، مع النحاس وغيره، فلا أحد يملك الكلمة الأخيرة والحقيقة المطلقة، ولا شك أيضا أن الاغتيال ليس عملا وطنيا إيجابيا، دون نظر إلى شخصية من يتم اغتياله. الأمر كله يصب في مصلحة القصر الملكي الذي يتفانى السادات في خدمته وتنفيذ أهدافه، ولا تعارض بطبيعة الحال بين موقفه هذا والعلاقة المريبة التي تجمعه بالألمان، فهم حلفاء الملك.

بعد إقالة النحاس، يلح السادات مجددا على ضرورة اغتياله، ما يؤكد أن العداء العنيف لا يتجه إلى المنصب وما يمنحه من صلاحيات، بل إن السياسي الشعبي هو الهدف المنشود في ذاته: "كان رأي السادات أن أطقم الحراسة المفروضة حول الرجل زالت ولم يبق سوى حارس شخصي واحد يسهل التعامل معه".

قال السادات وقتها:

- الأسد العجوز بلا مخالب".

معلومات السادات الدقيقة لا تتأتى معرفتها إلا بالتعاون مع أجهزة قوية، تعرف الكثير عن تحركات النحاس وآليات إيقاعه اليومي بعد الإقالة. المثير للدهشة أن السادات يرفض بإصرار فكرة اغتيال رؤساء أحزاب الأقلية، ولا يتوقف تحريضه المتشنج ضد النحاس، والأمر لا يخلو من دافع شخصي: "كان الامتعاض باديا على وجه السادات كلما ذُكر اسم النحاس أمامه ويبدو أنه لم يكن قادرا أن ينسى للرجل أنه طرده من الجيش وحوله إلى شريد بلا عمل. وفكر

السادات قليلا قبل أن يخبر حسين أنه من الممكن قتل رجال حول النحاس باشا، ثم يجري بعد ذلك تفجير الجنازة خلال مشاركته فيها"!.

الإيمان بالإرهاب عنصر أصيل من مكونات شخصية السادات، وجوهر نشاطه السياسي السري المريب الغامض، الذي لا يمكن أن يكون وطنيا بالمعنى الصحيح الدقيق للكلمة. إزاحة النحاس تصب في مصلحة الملك دون الوطن، والتخلص من كبار الأنصار المحيطين به بمثابة التعبير عن طبيعة الكراهية المتطرفة التي تتجاوز حدود الاختلاف السياسي المشروع. من هنا تولد فكرة اغتيال أمين عثمان، وزير المالية في حكومة الوفد قبل إقالته.

وعملية الاغتيال هذه هي الفصل الأهم في التاريخ الإرهابي للسادات قبل ثورة يوليو.

أمين عثمان "١٨٩٨ – ١٩٤٦"، سياسي مصري بارز ذو علاقات وثيقة مع الإنجليز من ناحية والوفد بزعامة مصطفى النحاس من ناحية أخرى. جراء أفكاره ورؤاه، تُوجه إليه اتهامات بالخيانة والتفريط في الثوابت الوطنية، وتصل الحملة إلى ذروتها بعد تصريحه المثير للجدل عن تصوره لحتمية استمرار التعاون المصري الإنجليزي في إطار يشبه الزواج الكاثوليكي الذي لا ينفصم.

يحق لمعارضي أمين عثمان أن يتحاملوا عليه في دائرة النقد السياسي العنيف، الذي يسفه رؤية الرجل ويرفض اجتهاده الذي قد يكون صادما، لكن الاغتيال الذي يحرض عليه السادات ويخطط له هو عمل إرهابي متكامل الأركان، تنبغي إدانته بكل المقاييس، ذلك أن السياسات لا تتغير ميكانيكيا بغياب الأفراد الذين يتبنونها، فضلا عن أن تهمة الخيانة مقولة خطيرة مرسلة، لا يمكن الوصول بها إلى محطة الإدانة اليقينية التي تبرر القتل.

مجموعة الشباب الوطني، حسين توفيق ومن معه، لا يملكون المهارة التي تؤهلهم لاستغلال السادات مصدرا للمعلومات وجلب السلاح، وهو من يستغلهم ويستثمر حماسهم المتطرف ويحركهم ببراعة لتحقيق أهدافه المدعومة من قوة أعلى تتحكم في المنظومة كلها، ولها من النفوذ غير المحدود ما يتيح أن تتدخل بعد اعتقال السادات واتهامه بالمشاركة في عملية الاغتيال. يحار محمد إبراهيم إمام في مواجهة الوقائع التي تتوالى لإفساد القضية وتغيير مسارها، ويتساءل ضابط البوليس السياسي: "كيف أعقب القبض على أنور السادات تعرض عبدالعزيز

أفندي الشاهد الرئيس في القضية والذي رأى حسين توفيق أمام مسرح الجريمة للتهديد ثم لإطلاق الرصاص عليه، ثم تعرضت أوراق القضية نفسها للسرقة من جانب شاب غامض كان يسير وراء حاجب المحكمة ثم اختطف منه كل ما يحمله من أوراق. كما تعرض شاهد آخر في القضية هو كونستابل ميدان العتبة لإطلاق رصاص عليه من مجهولين مما دفعه للعدول عن شهادته مدعيا أنه لا يستطيع التيقن من الجاني".

القصر الملكي وحده من يملك القدرة على التخطيط والتنفيذ بمثل هذه الدقة لإنقاذ السادات الذي يخدم مصالح الملك ويحارب أعداءه ويخدع الشباب بشعارات واهية لا تنهض على أساس مقنع.

لا متسع هنا لما يُقال عن المصلحة الوطنية التي يتشدق بها السادات وهو يتحدث عن خيانة النحاس وخطورته كأفيون للشعب وحائل دون أحلام التحرير والاستقلال.

ضابط البوليس السياسي محمد إبراهيم إمام، كفء محترف في إطار العمل المهني البعيد عن الانحياز السياسي الفج، وفي تأمله للتداعيات التي تترتب على اعتقال مخططي ومنفذي عملية اغتيال أمين عثمان، يصل إلى أن السادات هو "الثعلب" الذي يدبر ويحرض وينجو بدهائه ومكره، فتبقى يده مغسولة من الدماء. التساؤلات التي يطرحها جديرة بالاهتمام: "منذ صار السادات غريمه وهو يعى أن هذا الرجل نافذ ولديه شبكات لا حصر لها من الإرهابيين والقتلة والمنتشين بحلم الثورة. سأل نفسه: لحساب من يعمل السادات أو الحاج محمد كما يحلو للبعض تسميته؟ لثوار حقيقيين؟ للألمان؟ للإخوان؟ أم للسراى نفسها؟ أو ربما للإنجليز؟ لكن كيف؟".

غموض كثيف يحيط بالسادات، وأسئلة شتى بلا إجابات حاسمة. لا شيء يسهل الوصول إليه حول مصدر النفوذ الذي يتمتع به، لكنه ينبع بالضرورة من جهة قوية ينتمى إليها وتضفي عليه الحماية. الشعور بالدعم غير المحدود يدفع الضابط المفصول المتهم إلى توجيه نظرات تهديد صريحة لضابط البوليس السياسي وهو يدلى بشهادته أمام المحكمة، ونظرات كهذه لا يمكن تفسيرها إلا على ضوء اليقين الراسخ الذي يسكنه بنفوذ داعميه، وهل إلا الملك من يملك هذا كله؟!.

من ناحية أخرى، يكشف سلوك السادات داخل محبسه عن الملامح والسمات الأهم التي تميز شخصيته وتصاحبه عبر مراحل حياته. يحكى لرفاقه الأصغر سنا والأقل خبرة عن روعة السجن ومتعة القضبان: "كان يستثير حماسهم وخيالهم وهو يكرر لهم أن معظم الأبطال والزعماء التاريخيين دخلوا السجن، وعاشوا سنوات محرومين من الحرية. ذكر لهم ضرورة توزيع جميع المأكولات والحلويات التي تأتي لهم من ذويهم على كافة المتهمين، وكذا السجائر.

وطلب منهم الرجل تكوين فريق تمثيل لأن أمد المحاكمات ستطول، وبالفعل اقترح عليهم تمثيل مسرحية عن الخليفة هارون الرشيد كتبها خلال أيام الحبس الأولى، وقام بتوزيع الأدوار ليحتفظ لنفسه بدور هارون".

مزيج من تقمص دور الزعيم الحكيم وشخصية الممثل المحترف، وتجسيده المسرحي لدور هارون الرشيد يشير إلى مفتاح مهم في عالمه الذي تختلط فيه أحلام اليقظة بأوهام العظمة، والعبث بالمرح. المحيطون به يقعون أسرى لجاذبيته وحضوره: "بدا السادات كشخصية ساحرة قادرة على طمأنة الجميع بأن رجاله في كل مكان سيفسدون كل شيء خاص بالقضية، وسيخرج جميع المتهمين دون عقوبات تُذكر نظرا لحداثة أعمارهم. ومع الوقت تجاوب المتهمون من أعضاء التنظيم مع مرح ولا مبالاة السادات".

من هؤلاء الرجال الذين يثق السادات في قدراتهم التي تقود بالضرورة إلى إفساد القضية والوصول بالمتهمين جميعا إلى الظفر بالبراءة؟!. لا ينبع يقينه من فراغ، ومقولاته ليست رسائل طمأنينة مجانية، ذلك أن الأحكام المخففة تؤكد صدق ما يذهب إليه، فضلا عن براءته وعودته السريعة إلى الجيش!.

يُسدل الستار على قضية اغتيال أمين عثمان، ويهرب حسين توفيق بخطة يتم تخطيطها وتنفيذها في دهاء وإحكام. لكن الهارب نفسه لا يملك إلا أن يفكر في السادات محاصرا بالشكوك والهواجس التي تراوده وتتكئ على معطيات وإشارات تبرهن على وجود إطار تنظيمي تتجاوز قدراته شلة القتلة الصغار: "فكر في أنور السادات وشعر أنه يخفى عنه أمورا كثيرة، متصورا أنه لا يمكن أن يكون ما جرى في القضية مجرد صدفة. أن يُسرق ملف القضية، ويُطلق النار على الشاهد الرئيس، ويُتهم إبراهيم إمام بالتلفيق، ثم يُسمح للمتهم بزيارة الأطباء ليهرب بسهولة

ويسر قبل أيام من النطق بالحكم، ثم يجد يد المساعدة تمتد إليه من داخل البوليس السياسي نفسه، وبعيدا عن إرادة ثعلبه الداهية إبراهيم إمام".

يظفر السادات بالبراءة وهو المتورط في التحريض والتخطيط باعتراف من تطولهم الإدانة وتصدر بحقهم الأحكام، أما عن عودته إلى الخدمة في الجيش، على الرغم من الشبهات وعلامات الاستفهام التي تحيط به، فإنها تطرح تساؤلا منطقيا عن علاقته بـ "الحرس الحديدي"، القوة الموالية للملك وأداته الأهم في الانتقام من الخصوم وتصفيتهم. ما يحظى به السادات يثير الدهشة ولا يسهل فهمه واستيعابه، والإطار الذي يفكر فيه حسين جدير بالانتباه والتحليل: "تذكر السادات واستغرب ما عرفه من عبدالقادر حول عودته إلى الجيش مرة أخرى. كيف عاد المحرض الأكبر، والقاتل في الظل إلى عمله في المؤسسة العسكرية؟ ألم يُحسب يوما على الألمان؟ ألم يعمل مع الإخوان؟ ألم يُتهم بالعنف والإرهاب؟ ألم يفجِّر ويطلق النار ويستحل الدماء؟ لم تمت تبرئته الآن ...

تخمين الإجابة ليس صعبا، والتفسير الوحيد المشبع المقنع يتمثل في انتماء السادات إلى التنظيم الملكي الذي لا يتخلى عن رجاله، ويقدم لهم عند الأزمات كل دعم ممكن. عمل منظم متقن لإفشال القضية عبر رسائل التهديد والعنف، ومكافأة سريعة بعد البراءة بالعودة إلى الخدمة وإلغاء قرار النحاس الذي يُتخذ كرد على علاقة السادات مع الجواسيس الألمان.

بعد سنوات من هروب حسين توفيق إلى سوريا، وتورطه في محاولة الاغتيال الفاشلة لأديب الشيشكلي، ما يقوده إلى السجن وانتظار تنفيذ حكم الإعدام المؤجل، يظهر اسم السادات في قائمة أعضاء التنظيم العسكري الذي يطيح بالملك فاروق في يوليو ١٩٥٢: "ذات صباح صيفي قص عسكري سوري على السجناء المصريين قصة تحرك الجيش في القاهرة للاستيلاء على السلطة وإعلان خلع الملك. كان من المفاجئ لحسين أن يعرف أن قائد الانقلاب هو أنور السادات والذي أذاع بيان الحركة. سرحت ذاكرته في صاحب الوجه الأسمر وتذكر كيف كان مرشده الأول، واستبشر أن يرى النور قريبا، ما دام الحاج محمد على رأس الحركة الجديدة. قال لزميله في الزنزانة وهو يدخن بنهم:

- استعد. سنخرج قريبا.

وظل يكررها خمس سنوات".

السادات ليس قائد الانقلاب كما يتوهم حسين للوهلة الأولى، جراء اللبس المترتب على إذاعته لبيان الحركة الأول، لكن التفاؤل الذي يغمر الرفيق القديم لا ينهض على أساس، ذلك أن السادات لا يبالي بتلميذه القديم، ولا يتحرك لنجدته وإنقاذه على الرغم من الموقع الجديد الذي يشغله كواحد من صانعي الثورة، التي يحرص النظام السوري على مجاملتها والاستجابة لما قد تطلبه من خدمات صغيرة. يدرك السادات بدهائه أن مسعى كهذا لن يكون مفيدا على الصعيد الشخصي، وربما يثير المخاوف في أعماق جمال عبدالناصر، القائد الفعلي للتنظيم.

بعد نجاح حركة الضباط الأحرار وسيطرتهم الكاملة على مقاليد الأمور، يلوذ السادات بالصمت قانعا بالفرجة والتأمل، ويبدو حريصا على تجنب الصراعات العنيفة التي تشتعل بين الرفاق وتطيح بهم تباعا. يدرك منذ البدء أن القرار الحاسم يملكه عبدالناصر وحده، وقضية حسين توفيق لا تمثل أهمية تدفعه إلى التدخل الصريح والتعرض للحرج، لكنه يستعين بالمكر المعهود حتى لا يطوله الأذى: "وخلص إلى أن رميه الكرة في ملعب زميله عبدالحكيم عامر سيضرب عصفورين بحجر واحد، حيث سيتجنب شكوك جمال في تكوين شلة من الأشقياء والمغامرين، وسيرضى كبرياء وشهامة عبدالحكيم الباحث عن أي ظلال ضوء في ظل تضخم اسم صديقه الحميم.

فكر السادات وهو يدخن بتلذذ في ضرورة تجنب الدخول في أي مغامرات جديدة قد تؤثر على مستقبله، وهو ما دفعه مرارا إلى أن يقف إلى جوار جمال عبدالناصر في كافة أطروحاته، معضدا ومؤيدا، حتى ذلك اليوم الذي اقترح فيه جمال حل مجلس قيادة الثورة وإعادة الأحزاب والدعوة للانتخابات، رفض بحدة لأنه يعرف أن اقتراح زميله مجرد اختبار لكشف من يقفون معه ومن يقفون ضده. قال لنفسه إن وظيفة مدير لجريدة الثورة، تلائم ميوله، وتناسب قناعاته في الوقوف خلف الستار لمشاهدة عصف الرفاق بعضهم ببعض".

لا يغامر السادات بالتحرك لتقديم الخدمة التي يطلبها الرفيق القديم، وفي الاستعانة بعبدالحكيم عامر مصلحة ذاتية تخلو من شبهة الخطر، فهو يتقرب من عبدالحكيم دون صدام مع عبدالناصر. يقبع وراء الستار مصفقا للقائد ذي السيطرة الشاملة والبطولة المطلقة بلا شريك، والمصائر التي يئول إليها الضباط الأحرار تجعل من المنصب المحدود الذي يتولاه مغنما لا ينبغي التفريط فيه.

بفضل شهامة عبدالحكيم عامر، الذي لا تجمعه صلة بحسين توفيق، يعود القاتل المحترف إلى وطنه وينجو من حكم الإعدام. يحصل على وظيفة صغيرة في إحدى شركات البترول، ولا تشفع الصداقة القديمة لمقابلة السادات. المرارة تسكنه جراء الجفاء، ويعبر عنها في قوله الساخر لأصدقائه:

"- هذا الرجل فاق الجميع. لقد حاولت لقاءه، وفشلت. هل تتخيلون أن يبعث لي السادات مدير مكتبه ليسألني حاجتي. تصوروا. هل يعتقد هذا الانتهازي المغرور أنني أتسول منه؟

وأضاف بنبرة حزن:

- لقد اشتهر على حسابنا. أكل عيش على قفانا.

وضحك في سخرية، ليضحكوا معه".

يصعد السادات فلا يبالي بالرفاق القدامى وأزماتهم، وفي مواقعه المتواضعة تحت راية النظام الناصري يتشبث بالصمت والابتعاد عن الصراعات التي تسقط غيره من أعضاء تنظيم "الضباط الأحرار"، أولئك الذين يتوهمون الندية في العلاقة مع عبدالناصر، فيطيح بهم بلا عناء.

يعود حسين توفيق مجددا إلى التفكير في مواصلة النشاط الإرهابي، ويخطط بسذاجة لاغتيال الرئيس عبدالناصر. قائمة الاغتيالات التي يضعها لا تضم اسم السادات، فهو لا يراه عنصرا فاعلا مؤثرا في النظام الناصري، والأولوية لعبدالناصر ورئيس الوزراء على صبري والسفير الأمريكي بالقاهرة: "السادات ليس من الشخصيات الحاكمة. لا يغرك أنه رئيس مجلس الأمة. أنت تعلم جيدا أن هذا المجلس مجرد حائط الصدى لما يقوله عبدالناصر ولا أي وجود له بين الناس. نحن نريد تنحية المؤثرين بالفعل".

السادات ذو مكانة هامشية ومناصب متواضعة غير مؤثرة بعد الثورة، وشخصيته الحذرة تحول دون المراهنة على وساطته لإنقاذ حسين بعد إدانته في محاولة اغتيال عبدالناصر. لا يرى المحامي الكبير أحمد النامي جدوى من الاستعانة بالسادات، بل إنه يحذر زوجة حسين توفيق من الدور السلبي المضاد الذي قد يقوم به: "لا تحاولي ولا تفكري في هذا الرجل أبدا. إنه لن يقابلك، وسيعتبرك خطرا عليه، وربما يعتبر حسين يحاول إحراجه أمام الرئيس

عبدالناصر. وربما يؤدي ذلك إلى آثار سيئة. ربما يضغط للحكم بالإعدام، أو أي شيء آخر. من الأفضل أن تنسى هذا الأمر تماما".

لن يتردد السادات في التضحية بتلميذه القديم دفعا للشبهات التي قد تطوله جراء التوسط لإنقاذ من يسعى إلى قتل عبدالناصر. لكن الهامشي القانع بالظل يصعد فجأة إلى مقعد الرئاسة بعد رحيل عبدالناصر، وعندئذ يأمل حسين في استغلال صلاحيات المنصب الجديد للظفر بالإفراج، ويكتب رسالة طويلة محشوة بالسذاجة والمثالية، ومن ذلك أنه يخاطب الرئيس بـ "أخي العزيز"، ويذكره بالماضي الإرهابي الذي يجمعهما وينبغي نسيانه وإهماله. يقرأ السادات ويقول لمدير مكتبه:

"- قل لي بالله عليك. ماذا تفعل إن كنت مشغولا بأمر مصيري، ورأسك منغمس فيه ليل نهار، تفكر فيه، وتحلل، وتناقش الناس، وترسم سيناريوهات، وتضع خططا، وجاء إليك ولد كان يلعب معك في الماضي وأنت صغير، وقال لك كنا كذا، وكنا كذا، وكنا...؟ ها.. ماذا تفعل؟

سكت مدير مكتب الرئاسة برهة، مفكرا قبل أن يقول:

- سأعتبر أنني لم أسمع شيئا.

هز الرئيس رأسه مبتسما، وقال:

- تمام.. تماما، وهذا ما سأفعله. أعد هذا الخطاب مرة أخرى إلى مرسله، وقل له إن الرئيس منشغل جدا، وتعذر عرضه عليه، وأن الأفضل أن تعرضه بنفسك عليه عندما تلتقي به".

من موقعه الجديد، يقول السادات عن رفاقه القدامى إنهم "أولاد" يلعبون ويعيشون في الزمن القديم – القريب، ولا متسع عنده لمثل هذا العبث في ظل التحولات التي تجعل الضابط المفصول المحرض على الاغتيال رئيسا. مع اقتراب حسين من الموت، يصدر قرار العفو الصحي، وبمجرد خروجه يستمع الإرهابي ذو التاريخ الحافل إلى أحاديث العاديين من الناس، الحافلة بالشكوى والتذكر: "ركب في إحدى السيارات المتجهة إلى رمسيس متلذذا بالاستماع لأحاديث الناس الصاخبة، عن غلاء الأسعار، والفساد، والثراء السريع للمقربين والواصلين إلى السلطة:

- الآن الرشوة أصبحت جهارا نهارا ولا يمكن إنهاء عمل دون دفع.

قال أحد الجالسين مخاطبا آخر يركب إلى جواره:

- الأسعار نار وكيلو اللحم بستين قرشا ومرتبات الموظفين لا تتغير.

ردد راكب آخر:

- أي شاب الآن يرفض أن يعمل موظفا بعشرين أو ثلاثين جنيها، ويذهب إلى بورسعيد ليعمل في التجارة ويكسب أكثر من مائة جنيه بأقل مجهود.

-السادات قال إن من يطلب الثراء في عهدي سيصبح ثريا.

أي سادات هذا؟ سأل حسين نفسه مستنكرا. ما بال الناس تغيروا بهذه الحدة؟ ما بال أحاديثهم تناست ما يجرى في سوريا والجزائر وفلسطين! ما بالهم لا يفكرون إلا في الصفقات والأموال وأكل العيش".

لا يغادر حسين كهف الأربعينيات الذي لا وجود له في السبعينيات، حيث الضغوط الاقتصادية العاتية وهيمنة الفساد والخلل الاجتماعي غير المسبوق. السادات - الرئيس ليس المحرض القديم على الإرهاب والاغتيال، والمصريون في حقبته لا ينشغلون كثيرا أو قليلا بمتابعة القضايا العربية وترديد الشعارات الرنانة. البطولة لـ "أكل العيش"، ومحاولة التعايش مع طوفان الأزمات.

السادات في رواية مصطفى عبيد، ذو وجوه ثلاثة: إرهابي يتفانى في خدمة القصر الملكي عبر عضويته في تنظيم "الحرس الحديدي" قبل ثورة يوليو، متقوقع حذر يلوذ بالصمت ويرضى بالتبعية المطلقة والمناصب الهامشية في العهد الناصري، رئيس ينتشر في عهده الفساد والغلاء ما يدفع الناس إلى الشكوى والتذمر.

المشترك الراسخ في المراحل جميعا، هو الإعلاء من شأن المصالح الذاتية دون تفكير خارج حدود الذات!.

الفصل الثامن عشر

روبير الفارس

في "لعبة الضلال"، يقدم روبير الفارس شهادة جريئة متوازنة، مسلحة بالموضوعية والتحليل العميق، عن الموقع الذي يحتله السادات في أوساط المصريين المسيحيين، أولئك الذين يعانون في سنوات حكمه من الشعور المرير بغياب الإنصاف والعدالة تحت راية المواطنة الممزقة، ويحمِّلون الرئيس ونظامه مسئولية شيوع التمييز الديني عبر الانحياز الصريح الفج إلى التيارات الإسلامية المتعصبة المتشددة، ما يفضى إلى انتشار حوادث الفتنة والصدام الطائفي، وصناعة أجواء التوتر التي تتجاوز الداخل إلى الخارج، حيث ينشط أقباط المهجر في الهجوم على السادات والاحتجاج على ما يتعرض له المسيحيون من اضطهاد وقمع .

من ناحية أخرى، تتوقف الرواية أمام حالة العداء المزمن بين السادات والبابا شنودة، ويصل الصدام بينهما إلى الذروة غير المسبوقة بقرار عزل البابا وتشكيل لجنة خماسية تقوم بمهامه، وذلك في إطار حملة سبتمبر ١٩٨١ الشهيرة، التي تعكس أزمة النظام ورئيسه، وتطول نيرانها القوى الوطنية كافة، من اليمين واليسار على حد سواء.

لم يكن السادات، بالنظر إلى أسلوب اختياره رئيسا للجمهورية، إلا امتدادا على نحو ما للمرحلة الناصرية وزعيمها، فهو ليس غريبا عنها، أما الرئيس مبارك الذي يختاره السادات نائبا، فإنه من يتقلد المنصب بعد حادث المنصة، فماذا عن الأوضاع المسيحية في ظل الرئيسين، السابق واللاحق للسادات؟!

هل كان العهد الناصري مثاليا ورديا في النهج المتبع مع المصريين المسيحيين؟!. جمال الغنام واحد من عتاة الكارهين لثورة يوليو ونظامها، ولا يملك في الوقت نفسه إلا الاعتراف بالمحبة الطاغية التي تكنها الأغلبية الساحقة من الأقباط للرئيس عبدالناصر: "الأقباط يعشقون جمال عبدالناصر ويرددون الشائعات حول علاقته بالبابا كيرلس السادس وكيف أنه شفى ابنه بصلاته.. لكن

جمال الغنام كان يشعر بغضاضة وحزن من جمال عبدالناصر وسطوة أصدقائه من العسكر الذين قبضوا على مفاصل الحياة بمصر، وهو لن ينسى أبدا عندما قُبض عليه ونال حظه من وافر اللكمات والسباب لصداقته المتينة برافع محبوب الذي اختفى في مجاهل المعتقلات بتهمة الشيوعية. كان رافع بالنسبة لجمال الغنام النور الذي يقرأ له الصحف ويحلل الأحداث ويردد الكلمات الرنانة: الجيش للحرب وليس للحكم يا جمال".

نقد الشيوعيين والمتعاطفين معهم لعبدالناصر سياسي خالص، والقطاع العريض من المسيحيين يحبون الرئيس لدوافع غير ذات صلة بتوجهه السياسي والاجتماعي. رافع محبوب وجمال الغنام لا ينشغلان بالإطار الطائفي الضيق، وينصب رفضهما على هيمنة العسكر وقهر المعارضة وإقحام الجيش في ساحة ينبغي أن يبقى بعيدا عنها. على النقيض تماما من ذلك الرفض الحاد، يعبر سلوك "غريب" عن محبة طاغية بلا ضفاف لعبدالناصر، ويتجلى ذلك بوضوح عند الوفاة المباغتة للزعيم ذي الحضور والجاذبية: "انطلق يصرخ في الشوارع بالإطارات والدموع غير المقدرة في وسط السيل الضخم من البشر الذين تركهم الأب والراعي يتامى مهزومين رضع بلا أم تحتضن وتدفئ وتصنع من خيالهم الكسيح أساطير كبرى".

الفارق جوهري لا يمكن إنكاره بين عبدالناصر والسادات: الاختلاف مع الأول سياسي، ومعارضة الثاني تعبير عن الضيق من توجهاته الصانعة لمناخ الاحتقان والتذمر، لكن عبدالناصر هو المسئول في نهاية الأمر عن اختيار خليفته:

- آه آه، كنت تكره عبدالناصر فأتاك السادات.

- ومن الذي أتى به واختاره نائبا له؟ أليس عبدالناصر؟

- لكن عبدالناصر لم يفرِّق بين المسلمين والأقباط، وكان يرحب كثيرا بالبابا كيرلس.

- نعم ترحيب ولكن على رأي رافع محبوب كان في يده وبكاريزمته الطاغية سن قوانين تريح البلد من المشاكل الطائفية".

ما يؤخذ على عبدالناصر هو التقاعس عن اتخاذ قرارات ثورية حاسمة تقتلع جذور الأزمات الطائفية، وقد كان بمقدوره أن يفعل. الأمر مختلف تماما

بالنسبة للسادات، فهو ليس سلبيا لا يضيف بقدر ما أنه متورط في دعم التيارات المتطرفة التي تعيد تشكيل المجتمع المصري وتشعل نيران الفتن الطائفية.

عند قطاع عريض من المصريين، مسلمين كانوا أم مسيحيين، يولد العداء للسادات مبكرا، قبل الظهور الواضح للآثار السلبية التي تترتب على مجمل السياسات التي يتبناها: "وحلف السادات اليمين. كبرّت المساجد ودقت أجراس الكنائس فرحا بالرئيس الجديد الذي سرعان ما أصبح مادة للنكات والمزاح".

معارضو عبدالناصر يتكئون في معارضتهم على قراراته السياسية وتوجهاته الاجتماعية الاقتصادية التي تلحق الأذى بشرائح من المصريين.

رأسماليين كانوا أم مثقفين، أما السادات فإنه متهم باستغلال المشاعر الدينية لاكتساب الشرعية والشعبية. يقدم نفسه رئيسا مسلما لدولة مسلمة، ويرفع شعار العلم والإيمان. يحظى سلوكه بسخرية لاذعة، تمثل السلاح الأهم الذي يشهره المصريون باختلاف مواقعهم للتعبير عن الاستياء والضيق والتذمر:

- السادات لا يترك فرصة.

- نعم زبيبته كبيرة كالختم الثقيل فوق جبهته. رأيته يؤدى صلاة الجمعة في التلفزيون.

- سمعت النكتة. يقولون إنه نسى يوما زبيبته فنادى زوجته جيهان فألقت بها له من البلكونة.. ههه.

- الوضع لا يريحني".

نكتة "الزبيبة المصنوعة" هذه، كأنها من أدوات العمل، بالغة الدلالة في الكشف عن إدراك معارضى السادات لفكرة الإتجار بالدين، لكن قطاعا شعبيا عريضا من بسطاء الناس يتأثر بالإعلاء من شأن الطقوس الدينية الشكلية، ويتشكل مناخ يشجع ظاهرة التعصب ويغذى الاحتقان الطائفي، المصحوب بالعنف الذي لم تعرفه مصر من قبل.

أحداث الخانكة الطائفية، ١٩٧٢، تمثل أول مظهر للصراع المدمر الذي يزدهر في حقبة السادات، وليس ثمة ما يشير إلى وعيه بخطورة الأزمة وضرورة التدخل الحاسم لعلاجها والحيلولة دون تفاقمها. يبقى حريصا على مغازلة المشاعر الدينية الإسلامية، ويقف الانحياز الفج عائقا منيعا أمام الأمل في استعادة الثقة وعبور هاوية الاحتقان.

يزداد الأمر سوءا بالنظر إلى طبيعة شخصية البابا شنودة، الذي يصعد إلى كرسي البابوية في الرابع عشر من نوفمبر ١٩٧١، كأنه على موعد مع السادات. البابا الجديد قوى عنيد صارم، والصدام منطقي مع الرئيس الذي يحمل كثيرا من الملامح نفسها:

- البابا شنودة لم يكن حكيما في تصرفه عندما أرسل الكهنة للصلاة في جمعية الخانكة المحروقة.

- لا أرتاح له هو الآخر. كلامه كثير وأفعاله قليلة. المعلم جمال يقول ذلك عنه. ينادى بالمحبة ويخاصم متى المسكين والأنبا غريغوريوس وغيرهم. لكن ما ذنب الأبرياء في الخانكة الذين قُتلوا وحُرقت بيوتهم.

- لا ذنب. والآن الدولة مع القتلة تغذيهم وترعاهم بكل حنان. ونحن لا حول لنا ولا قوة.

- سوف يأكلون الأخضر واليابس.

- مصر تحتجب يا حسان. لا أحد يرد تحية صباح الخير وكأن الخير رجس من عمل الشيطان!

- الرجل قادنا إلى النصر المدهش ويهزمنا في عقر دارنا.

- رئيس مؤمن يا سيدي!

- وهل كان عبدالناصر كافرا؟

- وضع على جبهته كلمة الإيمان فأصبح الشعب يبحث عن الكافرين.

- لغة جديدة.

- قبيحة".

يتحمل السادات الجانب الأكبر من مسئولية وباء التعصب الطائفي الذي يهيمن وينتشر ويتحول إلى مفردة شائعة مستقرة في نسيج الحياة اليومية، والتحالف الانتهازي قصير النظر مع التيارات الدينية خطأ سياسي فادح يقود إلى نتائج وتداعيات كارثية. تتشكل جراء ذلك التحول العاصف منظومة جديدة من المفاهيم والقيم القبيحة المرذولة التي تزلزل الاستقرار وتصنع قاموسا جديدا وسلوكا متطرفا، يتوهم السادات أنه يصب في مصلحته، دون تفكير في الآفاق المستقبلية لسياسته.

الصدام مع البابا شنودة مزيج من الذاتي والموضوعي، تماما مثلما كان الوفاق بين عبدالناصر والبابا كيرلس ذاتيا موضوعيا، في هذا السياق، لا يمكن تبرئة البابا شنودة من المشاركة في عملية التصعيد التي تقف بمصر على حافة الهلاك.

يستشعر القس بولس حقد السادات الذي لا يخفى على البابا شنودة: "لذلك يصلى كثيرا من أجل البابا ويطالب الحضور من شعب الكنيسة بكثرة الصلاة من أجل البابا لكي ينصره الله على أعدائه".

الصراع بينهما ينبع من العناد المشترك الذي يجمعهما، ويبرهن عمليا على تشابه في السمات الشخصية، حيث الإسراف المتطرف في الاعتزاز بالذات، وتغلغل الشعور بالزعامة التي هي سياسية عند السادات وروحية بالنسبة للبابا. ليس من المنطقي شيطنة أحدهما، وإضفاء المثالية الملائكية على الآخر، ولعل في كلمات اسحق، وهو على عتبات الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ما يلخص الجوهر الجديد بالتأمل والاهتمام: "ورأيي في هذا البابا مثل رأي ابى رحمه الله أنه يلعب مع السادات لعبة "شد الحبل" والحبل ملفوف على رقبة الأقباط. هذا يشد وذاك يجذب، ونحن ندفع الثمن في ظل انتشار مكثف للجماعات المسلحة".

الظن السيء متبادل بين الزعيمين، السياسي والروحي، وليس أدل على ذلك من إصرار السادات على اتهام البابا شنودة بدعم وتشجيع أقباط المهجر الذين يتفننون في إهانة الرئيس والإساءة إليه عند زيارته للولايات المتحدة. وليم فؤاد، الذي يهاجر إلى أمريكا مطلع عصر السادات، يعتبر نفسه زعيما عالميا للأقباط جميعا، ويباهى بنشاط منظمته "إغاثة أقباط مصر"، التي تقود حملة الاحتجاج وتنظم وقفة أمام البيت الأبيض، تهين السادات وتجرح كبرياءه: "وألقى عليه أعضاؤها الطماطم والبيض الفاسد، ووصفه في لافتات عريضة بالمضطهد الأول للأقباط، وراعى الإرهاب الإسلامي. الأمر الذي وضع السادات في حرج عظيم أمام جيمي كارتر. وظن أن البابا شنودة هو الذي حرَّض هؤلاء الشباب المغرر بهم للهجوم عليه بهذه الصورة المشينة.

- حطمنا كبرياءه وجعلناه لا يساوى بصلة.

هكذا كان يختم وليم حديثه الدائم والمتكرر عن هذه البطولة التاريخية كما يصفها باستمرار".

الإهانة التي يتعرض لها السادات حقيقة لا يمكن إنكارها، ولا شك أن الإساءة إلى كرامته موجع وهو النرجسى المولع بذاته إلى درجة الهوس، لكن السؤال الذي لا يتيسر الوصول إلى إجابة يقينية عنه: هل يقف البابا شنودة حقا وراء الحملات الاحتجاجية وما تتضمنه من ازدراء وتحقير؟!. إدانة البابا أو تبرئته لا تمثل المحور الأساس في الأزمة، ذلك أن الخطورة تكمن فيما يتصوره السادات ويقتنع به بلا ذرة من الشك، ما يدفعه إلى التصميم على الثأر والانتقام ورد الاعتبار.

يقدم روبير لوحة مهمة تصف مشاعر السادات كما يتخيلها، ويرصد في تصوره هذا ما يعتمل في أعماقه من الغضب الذي ينعكس في مرحلة تالية على المواقف والقرارات الانفعالية البعيدة عن الاعتدال: "لوثت الطماطم الحمضانة وجهه الأسمر الغامق. شق جلده ثلج الإحراج. لعن الباب شنودة في سره مئات المرات. لم ينم ليلته وظل طوال الليل يغلى وعقله يرفض قبول الإهانة. رئيس مصر بطل الحرب والسلام يُضرب في الشوارع وأمام الكاميرات بالطماطم والبيض. هكذا. كيف امتلكوا الجرأة في تلك البلدان الباردة.. النصارى الأشقياء الذين كانوا لا يجرأون على ركوب الحمار أمام أصغر مسلم يمر أمامهم. ماذا فعل لهم هذا المكار الخبيث حتى يخرجوا من جحورهم كأفعى سامة تبث سمومها بلا احترام أو تقدير. مرر يده باستمرار وكأنه يمسح أثر عصير الطماطم الذي كان "يبقّع" روحه. وظل يروح ويجئ في غرفة نومه الفاخرة محاولا أن يطفئ حرائقه المشتعلة. وينفث دخان البايب. في هذه البلاد هذا الأمر عادي. إنها الديمقراطية. لعنة الله على الديمقراطية وعلى الذي ابتكرها ستة آلاف مرة. لابد من الانتقام من شنودة. سوف أجعله عبرة في تاريخ مصر والكنيسة. أنا السادات يسخر مني ويرسل إلى أتباعه برقيات تطالبهم بحسن استقبالي فيقذفونني بالطماطم والسباب والبذاءات. أكيد استخدم شفرة سرية بينه وبينهم. اصبر عليَّ يا شنودة والله الذي لا إله إلا هو لأجعلنك أضحوكة وأنزعك من على كرسيك الذي وضعتك عليه.

.... يشعل البايب من جديد.

-آه لو كنت أقدر أصدر قرارا يمنع زرع الطماطم كما فعل المعز لدين الله الفاطمي عندما أصدر قرارا بمنع زراعة الملوخية.

رسم الدخان المتلاعب في الهواء ملامح البابا شنودة. وظل السادات يطارد ويلعن هذه الملامح المتراقصة حتى مطلع الفجر".

الحاكم بأمر الله، وليس المعز لدين الله، هو من يقصده الروائي في المشهد المتخيل، لكن الجدير بالاهتمام هو رصده المهم للغليان الذي يستوطن السادات ويزعجه، ما ينهض دليلا على يقينه من تخطيط البابا شنودة لسيناريو الإهانة. أما الخطير بحق فهو المنسوب إلى السادات من تعصب ديني. استعلاء يتجلى في النظرة الدونية للمسيحيين، كأنهم ليسوا مواطنين مصريين لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما للمسلمين، فضلا عن ضيقه الأصيل بالديمقراطية التي يصب عليها لعناته. برقية شنودة لأقباط المهجر، ذات الظاهر الإيجابي، تُقرأ من منظور التآمر المتقن والخداع والمراوغة. الشروع في الانتقام يتجسد في قراراته سبتمبر ١٩٨١، ومدخلها المباشر هو اشتعال فتنة الزاوية الحمراء، التي تشهد سقوط عدد كبير من الضحايا المسيحيين، ويمكن القول إنها تتويج لعقد كامل من الاضطرابات والفتن.

مأساة الزاوية الحمراء، يونيه ١٩٨١، ذروة الكارثة الطائفية التي يصنعها السادات بسياسته غير المحسوبة، التي تتسم بقصر النظر والعجز الفاضح الفادح عن تقدير العواقب. الاختلاف حول أسباب ودوافع الاشتعال المدمر، يتجسد في الحوار الذي تقدمه الرواية بين ميرنا وفيفيان:

"- أبى يقول قتلوا ٨٠ من إخوتنا في الزاوية الحمراء وحرقوا أكثر من ١٠٠ بيت.

-جعلوا منها زاوية مشتعلة بالنار الحمراء. ولا أعرف السبب. أطلق ملتحون شائعة عن بناء كنيسة أو تحويل منزل إلى كنيسة. وقال البعض إن مسيحيا يتردد على منزل ساقطة مسلمة، وردد آخرون أن لاعبيَّ نرد على مقهى تشاجرا، أحدهما مسلم والآخر قبطي، و... أسباب لا أول لها ولا آخر. والنتيجة موتى يدفعون ثمن قلوب مثقلة بالكراهية.

- أبى يتلقى يوميا وابلا من الإهانات في أثناء ذهابه إلى الكنيسة وعودته منها. شتائم وبصقات، وأحيانا يتعرض للاعتداء بمدِّ الأيدي.

- "أبو زبيبة" يقول إن حادثة الزاوية سببها إلقاء ماء قذر.

- الحقيقة إن واقع الحياة هو الذي صار قذرا!".

إزهاق الأرواح وإحراق البيوت والإسراف في العنف، أنماط من السلوك العدواني لا تتوافق مع الميل المصري الشائع إلى التسامح والإعلاء من قيمة التعايش السلمي بلا ضغينة، والأسباب المطروحة لتفسير المأساة الدامية لا تبرر التطرف في الغل على هذا النحو غير المسبوق، وتؤكد أن الاحتقان من القوة بحيث يتحول إلى زلزال مدمر لأوهى وأتفه الأسباب. الإهانات المتكررة التي يتعرض لها المسيحيون، قبل وبعد أحداث الزاوية الحمراء، تشير إلى وجود شروخ عميقة في البنيان المصري المتماسك عبر عهود طويلة متصلة، ومصطلح "الواقع القذر" خير تعبير عن المدى الذي يصل إليه الانهيار.

يتحول العراك الطائفي إلى جزء من نسيج الحياة المصرية المغلفة بالتوتر المزمن، ولم تكن قرارات سبتمبر ١٩٨١ إلا تجسيدا لتخبط السادات وفشله الذريع في التصدي الصحيح للأزمة التي هو صانعها وداعم مشعليها منذ البدء.

بعد عزله، يحتفظ البابا شنودة بنفوذه الروحي الذي يستحيل إلغاؤه بقرار من السادات، ويتشبث الرجل العنيد بالصلابة التي لا تعرف المهادنة: "البابا المحجوز في ديره غير راضٍ عن تصرفات اللجنة الخماسية. وكان يتوقع منها أن تعلن الرفض والتحدي لقرار السادات".

لا يعترف البابا بشرعية قرارات السادات، ويرفض كل عمل يقوم به الأساقفة المعينون لإدارة الكنيسة. لا شيء من المرونة والاقتراب من الاعتدال في موقفه هذا، وتغيب عنه حقيقة إنه لا ندية بين الدولة والمؤسسة الكنسية، التي لا يملك قادتها من القوة ما يدفعهم إلى التمرد على السلطة التي لن تتورع عن المزيد من البطش:"في دير الأنبا بيشوى بوادي النطرون كان البابا شنودة يقضى الوقت في الصلاة والقراءة والكتابة، ويتلمس الأخبار حول الكنيسة. يغضب بشدة عندما يصل إلى علمه أي عمل يقوم به أحد أساقفة اللجنة التي عينها السادات لإدارة الكنيسة".

لا يعترف البابا بشرعية اللجنة، ويوقن أن أعضاءها لن يفلتوا من العقاب. لا شك في خطأ القرار الانفعالي الذي يتخذه السادات المسكون بالغضب وشهوة

الانتقام، مخالفا للأعراض والتقاليد الموروثة كافة، لكن: ألم يخطئ البابا شنودة بدوره؟.

التقييم السياسي الموضوعي لمواقف البابا شنودة لا شأن له بمكانته الدينية، وفي هذا الإطار وحده يمكن القول إنه شريك في عملية التصعيد التي تشهدها مصر في السبعينيات. عدد غير قليل من المسيحيين يتحفظون على ردود أفعاله التي تتسم بالعصبية، بل إن الأنبا غريغوريوس، وهو من هو في المؤسسة الكنسية، يخاطبه في برقية شهيرة بجملة موجزة دالة، تكشف عن تناقض لافت في شخصيته: "لماذا أنت عكس ما تعظ؟".

قد يبالغ بعض المسلمين، المتعصب منهم والمعتدل، في الهجوم على البابا شنودة، لكن الكثير من النقد الذي يوجهونه ليس طائفيا ينم عن الكراهية، ذلك أن قطاعا من المسيحيين يتفق معهم فيما يذهبون إليه: "حول البابا شنودة الكنيسة إلى بديل للدولة التي أغلقت أبوابها في وجه الأقباط. استخدم أموال أقباط المهجر في بناء بيوت الخدمات بجوار الكنائس التي نشطت في إنشاء الحضانات وتقديم دروس التقوية والخدمات الصحية".

الإفراز السلبي لهذا النشاط الاجتماعي الخيري، يتمثل في تنامي الشعور بوجود "دولة داخل الدولة"، وتكريس نوازع العزلة والتقوقع، فضلا عن تصاعد الهجرة التي يُتهم البابا بتشجيعها والسعي إلى استثمارها للضغط على السادات.

المآخذ على البابا لا تصدر عن الأغلبية المسيحية التي تدين له بالولاء المطلق وتضفى عليه القداسة، وتسرف في إكباره وإجلاله والحديث عن معجزاته الخارقة. يتجلى ذلك بوضوح في التعليقات على حادث المنصة واغتيال السادات بعد شهر واحد من قرارات سبتمبر، المسبوقة بعزل البابا: "فرح الأقباط كثيرا بمقتل السادات وقال شحاتة لزوجته سعدية:

-أربعون رصاصة مزقته بعد أربعين يوما من سجنه للبابا شنودة. بركاتك يا بابا شنودة يا قديس.

-أنا خائفة من أن يقتلونا مثلما قتلوه.

-يا قليلة الإيمان. انظري إلى تدبير ربنا وثقي به. غضبنا من السادات لأنه عزل البابا وحبسه في الدير. هذا تفكيرنا الضيق. لكن ربنا حفظ البابا بهذا العزل

من رصاصات الإرهابيين لأنه إذا كان موجود وغير معزول كان لابد له أن يشارك في الاحتفالات بالنصر ويقتله الإرهابيون".

اغتيال السادات من كرامات البابا، والرصاصات الأربعون تتوافق مع الأيام الأربعين بعد عزله، والغياب عن المشاركة في احتفالات النصر جراء العزل معجزة إلهية لإنقاذه من الإرهابيين، أما مقتل الأسقف صموئيل فلا يستدعي الحزن لأنه أقرب إلى العقاب المستحق لقبوله قرار السادات!.

هل تختلف معاناة المسيحيين في عصر مبارك؟!. إذا كان السادات هو اختيار عبدالناصر، ما يعني الامتداد مع الإقرار بالاختلاف الكبير بينهما، فإن مبارك بدوره هو اختياره السادات، ويسير على دربه دون إهمال الخصوصية النابعة من التباين في الشخصيتين، ولعل الملمح الأهم هو التراجع النسبي للعناد والصراع الشخصي: "وعدم غضب مبارك البليد من زعامة البابا شنودة على عكس السادات".

لا مبالاة الرئيس الأسبق مبارك بزعامة شنودة التي تستفز سلفه، لا تعنى اختلافا جوهريا في المسار الموضوعي. المعيار الأهم في التقييم هو السياسة التي يتبناها الرئيس الجديد، والتي لا تختلف في شيء ذي بال عما كان سائدا من قبل. الأمر ليس شخصيا، دون إهمال الدور الذي تلعبه العوامل الذاتية، وما تقدمه الرواية عن أزمات المسيحيين في عهد مبارك، حوادث الفتن الطائفية وإحراق الكنائس وتواطئ الأجهزة الأمنية، تأكيد على أن الهم الطائفي قد يتأثر بالأفراد والزعماء، لكنه أعمق وأخطر من أن يقتصر على هذا الجانب وحده.

المؤلفات المنشورة للكاتب والأديب

مصطفى بيومي

الصادرة من مركز إنسان للدراسات والنشر والتوزيع

أولاً: في الرواية

١- أمير المؤمنين، ٢٠٢٠

٢- إنسان، ٢٠٢٠

٣- لذة القتل، ٢٠٢٠

٤- أكاذيب صغيرة، ٢٠٢٠

٥- يوم ، ٢٠٢٠

ثانياً : في النقد الأدبى

٦- معجم شخصيات بهاء طاهر، ٢٠٢٠

٧- معجم شخصيات علاء الديب ، ٢٠٢٠

٨- كرة القدم في الأدب المصرى، ٢٠٢٠

٩- الحلم والكابوس..عبد الناصر في الرواية المصرية، ٢٠٢٠

١٠- الوهم والكابوس ... السادات فى الرواية المصرية، ٢٠٢٠

١١- ظاهرة الحجاب ... قراءة فى الرواية المصرية، ٢٠٢٠

ثالثاً : فى السينما:

١٢- كرة القدم فى السينما المصرية ، ٢٠٢٠

١٣- الإخوان المسلمون والسينما ، ٢٠٢٠

١٤- عباقرة الظل ، ٢٠٢٠

رابعاً: كتب أخرى

١٥- إعرف..مصطلحات وكلمات متداولة ،٢٠٢٠

سيكون المؤلف ممتنا، إذا تفضل القارئ الكريم بإبداء ما قد يعن له من ملاحظات

ت: ٠١٠٠٥٧٦٢٥٩٧

الفهرس

المقدمة	٥
الفصل الأول: نجيب محفوظ	١٣
الفصل الثانى: إحسان عبد القدوس	٢٩
الفصل الثالث: فتحى غانم	٤٣
الفصل الرابع: بهاء طاهر	٥٣
الفصل الخامس: صنع الله ابراهيم	٦٥
الفصل السادس: جميل عطية ابراهيم	٨٩
الفصل السابع: رءوف مسعد	١٠٩
الفصل الثامن: خيري شلبى	١١٩
الفصل التاسع: علاء الديب	١٣٣
الفصل العاشر: يوسف القعيد	١٤٥
الفصل الحادى عشر: جمال الغيطانى	١٦٣
الفصل الثانى عشر: إبراهيم عبد المجيد	١٧٧
الفصل الثالث عشر: مصطفى نصر	١٩٣
الفصل الرابع عشر: محمود الوردانى	٢٠٩
الفصل الخامس عشر: عمرو عبد السميع	٢٢٣
الفصل السادس عشر: ناصر عراق	٢٣٧
الفصل السابع عشر: مصطفى عبيد	٢٥٣
الفصل الثامن عشر: روبير فارس	٢٦٧

جميع الحقوق محفوظة لشركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات والتدريب والطباعة والنشر.